الكتاب: فقهاء الظلام

المؤلف: سليم بركات

طبع في دمشق 2015

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: دار الزمان

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا: ص.ب 5292

تلفاكس: 00963 11 5626009

موبايل: 00963 932 806808

E-mail: zeman005@yahoo.com

E-mail: zeman005@hotmial.com

Website: www.darzaman.net

التنضيد والإخراج: **دار الزمان**

تصميم الغلاف: **م. جمال الأبطح**

لوحة الغلاف: **سليم بركات**

سليم بركات

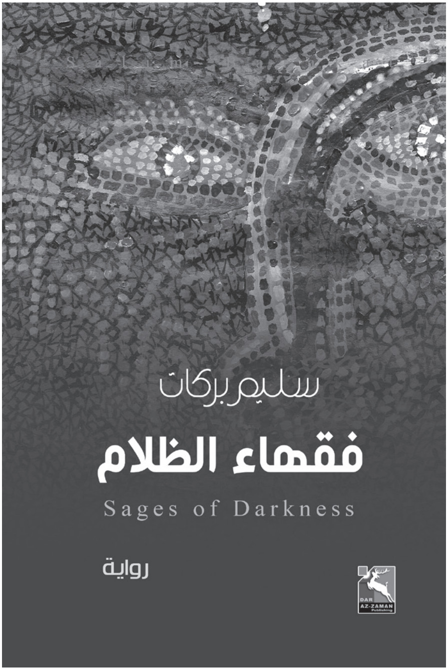

فقهاء الظلام

Sages of Darkness

رواية

الحمقى الذين قبلوا الاشتراك في هذه الرواية:

الملاّ بيناڤ بن كُوْچَرَي

برينا بنت عَڤدي ساري، زوج الملاّ

كِرْزو، زِيْوانْ، عاني، حَمْزَات: أولاد الملاّ من زوجه الأولى.

خَاتي بنت كوچري، أخت الملاّ

بيكاسْ، ابن الملاّ بيناڤ من زوجه برينا.

سِيْنَمْ بنت مَهْمَدْ بن كُوچري، زوج بيكاس

مَهْمَد بن كُوچري، أخو الملا بيناڤ

مجيدو بن عَڤدي سارِيْ، أخو برينا

باڤي جُواني، الضحية الثرثارة (يقتله مجيدو).

ابن زاري، جد برينا

عڤدي ساري، والد برينا، وجد بيكاس.

جَهْوَرْ ساري، أخو عَڤدي.

عَيْشَانه بنت أوسيْ بدرخان، زوج مَهْمَد.

سطَّامُو لاويْ حَجِّي عبَّاس، مهرِّب التبغ.

حِشْمُوْ، زوج خاتي.

حَيْنَدرْ، صاحب الثور.

حسين بن كُوچري، ذو القرنين، والد الملاّ بيناڤ.

حُسُّو (حسين) المِيْرْسيْني، جد الملاّ بيناڤ.

بَاران بن ساري، جد عَقْدي.

عبد الصمد بن باران، والد عَقْدي.

زيْركَه، أم برينا.

كَلَشْ، أخو عيشانه. خال سينم.

سَرْبَسْتْ (حجر النشادر) بن كلش.

جَكَرْخُويْنْ، خال الملاّ بيناف.

الفصل الأول

حاول الملاّ «بيناڤ»، ابن «كوچري»، أن يبدو وقوراً كعادته. ابتسم من دون افترارٍ لشفتيه عن أسنانه الكبيرة القوية. ثم رفع يديه، وقرأ الفاتحة تمتمةً.

عمد بعض الرجال المحيطين بمجلسه إلى تملُّقه بكلمات إطناب ممطوطة فلم يلتفت إليهم، بل نهض في هدوء. فرد سجادة، وصلى ركعتين في إطالة ظاهرة خفّت فيها تمتمات الشكر، وكلمات المديح. وحين انتهى من ذلك طوى السجادة، ثم لّفها. انتعل حذاءه البلاستيكي، وخرج من الباب إلى الساحة المسوّرة.

الساحة واسعة. تقع المضافة في الجانب الشمالي منها، حيث كان الملاّ «بيناڤ». وفي الجهة الشرقية غرف متلاصقة، ذات أبواب مستقلة تطل على الساحة. أما في الجهة الجنوبية الغربية فتقع الحظيرة، التي تجاورها مساحة صغيرة مسقوفة بصاج متموج عارٍ، مخصصة للتنور.

اتجه «بيناڤ» إلى إحدى الغُرف، تاركاً وراءه سلسلة من آثار صفراء في رقعة الثلج الرقيقة. توقف فجاءةً، وانحرف يميناً مسافة مترين من باب الحظيرة. كان ثمت عصفور يتخبط في فخ. انحنى والتقطه في دعة. صاح ابنه «زيوان» الراكض إليه: «بابا، هذا هو الثاني، اليوم». أرخى الملاّ ما بين فكي الفخ فطار العصفور مترنحاً. فتح ابنه فمه دهشاً، فعاجله أبوه: «عسى أن يكون خيراً ما فعلناه يا بني. سأعوِّض عليك»، وألقى إليه بقطعة نقدية ثقيلة غاصت في الثلج، فاسترجعها الطفل فرحاً، بقبضته التي امتلأت بحشائش اجتثها من تحت الطبقة البيضاء. أكمل الأب سيره ودخل إحدى الغرف. خرج وفي يده سكين طويل، متجهاً إلى الحظيرة.

خرج الخروف الأول من باب الحظيرة راكضاً، ثم هوى فوق الثلج. تبعه ثان، فثالث، فرابع. كلها كانت تخرج راكضة ثم تهوي. تنهض فتدور حول نفسها، ثم تهوي، راسمة فوق الثلج رشاشاً أحمر، وبركاً حمراء صغيرة، ذات بخار خفيف. إذ ذاك خرج الملاّ «بيناف» بسكينه المخضب، فهرول إليه رجلان تناولاه منه، ثم انكبا على الخرفان سلخاً.

زغردت امرأة من جهة الغرف المتلاصقة فرفع الملاّ «بيناف» يده إشارة بالسكوت، فسكتت. «كل الناس ينجبون أبناء، ولست الأول»، قالها وهو يمشي في اتجاه غرفة المضافة. خلع حذاءه أمام العتبة، ودخل. أفسح الرجال مكاناً له قرب موقد المازوت المتوهج، فتربّع. التفت إلى شماله، ثم إلى يمينه، بنظرة رضا، مومئاً، كأنما يردّ على التهنئة بشكر خفيّ. مد يده إلى علبة التبغ الفضية، ذات النقوش، وناولها إلى جاره. أخذها، ثانية، وناولها إلى شخص قباله، وراء الموقد، بحركة دفع دائرة خفيفة على السجادة، فتناولها ذلك الشخص.

كان تبادل علب التبغ المعدنية على أتمه بين الجالسين. من يدفع بعلبته إلى شخص يرد له الشخص ذلك بعلبته الخاصة. لفافات رقيقة، وأخرى ثخينة، من ورق شفيف وتبغ رطب، وأناملُ كثيرة مشغولة بعقدها في حذاقة لا تخطئ.

«ماذا ستسميه يا سيدنا الملاّ» سأله أحد الحاضرين. «بيكاس» ردّ الملاّ، كأنما هيَّأ الاسم من زمن. حاول السائل مجاملته، وقد فاجأه الاسم قليلاً: «لماذا تدعوه بالوحيد، يا سيدنا، وسلالتكم كبيرة بحمد اللّه؟»، ردّ الملاّ: «ليس لأحد سوى خِرافِه، وبيته، وقمحه الذي

يخذله أحياناً فيتركه عارياً». ازدرد السائلُ الردّ، وانكب يشتغل على لِفافته بلسانه، يرطب الورق ليلتصق طرفاه.

في الغرف المتلاصقة، شرقي الساحة، كانت النساء يدخلن من باب، ويخرجن من باب، كلُّهنَّ في شغل. قماطات بيضاء، وصحاف من ثريد الخبز المحلَّى تنتقل معهن في فرح ذائب كالثلج الذائب من آثار الأقدام، بين الأبواب. أما المسافة الممتدة بين تلك الغرف والزريبة، حيث الرقعة البيضاء غير الممسوسة، والتي نصب الأطفال فيها فخاخهم المدفونة، إذ لا يظهر منها إلا قطع خبز صغيرة، فكانت العصافَير تحوّم فيها، ثم تطير إلى الأعمدة البارزة، أفقياً، تحت الأسطحة، متوجسة خوفاً، بعد تخبُّط عصفورين فوق تلك القطع الظاهرة من الخبز المتبلِّ. ولو أنها تمحَّصت الأمر قليلاً لانقضَّت دون خوف. فالخبز في الثلج، بعد ساعة على أبعد تقدير، يتحول إلى شيء هش تماماً، وفي إمكان المناقير أن تلتقطه كسرة كسرة دون أن تنفك إبرةُ النابض عن المَحْبَس. كان هذا ما يحدث، عادة، حين يترك الأطفال فخاخهم في الثلج طويلاً: تبتلع العصافير الخبز من غير أن ينغلق فكا الفخ، فيعضّون على أصابعهم قهراً، صارخين من وراء زجاج النوافذ المطلة على الساحة: «اكسر رقبته يا أحمق»، ويظل الفخ أحمق صامتاً. وهم لا يقدرون على تغيير الخبز في الفخاخ كل برهة، لأن آثار أقدامهم، في الثلج، تجعل العصافير نفورة عادة، لذلك ينتظرون اختفاء آثار أقدامهم ليكون التمويه على أتمِّه، وهنا تقع الواقعة إذا استمر هطول الثلج أكثر من اللازم.

من المتّبع أن تكون حبّات القمح هي الطُّعْم في الفخاخ، لكن الثلج يغطي الحبّات في يسر لا يجاوز الدقيقة، لذلك يستبدلون القمح

بقطع كبيرة من الخبز لتبقى ظاهرة للعيان فترة أطول، وهنا الضعف في هذه الطريقة.

الوقت. آه. للطُّعم وقت، وللملاّ «بيناف» وقت في التفكُّر. كانت الساعة تشير إلى النصف بعد التاسعة صباحاً. نُدَفٌ أخيرة كسولة من الثلج تهوي على مهل. لا ريح. بضعة زرازير تتشبث بسلك كهربائي يمرُّ فوق الساحة، وقد نفشت ريشها حتى اختفت أعناقها في السواد المرقَّط. كلب يقف على قائمتيه الخلفيتين خارج البوابة الخشبية، ناظراً من الشقوق إلى بقايا أحشاء الخراف وجلودها المهملة. جيران الملاّ «بيناف» هم أول من وفدوا. في ساعة الفجر كان مخاض امرأته. المرأة الآشورية التي كانت تتوقع الأمر، منذ المساء، اصطحبت زوجها في الصباح الباكر، وكان هذا الرجل هو «المدني» الوحيد بين الرجال، ذلك ما كانوا يطلقونه على من يرتدون البناطيل والسترات. وقد قدّم الملاّ «بيناف» لضيفه كرسياً قرب الموقد، بينما اقتعد الآخرون، جميعاً، السجاد المطرّز، ملتفين بعباءات ثقيلة مبطنة بالفراء. ومن ثم مدّ يده إليه بعلبته الفضّية، فاعتذر الآشوري، لأنه لا يتقن لفَّ اللُّفافات، وهو يفضّل - على كل حال - السجائر الجاهزة ذات الفلتر.

سيأتي الأقربون والأبعدون. هكذا يفكر الملاّ «بيناف»، وتلك مسألة تضايقه قليلاً. لا يهمه الوافدون إليه من هذه المدينة الصغيرة، فهم لن يكلفوه ما لا طاقة له به، بل يهمه الآتون من القرى، الذين سيمضون أياماً في ضيافته، والحال على قَدِّرها. صيفه الماضي قصم الظهر. لم ترتفع السنابل مقدار شبر عن الأرض، فلَم تُحْصَد، بل تُرِكت للرّعي. أُبهَّته تنحسر، والمكان يضيق. بات يفكر كم

ذبح من الخراف، وكم سيذبح. كم كيس طحين سيكفي القادمين، وكم فراشاً سيتّسخ بفعل الأقدام التي غسلتها عصارة الثلج والطين المتسربة إلى الأحذية. وهو وقور بفعل انقباضه الدائم، الذي لا يستمزج المرح، مترفع قليلاً ليحفظ ما تبقّى.

كان غير آبهٍ، فيما مضى، بالذي يجري داخل بيته. غائب وإن كان حاضراً. ثلاثة أرباع النهار في «سوق التجارة» - حيث تتجاور غرف صغيرة تسمى «مكاتب». تشتمل كل واحدة على بضعة كراسٍ من القش، وطاولة لنَثر عيّنات القمح عليها، وهي مسقوفة بالإسمنت الذي تتخلله نوافذ ضيقة، في الأعلى، ذات زجاج سميك - وربع نهاره الأخير في البيت. ربع نهار طويل يمتد فيشمل المساء وبعض الليل، لا مع العائلة وشؤونها، بل مع زائريه، الذين يكملون أحاديث النهار حول تجارتهم.

في الصيف، بالطبع، تكون المشاغل أكثر، فما لم ينته إنجازه في «سوق التجارة» يُنْجَزُ في ساحة البيت. تبقى البوابة مفتوحة، سائقو شاحنات نقلٍ يأتون ويمضون. حمولات حنطة تأتي من الحصاد مباشرة إلى الشاحنات. عتّالون يأتون ويمضون. بعضهم يُسْتَبدَلُ ببعض آخر، والباقون يقبضون أتعابهم. عيّنات حنطة تأتي في مناديل الرجال الملوّنة، ليجري اختيار الأفضل. رجال من جمارك الشحن يتسللون، أيضاً، مع هؤلاء، لينالوا حصصهم لقاء «تسهيل» الأمور. وفي الخريف تختلف المسألة: يجري البحث طويلاً في استئجار أراضٍ مشهود لها بالخصب، وفي جرّارات الحراثة، والحَبِّ الأنقى. في الشتاء يتم رصد المطر. في الربيع تتعلق العيون بأسواق

القمح، ومداهمات البَرَد المفاجئة، إلى آخر ما هنالك من تلزيم لأصحاب الحصّادات، واختيار الطواقم، بدءاً بالطبّاخ وانتهاء بسائق عربة التموين.

كان غير آبه، فيما مضى، بشؤون بيته، فالأمور تجري بانتظام تلقائي. كل من يملك جاهاً تجري أموره بانتظام تلقائي. نساء الجيران يخبزن في التنور للعائلة، لقاء مؤونة الشتاء من أكياس القمح. اللحّام يختار من اللحم أحسنه، وينقله إلى البيت بنفسه، حتى من دون طلب. الأطفال مدلَّلون، الأقرباء يتسابقون في ذلك لكسب ودّ زوجه، وهي ستخبره، بالطبع، عَمَّن يليق بإهدائه فائضاً من كَرَمه. حتى شُجيرة الزيتون الوحيدة في ساحة الدار، والتي لم يزد نموّها عن متر خلال سبع سنين، ستجد من يتبرع بنكش التراب من حولها. غير أن الملاّ «بيناف» يشهد انحساراً كبيراً في رقعة مشاغله، فلا يجد نفسه إلا في مواجهة البيت: «لماذا تطأ طرف السجادة بحذائك الوسخ أيها الصبي؟»، وحين لا يردّ الصبي الخائف يصفعه. «من أهمل قارورة الموقد فلم يملأها من جديد؟»، وإذ لا يجد جواباً يركل الموقد فيتمايل، وقد انبثق الدخان من مفاصل المواسير الضخمة، التي تتجه إلى السقف. «أغلق الباب وارءك يا حمار، الريح الباردة تملأ البيت». «أوقفوا صراخ هذا الولد المعسور». «أشتمُّ رائحة البرغل المحترق، ألا تنتبهين يا امرأة؟». «حمير. عائلة من الحمير».

ثمت غضب ما يتّجه إلى غير المسبِّب، وهو يدرك ذلك في صفائه، الذي يواكبه حين ينكبّ على دفاتر حساباته المهلهلة من كثرة التنقيب فيها. ينظر من حوله في حنان مشوب باعتذار صامت إلى

الوجوه التي لا تتنفس حين لا يتنفس هو، ولا تبتسم إذا لم يبتسم. وهو لا يبتسم على كل حال، بل يعود بنظرته تلك إلى دفاتره، حيث الحسابات المدوَّنة بقلم الرصاص.

الأمور طُويتْ كلُّها، وبقيت الأرقام الفضية الباهتة. «من يخصُّ الحسابُ هذا؟» يسأل نفسه، أحياناً، بتمتمة، ثم يفكر طويلاً ليجيب: «آه». دفاتر متدرّجة في أحجامها: صغيرة ذات أسلاك لولبية للجيب، وأخرى متوسطة ذات مربعات زرقاء، وما تبقّى كبيرة الحجوم، بأغلفة سميكة، مرتسمة عليها آثار الأنامل حتى حالَ لونُها.. والملاّ «بيناف» ينقب على شيء ما، أُفلت من فكره فصار رقماً. من يدري.

على أية حال، لم يكن هذا الصباح كغيره من الصباحات. جاءه الرقم الخامس في سلسلة نسله، وكان صبياً، جرت تسميته على الأقل في رأس والده، باسم «بيكاس». قد يكون الملا فرحاً قليلاً بهذه الهبة الجديدة، لكنَّ الثلج يجعل الجزم بالأمر صعباً. أنْ تقومَ وتقعد، وتودِّع وتستقبل، فاتحاً الباب، كل مرة، لهبوب وهج قارس من الخارج، أمور لا تدعو إلى البهجة. ومع انتشار النهار، دقيقة دقيقة، تكبر المهمة الرتيبة، التي يقطعها سعال خفيف، من جرّاء انتقاله بين الموقد المتوهج والباب البارد.

في العاشرة وسبع دقائق، على وجه التحديد، أي حين نظر الملاّ «بيناف» للمرة الأولى إلى ساعة الجيب المعلقة بسلسلة فضية إلى زر من أزرار سترته، دخل عليه «كرزو»، أكبر أبنائه، مشيراً إليه من الباب كأنما يسأله أن يقترب ليحادثه، فتجاهله «بيناف»، مكملاً حديثه مع أحد الجالسين. وحين ألحف الصبي بالإشارات الصامتة، صاح به

والده في وقار، كعادته بين الناس: «تقدَّم، ولا تقف كاليربوع على الباب. لقد جلَّدْتَنا».

كان الصبي قد أطلَّ بنصف جذعه الأعلى من الباب، تاركاً قدميه خارجاً حتى لا يطأ طرف البساط، فاضطر إلى خلع حذائه، بعد أن دقّ بكعبيه طويلاً على العتبة حتى تنسلّ قدماه. ربما كانت فردتا الحذاء البلاستيكيتان ضيقتين. ثم دخل في خَفَر. قرفص قرب والده، وتمتم بكلام في أذنه، من وراء الحطة البيضاء المنسدلة على أذنيه ورقبته. نظر «بيناف» إلى الصبي في ريبة، ثم محا الريبة عن وجهه بابتسامة بليدة، ناظراً إلى الجالسين، لكنهم كانوا في حديث ما فلم يلمحوا انقلابات وجهه. أشار على الصبي بالانصراف، فانصرف. بقي شبه ذاهل لدقيقتين، قبل أن ينهض ويخرج لاحقاً بالصبي.

حين صار خارجاً، رأى النساء يتجهن إلى غرفة أخرى غير غرفة زوجه، حيث ينبغي أن تكون مع وليدها. ورأى أخته، التي تبرّعت بنهارها له، واقفة في الباب تصرفهن في رقَّة: «إلى الغرفة، هناك، من فضلكن. «برينا» ليست على ما يرام»، لكن وجهها كان ينمُّ عن عصبية تكاد تنفلت بين برهة وأخرى، وإذ لمحته قادماً حدّقت إليه، من بعيد، دون أن تطرف عيناها، مشدوهة بصورة ما، تتلألأ على الحدقتين كباشق. حدّق الملاّ «بيناف» فيها، بدوره، ليتأكد من كلام الصبي في وجهها قبل أن تنطق.

اقترب حتى كاد أنفه يلامس أنف أخته. النُّدف البيضاء الكسولة، التي سقطت على أهدابهما بتطفُّلٍ، لم تطرّف لهما جفناً. مدّ يده إلى مقبض الباب فالتفتت بعينيها إلى يده؛ إلى الحركة

البطيئة التي ستجعلها ترتعش بعد قليل. دفع الباب وهو ما يزال ناظراً إلى أخته من خلف كتفه. أردف الباب خلفه، وجال بنظره على الغرفة: زوجه على فراش ممدّد على السجادة، وقربها، في الفراش ذاته، ابنه الجديد، مغطّى حتى قمة رأسه، وأكبر حجماً من طفل. ظن ذلك للوهلة الأولى، غير أن وهلته الأولى لم تخطِّئ تقديره للأحجام. خلع حذاءه عند طرف البساط وتقدّم. نظرت إليه امرأته في عياء ظاهر، مشوب بقلق غريب.

جثا على ركبتيه قرب الفراش، شاداً طرفي عباءته السمكية على فخذيه. «كيف حالك؟» سألها، فظلت محدّقة فيه بالعياء ذاته، لكنّ شفتها السفلى ارتجفت على دفعتين، فأشاح بنظره عنها، متفرّساً في الغطاء الذي يلاصقها. مدّ يده، في هدوء، إلى قمة الغطاء. سحبه فظهر شعر كثيف أسود. سحبه أكثر فبان جبين ورديّ، متغضّن قليلاً. حدقتا الملاّ تتسعان، ويده ترتجف. ضيّق ما بين جفنيه وتمتم بكلام غير مسموع، ثم سحب الغطاء عن الوجه بأكمله.

الخبر يتسرب من الغرفة الموصدة التي تقف أخت الملاّ على بابها، والوجوم يأخذ طريقه إلى وجوه الزائرين. التهنئة تستحيل، الآن، إلى نوع من التطفُّل: «أحقاً.. يا سيدنا الملاّ؟»، وقبل أن يكمل السائل يردّ الملاّ: «هبة الله أيّها الجار. هبة الله».

كل نصف ساعة يجد الملاّ نفسه متجهاً إلى الغرفة الموصدة، ثم يخرج أشدّ عبوساً. يطلب من أخته أن تحدّ من الزائرين قليلاً قليلاً، وأن توصد البوابة، بعد ذلك، فلا يدخل أحد. وحين تنظر إليه في استغراب، كأنما تسأله: «وكيف لنا أن نمنع كل هؤلاء؟»، يجيبها ماشياً: «نحن لم نعد هنا. قولي لهم لم نعد هنا».

الثلج الكسول، المترقرق على مهل من سماء حليبية، يمحو الآثار دقيقة بعد دقيقة. الزرازير لا تزال على السلك ذاته، الذي يصل الأعمدة من فوق الساحة. العصافير، وحدها، لم تعد بعد ذلك الهدوء. اقترب ابن الملاّ، ذو السنوات الست، وسأله أن يسمح له بنصب الفخاخ من جديد. حدّق أبوه فيه طويلاً، ولم يكن، بالتأكيد، يتفكر في جواب. بادره الابن. ثانية: «هل العصافير مقيدة حقاً؟»، فألوى الملاّ شفته السفلى، ورفع حاجبيه: «هكذا يقولون. في أرجلها قيود غير مرئية، لذلك تنتقل قفزاً». «من قيّدها، بابا؟» سأله ابنه. «اللّه يا بني. لابد أنها اقترفت ذنباً يستأهل القيد».

بات الوقت ظهراً. عمر الوليد يتراوح بين سبع ساعات أو ثماني. يدخل الملاّ إلى الغرفة ويطيل المكوث، والأخت تروح وتجيء أمام الباب، نافخة في يديها المثلجتين، وقد تقف أحياناً لتتنصت إلى الباب، ثم تكمل الحركة المقفلة ذهاباً وإياباً، غير آبهة بالطَّرقات التي تتناهى من بوابة الساحة، بين وقت وآخر.

النار ما تزال تحت القدر الكبيرة قرب التنُّور. بخار كثيف يتصاعد ممتزجاً بدخان الروث المبتل، الذي يستخدمونه وقوداً. امرأة عجوز تحرّك ما في القدْر بعصا طويلة، ثم تجثو أمام النار مُسْتَدفِئةً. وليمة ينقصها حاضرون جاؤوا في الصباح، واختفوا قبل أن ينضج لحم الخراف. وعلى مقربة من ذلك الاحتفاء الباهت بزائرين لا تُفْتَح لهم البوابة، انكبّ ابن الملاّ على الطبقة البيضاء يغطي بها فخاخه الباردة.

«أين رأى كل هذا، بحق اللّه؟» قالها الملاّ حين سألته أخته عن الأحوال داخل الغرفة، وما يجري هناك. وأضاف: «إنه يعرف أنني

بقيت نائماً فسهوت عن صلاة الفجر، بسبب سهر الليل. أتصدقين؟». سألته: «وكيف حال المرأة؟»، «مذهولة» أجابها. «ماذا سنفعل الآن؟»، ردّ مطرقاً: «من يستطيع أن يردّ قَدَره. لكن الذي يخيفني هو أين سيتوقف الأمر».

تقدّم الملاّ، وسط ثلج الساحة، إلى حيث المرأة العجوز المنكبّة على تحريك الطعام في القدِر بعصاها. صاح به ابنه، من زاوية الزريبة التي اتخذها مرصداً يرقب منها الفخاخ: «حاذر يا أبي، لقد وطأت فخّاً». لم ينتبه الملاّ، حقاً، إلى القرقعة الخفيفة تحت قدميه. نظر إلى الأسفل لبرهة، ثم أكمل مشيه. «كيف حال الخراف؟» بادرَ المرأة، فابتسمت ابتسامة مجعَّدة: «إنها دافئة الآن، وهذا خير لها من صقيع الزريبة». تمتم «وحال النار؟». لم يكن سؤالاً هذا، بل محاولة إبعاد شبح سؤال آخر يستعصي جوابه. إذ ذاك جثا، بدوره، قرب القدِر، وبسّط يديه للوهج المتسرّب من ألسنة صفراءَ تلعق الركائز الحجرية، ثم تنحسر.

«أخي». كان شارداً أمام الدفء الذي أحال نُدَف الثلج العالقة بعباءته إلى خيوط من الماء، ما تلبث أن تغيب في النسيج الأسود. «أخي».. سمعها حين هتفت أخته للمرة الثانية، فالتفت وهو لا يزال جاثياً. لم تكن تنظر إليه، بل إلى الباب، فأدرك، من فوره، أن البرهة التي انتظرها قد حانت.

كان شاب ورديُّ البشرة، بشعر أسود كثيف، ولحية منبثَّة في مناطق من الوجه دون أن تتصل تماماً، يطلّ من الباب، مظللاً عينيه بيده ليتّقي وهج الثلج، وقد شدّ بالأخرى على غطاء سميك لفَّ به جسمه. قصير القامة، لكن بتناسق. ربما يكون في السابعة والعشرين

أو الثلاثين. نهض إليه الملاّ بتثاقل، وحين صار قباله قال: «سيؤذي الثلج عينيك يا بني». ضيّق الشاب ما بين جفونه، وردّ: «ينبغي أن أرى أشياء كثيرة أعرفها بإحساسي فقط يا أبي». صمت لبرهة، مُجيلاً بعينيه في الساحة، وأردف: «أين إخوتي؟». التفت الملاّ إلى أخته، وأومأ، فاتجهت المرأة إلى غرفة مجاورة. وقبل أن تعود، كان الملاّ وابنه الشاب يدخلان إلى غرفة الأم من جديد، ثم يجلسان قربها، على الفراش.

بعد برهة دخل أبناؤه الأربعة. صِبْيَة، أصغرهم في الرابعة، وأكبرهم في العاشرة من عمره. كانت أخت الملاّ ترشدهم إلى حيث ينبغي أن يجلسوا حول الموقد، بينما أخذتهم نوبة من هرج خفيف. صاح الأصغر على حين غرّة: «أريد أن أكبر مثل بيكاس»، فنهره الأكبر: «اسكت». والأكبر يدرك بإحساسه، ومن خلال ذلك الذهول الذي يستحيل إلى استسلام في وجه الأب، أن الأمر ليس للتَّفكُّه.

لم يجد الأب ما يقوله، ليجعل التعارف ممكناً بين أبنائه الأربعة من جهة، وبين هذا الوليد الذي يختزل السنوات، كل ساعة، من جهة أخرى. بأي مَثَل يسترشد ليجعل الفهم محتملاً، وبأي ظاهرة يستنجد أمام هذه الطفرة التي لا يشبهها إلاّ ما يعرفه عن نبيّ تكلّم، وهو في المهد، بكلام كبير؟ ينتقل ببصره الحائر بين وجه زوجه المستندة إلى وسادة، وبين وجه أخته. وحين أعيته الحيلة، قال في ما يشبه الهمس: «هذا أخوكم بيكاس.. وهؤلاء هم إخوتك يا بيكاس». وفيما الكلام الذي نطق به الملاّ يترقرق كنقر على صفيحة، تقدّم الشاب، زحفاً على ركبتيه، إلى حيث إخوته حول الموقد. ابتسم

فاتسعت حدقات الصغار. مدّ يده الوردية إلى شعر أخيه الصغير مداعباً ومستأنساً، فأحنى الطفل رأسه ليتلافى تلك اليد.

الابن الأكبر «كرزو» لم يبادل أخاه العجيب ما بادله الصغير من نفور. جرّ نفسه على البساط، وهو جالس، مبادراً «بيكاس» بقوله: «أهلاً أخي»، ثم مدّ يده مصافحاً. وكانت هذه التوطئة من الابن البكر مدخلاً إلى كسر الوجوم الدافئ بفعل وهج الموقد. همس الثلاثة الآخرون: «أهلاً بيكاس». وكأنّما نسي الأب والأم ما هما فيه من غرابة، إذ غرَّتهما هذه التوطئة الحكيمة للصِّبْية، فاندفعا يحثان الجميع، في حماسة، أنْ: «قبلوا بعضكم بعضاً. هؤلاء إخوتك، هذا أخوكم. يا للعار، تتهامسون كغرباء. ارفعوا أصواتكم. نعم، هكذا».

بات الصِّبْية يرفعون الكِلْفة التي لم يرفعها الأبوان في أعماقهما. فهذا الـ «بيكاس» أغلق صورة الأبوّة على نفسه بعد ساعتين من ولادته، حيث رأياه وليداً فاختزنا ما تختزن الأبوّة تجاه وليدٍ، ثم نما خارجها على نحو يجعل الحيرة والدَّهش سيدين على أحاسيسهما.

الأبوان يَرقُبان فحسب. الأمور تأخذ مجراها خارج أي تدبير. يقول «زيوان»، ناصب الفخاخ، موجّهاً الكلام إلى أخيه «بيكاس»: «أتحب صيد العصافير؟». «العصافير؟» تساءل بيكاس، «آه. العصافير. تصيّدت منها الكثير قبل مجيئي»، ونظر مبتسماً إلى أخيه الذي فاجأه الجواب، ثم أكمل ليدفع عن هذا الصغير حيرته الهشة: «لم نكن نتصيَّد العصافير بالخبز، مثلك، بل كنا نضع الفخاخ بين ورق الأشجار، ونجعل الفاكهة طُعْماً». بعد ذلك الجواب التفت إلى الأكبر «كرزو»، تاركاً ناصب الفخاخ في تساؤلاته المتسارعة: «لماذا لا

تسألني كيف أنمو بهذه السرعة؟». فتح «كرزو» فمه كمن وجد سؤالاً، فلم يدعه «بيكاس» ليكمل، ملتفتاً إلى الخلف، حيث الأبوان اللذان تلألأ في عيونهما السؤال ذاته. «اللعنة» تمتم، «كيف سأشرح ما لا طاقة لي به. أنا مذهول مثلكم. أراكم كل ساعة أشخاصاً آخرين، ينمون معي سنة بعد سنة، في تسارع يختلط فيه فهمي الثابت لأشياء أعرفها عنكم قبل مجيئي». صمت برهة، وأضاف: «حيرتي حيرتان: حيرتكم بي وحيرتي بكم. فلنتقبَّلِ الأمر معاً، إذ لم يبق من الوقت إلاّ أقلّه. انظروا، قد أصبح في الأربعين عصراً، وفي الخمسين مساء. والليل؟.. لا أعرف. ثمت شؤون علّي أن أنجزها معك يا أبي، فالدَّورة دورة، سواء أإكتملت في يوم أم في عشرين ألف يوم. سيكون قاسياً عليك شرح ذلك لهؤلاء الواقفين خلف البوابة، والمنتظرين جواباً قاطعاً. إنها محنة، فتهيَّأ لذلك فقط، وانسَ حيرتك فيَّ».

ربت الأصغر، من إخوته، على فخذه ليجعله يلتفت إليه، فالتفت. «أعندك دفتر؟ أنا عندي دفتر»، قالها الصغير. «أووه» ردّ بيكاس، «دفتر!! كل الدفاتر التي في حوزة والدي هي دفاتري»، فقطّب الصغير: «لا. إنها دفاتر بابا».

تململ «بيكاس»، فالأسئلة المشروعة لهؤلاء الصِّبية ستطول: «أبي، أريد أن أبحث معك أمراً يلحُّ عليَّ»، ثم نظر إلى أمه مكملاً: «ومعك أنتِ أيضاً».

«خاتي» صاح الأب، فدخلت أخته التي بدت، بسرعة دخولها، وكأنّها كانت تتنصَّت من الباب طوال الوقت. «نعم؟» سألته. «خذي الأولاد وأطعميهم يا أختي» ردّ الملاّ، وأضاف: «تأخر الوقت ولم يأكلوا

بعد». تقدّمت أخت الملاّ فأخذت بيد الصغير، ودفعت الآخرين أمامها كخراف مرحة.

زحف «بيكاس» على ركبتيه مقترباً من فراش أمه، بالطريقة ذاتها التي اقترب بها من الموقد. «اسمعاني» بادرهما، وهو عارف أنهما سيستمعان حتى رؤوس أناملهما. «أريد أن أتزوج»، وصمت ليقرأ شفاههما التي ارتخت قليلاً، ووجهيهما الخاليين من أي تعبير. وكأنما أراد أن يقيدهما أكثر بسحرٍ يزيد ارتخاءهما، حتى ينزلق اللحم عن العظام في ارتجاج مطّاطيّ، أردف: «إنها المحنة». تمتم الأب: «محنة..» كمن يهذي، أمّا الأم فغاصت كتفاها في المخدة التي تستند إليها، وغدت قطعة رمادية من الفراش الرمادي. «إنها محنة ستنسيانها حين تنقضي، أما أنا فلن أجد الوقت لأنساها.. أريد أن أتزوّج، وهو مطلب يسبق سؤالي عن ثيابٍ أرتديها»، قال ذلك، في حين تعلقت عينا الأب بمربع أزرق في البساط، نافرٍ صلدٍ، تكاد تختفي إحدى زواياه تحت الفراش. وقد بات يرتّب الأضلاع في ذهنه، دائراً من خطٍّ أفقيٍ إلى زاوية فإلى خطٍّ عمودي، صاعداً هابطاً، لا يعثر على كلمة. كابوس المربّع الأزرق يسيطر على اللغة فيجعلها زرقاء ممتدة في الساحة، لا في الحروف ذات الهندسة. امتداد بليغ، يحصر تاريخ الملاّ، وتاريخ أسلافه، في عدم أزرق لا محطة فيه ولا انعطاف. مسافة بكماء في مربع تذوب زواياه، وتمَّحي فلا يعودان، هو وامرأته، واقعيين إلاّ بهذا الصمت المهرّج.

«سيتزوج» همست الأم، فأفاق الأب مردّداً: «سيتزوج..». وبدا أن كليهما لا يفقهان معنى الكلمة، عدا «بيكاس»، المبتسم من هذا

الوجوم الفكاهي. «نعم» قالها جازماً: «أنت تعرف أعمامي بالطبع، وفي مقدرتك أن تختار من بناتهم». «أعمامك» ردّد الأب الكلمة مرتين، «آه»، ثم انزلق إلى هاوية مربع البساط الأزرق. «أعمامك؟»، وانتفض: «أتمزج؟ قل إنك تمزح. لن يصدّقوا ما سنقول. نحن لم نصدّق الأمر بعد، فمن سيهب ابنته من أجل كذبة يا بيكاس؟». رد الابن: «عليك أن تحاول يا أبي. لم يبق من الوقت الكثير»، فاحتدم الأب: «وقتُ مَنْ يا عجيب؟ من يهتم إذا بقي وقت أو لم يبقَ؟ ولماذا عليّ أن أنصت إلى إلحاحك هذا لتجعل المحنةَ أقسى؟ استُرْنا بحق الله، فأنت تُجْهز علينا». «لا» ردّ بيكاس، «الأمر محسوم، وستفعلها يا أبي». نهض الملاّ على ركبتيه، متوعداً: «ومن حسم الأمر؟»، فأجابه ابنه «ستفهم ذلك فيما بعد يا أبي». «لا أريد أن أفهم شيئاً فيما بعد، ولا أريده الآن. لستُ معنيّاً بفهم هذه المحنة، فليفهمها ربك». أمسكَتْه امرأته من كمّه، كأنما توبّخه على كلام لا يليق بشخص في مقامه، فانتزع الكم بذراعه منها، متمتماً: «لماذا أنا؟» مشيراً بأصبعه إلى صدره. «إذا كنتُ المُختارَ لهذا الامتحان فلست بقادرٍ عليه. للإنسان حدود في الاحتمال، ولا تجاوز حدودي هذه الساحة التي يتصيد فيها أخوك العصافير. اسمع...». كان نبضه يعلو فتهتز العباءة، كأنما استحال الملاّ بجسده كله إلى قلب مذعور: «يتهيّأ لي أنك تعرف كل شيء، فدلَّنا على منفذ»، وتراجع جالساً بمؤخرته فوق فراش الأم، مستسلماً بمرارة لما سيقوله هذا الذي تزداد الأخاديد الصغيرة حول عينيه عمقاً.

كانت علبة التبغ الفضّية، المجاورة للمربع الأزرق في البساط، تدور حول نفسها تحت الأنامل العابثة لبيكاس، والأب ينظر إلى

الحركة مرتقباً جواباً ما. رفع «بيكاس» العلبة على راحته ومدّها إلى أبيه: «لفّ لي سيجارة يا أبي». «سيجارة. نعم، سيجارة»، ردّد الملاّ وهو يتناول العلبة كالمنوَّم. فتحها وعقد الورق الشفيف على بعض التبغ، ثم بلَّل حوافها بلسانه فاكتملت. قدّمها لابنه وهو يشعل ولاّعة الكيروسين ذات الفتيل. عبّ الابن الدخان ملء فمه دون أن يبتلعه، ونفخه في هدوء. «التبغ مُرٌّ يا أبي، كيف تطيقونه؟»، ثم ازدرد لعابه في ما يشبه القرف، لكنه احتفظ باللُّفافة مشتعلة بين إصبعيه، اللّتين كان يحدّق أبوه فيهما. «والآن يا بيكاس؟» تمتم من غير أن ينظر إلى وجهه. ردّ الابن: «السؤال ذاته يا أبي. سأتزوّج، فتدَّبر الأمر مع أعمامي». نهض الأب واقفاً، ثم ركل ابنه الجالس ركلة خفيفة تنم عن غضب لا يوصف: «لو لم تكن.. لو لم تكن»، وكان يبحث عن كلمة يصفه بها فلا يجدها. قد تكون «لو لم تكن عجيباً»، أو «غريباً»، أو «شيئاً يدعى ابناً»، أو «وافداً ما تزال الكلفة قائمة بينه وبيني»، أو.. من يعرف بمَ كان يفكر في فورته، غير أنه أضاف: «لركلتك على وجهك. ورّطتني حتى أنني أوصدت البوابة في وجه الزائرين، وها أنت تورِّط أناساً آخرين في طلب لن يفهمه أحدٌ من كائن، لن يفهمه أحد»، ثم اتجه إلى الباب صارخاً: «سأهرب. عليّ أن أهرب من هذا البيت». لبس حذاءه البلاستيكي ذا العنق الطويل، وصفق الباب خلفه.

نهض «بيكاس» مسرعاً بدوره، عارياً تحت الغطاء السميك الذي يلفّ به جسده، وخرج خلف أبيه.

نُدَف الثلج تزداد رخاء وتتكاثف. لا ريح بعد، والزرازير ذاتها على السلك الكهربائي فوق ساحة البيت. الملاّ يتجه إلى البوابة

الخارجية مهرولاً، هارباً من شبح ابنه الحاي الذي يهرول بدوره. أخت الملاّ تطل برأسها من الباب الذي قادت إليه أولاد أخيها، خالية الوجه من أي تعبير، ثم تغلقه، في هدوء، على المشهد، كأنما الأمر يعني القَدَر وحده.

فتح الملاّ البوابة، وخرج هائماً في الساحة البيضاء التي تجاور سور البيت. والمساحة ممتدة شمالاً. بضعة بيوت متناثرة تلوح في البعيد الذي يجعله الثلج المتساقط أكثر عمقاً. الملاّ يمضي بتثاقل من أثر قدميه اللتين تغوصان، وابنه يمضي بتثاقل أيضاً، عاري القدمين، وثمت أمتار بينهما لا تنقص ولا تزيد، فالأب متمهّل الآن، والابن متمهّل مثله، كشخص يتبع الدليل.

الأم، وحدها، التي تركها الأب والابن في سباقهما، لا تعرف مسافة غير مسافة ذهولها. مربعات البساط تستحيل إلى عيون متسائلة، والجدران تقهقه. تشدّ اللّحاف السميك إلى ما فوق أنفها، وتبقي عيناها محدقتين في فراغ يقرقع بسوطه في الهواء. «إلهي، لو محوت كل هذا في لحظة..» تقولها صامتة، فيكبر الواقع الذي يشبه جسده جسد ابنها: شعر كثيف ينسدل من لا مكان، وأنامل وردية تعبث بالأسئلة.

يختفي الأب والابن في ما وراء البيوت المتناثرة شمالاً. آثار أقدامهما المتعرجة تكاد تلحق بهما تحت مكنسة الثلج البليدة، وفي مسافة أبعد، حيث تكاد تخوم المدينة الصغيرة هذه أن تلحق بتخوم تركيا، أدرك الابن أباه. «أبي، لا حاجة بك إلى كل هذا» قالها «بيكاس» صارخاً، فالتفت الأب وقد بان عليه العياء واللا جدوى.

وقف سائلاً ابنه في إشفاق: «ألا تؤلمك قدماك الحافيتان؟». رد الإبن: «لا أحس بهما، لكن عيني ستسقطان من محجريهما إذا استمرت المطاردة يا أبي».

مسح الأب على لحيته بيده الزرقاء التي أخرجها من تحت عباءته، ثم قلَّبها أمام عينيه متفحّصاً: «لقد ربحت يا بني. إلى أين سأهرب مني؟»، فتقدم منه ابنه ممسكاً بتلك اليد: «فَلْنَعد، إذاً، يا أبي».

مقبض الباب يدور من الداخل بفعل حركة اليد التي تديره من الخارج. همستان تعقبان تلك الحركة: «تفضّل»، يسأل أحدهما، فيردّ الآخر: «تفضّل أنت». سحبت الأم جسدها من تحت الغطاء لتستند بظهرها إلى المخدة. يدخل الأب خالعاً حذاءه على حدود البساط، بينما يدخل الابن وقد خلت قدماه من أي لون. يقف حائراً: أيطأ البساط أم ينتظر؟. يصيح الأب: «خاتي» فتردّ أخته من الغرفة المجاورة: «نعم يا أخي». «هاتي بماء فاتر» يضيف الملاّ. يأتي الماء الفاتر في إبريق نحاسي، وهم يحتفظون في كل غرفة بإبريق فوق موقد المازوت. «صُبِّيِه على قدميه» فتصبُّ الأخت الماء على قدمي ابن أخيها في رفق. فينزلق الماء على الجلد فيتورَّد قليلاً قليلاً، منسرباً من مجرى إسمنتي في الزاوية يُفضي إلى الخارج، حيث يأخذ طريقه بين الثلج في أخدود ضيق.

حيرة الملاّ تجعل يده تنزلق في حركة آلية على لحيته، ثم على صدره ففخذه اليمنى. يتقرّى حدود المربعات في البساط قبل أن يمسك بخيط يتدلّى من حاشية قفطانه. يسحب الخيط فتنفرطُ

عُقَدٌ على مسافة بوصة في الحاشية. يتوقف لأنه يدرك أن استمراره في سحب الخيط سيجعل الثَّنْيَةَ تتدلّى. يعقد عقدة صغيرة في المكان الذي انتهى إليه سحب الخيط، ثم يقطعه بجمرة لُفَافته. يلتفت إلى امرأته سائلاً: «من منهم اختار؟». تجيبه: «مَهْمَدْ. أنت تعرف أن لدى أخيك مَهْمَدْ ابنة...» ثم ترفع يدها إلى مستوى وجهها، كأنما تضيف: «ربّما».

الملاّ يفهم حركة امرأته. لدى أخيه «مَهْمَد» ابنة بسيطة العقل، جاوزت العشرين ولا تعرف العدّ حتى العشرين. يحسّ بأسى وهو يفكر على هذا النحو: «ألا يليق ابني بفتاة لا عيب فيها؟» يسأل نفسه. تنخفض عيناه خجلاً من أن تلتقيا بعيني ابنه، لكن عليه أن يحبك المؤامرة على هذه المحنة، وعليه أن يعفي نفسه، في الوقت ذاته، من مساءلة مرفوضة بالتأكيد. ستكون حجته أمام إخوته الآخرين ضعيفة جداً، لكنه إنْ سأل «مَهْمد» يد ابنته المسكينة هذه فإنما يمسك بضعف أخيه كله في يد واحدة.

خمس دقائق إلى الخامسة مساء. يعيد الملاّ ساعته ذات الغطاء إلى جيب صدّارته. «فلأمضِ الآن» يقولها بصوت عال، من غير أن يعني أحداً بقوله. ينهض في اتجاه الباب، وقبل أن يكمل ارتداء الفردة الأولى من حذائه البلاستيكي، المبّطن بصوف أشعث، ينادي أخته «خاتي» فتأتي إليه. يسألها أن تتهيَّأ لتمضي معه فتجيبه أنها جاهزة. ينظر إليها الملاّ متوقعاً أن تسأله في الأمر، لكنها لا تسأل. «خاتي» تعرف التسلسل المُرَّ للمهزلة، من غير أن تسمع أو ترى إلاّ القليل. هادئة كمن عليه إنجازُ مهمة أُحِيْطَ بها علِماً من قبل. تفكر

بين الحين والحين في أطفالها الذين تركتهم في البيت طوال النهار، لكنها عارفة أن زوجها الوديع يقوم بالأمر على أحسن ما يكون.

كانت «خاتي» مُهْمَلَةً في العادة، لا يستدعيها أخ من إخوتها إلاّ لترعى أطفاله إذا مرضت الأم، أو للطبخ إذا كثر الضيوف. وكذلك يفعل إخوة زوجها وأخواته. عمر متواصل من غسل ملابس طفل متَّسخة، أو ملابس أمٍّ وضعت وليداً. عمر متواصل تحت أثداء الأبقار والأغنام، حيث تطفو رغوة الحليب النَّيئ في قدور سوداء من الخارج بفعل الدخان. عمر من غربلة سَقَطِ القمح الرخيص الذي يشتريه زوجها قبل إرساله إلى المطحنة، وهاهي فخورة، الآن، بمواكبة أخيها في أمر صعب.

تتبع «خاتي» أخاها في الظلام الذي يحلُّ باكراً في هذا الوقت من السنة، وكلاهما يستهدي بشعاع الثلج الذي يخترق الأزقة غير المرصوفة في طرف المدينة. حَدَباتٌ صغيرة، وحفر في الطريق، تجعلهما يتعثران، أو يغوصان. لا صوت. لهاث فقط. الأخت تفكر في المسألة على نحو قدريٍّ متَّصلٍ بالأعالي التي تغيب فيما وراء الثلج، والملاّ يفكر في مدخل إلى زيارته، ثم ينسيان، معاً، أسئلتهما، حين يقرعان البوابة الخشبية التي تتوسط السور الطينيّ. يقرعان بقوة حتى يسمع أهل البيت فيرتفع النبض في أصداغهما. صوت بعيد يجيبهما: «لحظة.. لحظة».

يفتح الباب فتى في الثالثة عشرة، فيميزهما: «عمي.. عمتي». يدخلان دون أن يجيباه بشيء، فيردّ الفتى البوابة بقوة حتى تنغلق، ثم يدفع الرتاج الحديدي الصدئ في الحلقة الصدئة، فينبعث صوت

كأنين كلب. يسمع الملاّ وأخته، في مرورهما، نهوض بقرة في الزريبة، وقَأْقَأَة دجاج في القن ما تلبث أن تهدأ فور عبورهما. يصلان إلى باب البيت الذي يبعد عن البوابة مسافة ثلاثين متراً، فيدفعانه دون استئذان. ضوء سراج الكيروسين خفيف في الداخل، لكن وهج النار في المدفأة يضفي لألأة منيرة، وظلالاً أنيسة على الجدران. ينهض الجالسون من مفاجأة الزيارة. لقد حاولوا زيارته للتهنئة فكانت بوابته موصدة، وهاهو يزورهم، مُبَاغِتاً، فينهضون في آلية من يباغت لصاً. أكانوا يتحدثون، في تلك اللحظة. عن بوّابة الملاّ؟ أم عن قِحته التي دفعته إلى الاختفاء في مناسبة هي للفرح؟ بوغتوا وهم يتحدّثونن مرْخينَ سيقانهم حول الموقد، وعلى وجوههم أقنعة من دخان اللُّفافات. «تفضَّل. تفضل»، دبَّتِ الهمهمة.

عائلة أخيه «مَهْمد» حول الموقد بأنفارها التسعة. «مَهْمد» يكبر الملاّ بستة أعوام. وثمت جيران أيضاً، أتوا يتسامرون. لم يردّ الملاّ كثيراً على إيماءات الترحيب، كأنما هو في عجلة من أمره. والفاصل الوحيد بين صمته ووجوم الجالسين كان أن عَقَد لُفافة من علبة أخيه التي انزلقت على البساط حتى لامست يده. نفخ سحابة من الدخان من فمه، أما ما خرج من منخريه فقد استقر في لحيته، متموجاً كضباب خفيف في حقل فلفل. «أريدك أنت وزوجك في خلوة» قالها لأخيه. ولأن كلامه، هذا، خلا من أي انفعال، فقد أحس الجالسون ما يريب، فاستأذن الجيران وخرجوا، أما أفراد العائلة فالتمسوا موقداً في غرفة أخرى، كان يفصلها عن هذه الغرفة باب واطئ تخفيه ستارة سميكة من القنّب الملون.

«أخي» بادر الملاّ الرجل الآخر، الجالس محتضناً ركبتيه إلى صدره، «جئت أسألك ابنتك سينم»، وجال بنظره على أخته وزوج أخيه.

حدّق في اللهب خلف النافذة السيلوفانية الضيقة في صفيح الموقد، عارفاً ما يجول في رأس الزوجين. كان يقرأ وجهيهما اللذين ينتظران، بعد الزيارة المباغتة، أن يفاجئهما بموت الوليد الذي جاءه فجر هذا اليوم، لا أكثر، إذ ما من إشارة إلى غير ذلك في وجهه هو. «انصتا إليّ» أضاف، «لن تفهما ما سأقوله، لأنني لم أفهمه بعد، لكنني أرجو أن تستسلما للأمر كما استسلمت له. ابني..»، وارتشف من لُفافته نَفَساً أتى على نصفها، فمال الجمر حتى كاد يسقط، فصحّح الوضع بإصبعه بعدما بلَّلها بلسانه. «ابني بيكاس، الذي وُلد فجراً، ينمو في الساعة الواحدة ما يقارب ثلاث سنين. مشيئة اللّه. وابني يريد أن يتزوج اليوم، أعتقد أنكما فهمتما لماذا أغلقنا البوابة في وجوه الزائرين. لا أريد أسئلة كثيرة، لأنني منتفخ بالأسئلة التي تدور في رأسي. أريدكما أن تستسلما لأكذوبة، لا أكثر، ولا أقل».

لم يُحرِ «مَهْمَد» جواباً. زوجه وضعت يدها على فمها كأنما تسند عينيها حتى لا تسقطا. «أوه» نفخ الملاّ. «ما يحصل لكما من دَهَش حصل لي حين رأيته بأم عيني، للمرة الأولى، وهو ينمو دقيقة بعد دقيقة. تصوّر يا أخي أنك إذا سهوت قليلاً، وأنت تلفّ لُفافتك، وأفقت ثانية، تجد شعراً على صدغيه، ثم شارباً ينمو، ثم ترى تجاعيد تأخذ مكانها، الواحدة تحت الأخرى، في هدوء. وهو يعرف ما نعرف من غير أن يكون قد رأى. لطيف جداً، ينسيك ما أنت فيه من حيرة»، وابتسم ليبدّد ما لن يبدّده أحد. «لن تخسروا شيئاً.

شاركاني هذه المحنة من غير أن يسمع أحد صخب هذه المحنة. قصدتكما لأنكما تقيَّان».

رفع «مَهْمَد» وجهه المنكّس وقد اختفت عيناه بفعل الظلال التي يرسمها لهب الموقد: «اخترت ابنتي بسبب قصورها العقلي؟». غمغم الملاّ فلم تسعفه إلاّ مخارج حروف لا يبين فيها جواب. بادره أخوه، ثانية، كأنما ينقذه: «لن يطلبها مني غيرك. أعرف ذلك. لكنها ابنتي على كل حال..»، فردّ الملاّ بصوت يشوبه احتداد خفيف: «وبيكاس ابني على كل حال. المسألة ليست مساومة على الأبوّة بيني وبينك، بيد أنّي لن أجد فتاة أخرى تهب نفسها لهذا الموقف المحيّر»، وصمت الملاّ ليعقد لُفافة جديدة من علبة أخيه، وإذ رفعها إلى فمه أردف: «نعم يا أخي، قصدتك لضعف موقفك بطلب ليس فيه إغراء»، وأشعل اللُّفافة في هدوء مَنْ أدلى باعترافٍ ينتظر مغفرة مضمونة.

قال «مَهْمَد»، موجهاً سؤاله إلى زوجه: «وماذا ترين، أنت؟»، فردّت حيرى: «إنه أخوك..» ولم تكمل. تمتم «مَهْمَد»: «ومتى تريدها جاهزة؟». «الآن.. سنأخذها معنا» ردّ الملاّ، وأضاف: «لا نريد الإبلاغ عن ذلك حتى الغد. فلنكن وحدنا في عقد القران».

قامت زوج «مَهْمَد» على فورها، هاربة من مواجهة نفسها وزوجها بأسئلة كثيرة، ثم دخلت من وراء الستارة القُنَّبية إلى الغرفة المجاورة. مضت دقائق ارتفع بعدها صوت أطفالٍ وصِبْيَةٍ يهتفون في نشيد ساخر: «سيـ يـ نم.. سينم.. نم نم»، فعرف الكبار أن المرأة اضطرت إلى إبلاغهم بالأمر، لتبرير مغادرة أختهم الساذجة للبيت على هذا النحو المضحك. وبعد ربع ساعة، على التقريب، كانت

الفتاة البسيطة تقف قربهم بابتسامة بلهاء تتحول بين الحين والحين إلى نصف ضحكة مكتومة، ومن خلفها تقف أمها، حاملة كيسين صغيرين هما عبارة عن ملابس الفتاة وحوائجها. «سأسبقكم» قالها الملاّ وهو ينهض: «سأعرّج في طريقي على الشيخ عارو لأصطحبه لعقد القران». ثم انتعل حذاءه وهمّ بالخروج، غير أنه توقف ملتفتاً إلى أخيه: «لا تفعلها إذا لم تكن مقتنعاً يا أخي»، ورمى بعقب لُفافته خارج الباب الذي فتحه قليلاً، فأشار عليه أخوه بحركة من يده: «امضِ.. امض» من غير أن يقولها.

كانت «خاتي»، أخت الملاّ، أكثر خفَّةً في سيرها، ترى خط الثلج الرمادي بعينيّ بوم، وتحسّ بالأثلام كخفّاش. وحين صارت على مقربة من سور بيت أخيها هرولت. فتحت البوابة على مصراعها، ثم انعطفت في اتجّاه غرفة الأم. دخلت هامسة في فحيح عال: «لقد جاؤوا، فليرجع الأولاد إلى الغرفة الأخرى». ردّ «بيكاس»، الذي كان جالساً خلف الموقد، ولا يُرى منه سوى طرف قفطان أبيه الأكبر من مقاسه: «فليبقوا يا عمّتي، لا ضرر في ذلك». وقبل أن تستنفر عمّته كلمات أخرى كان الوافدون في الباب. قالت «خاتي»: «تفضلوا» فدخلوا، الأب أولاً، فابنته، ومن خلفها أمّها بالكيسين الصغيرين. ردّت «خاتي» الباب في سرعة، عازمة على أن تجعل الجو الصارم أكثر ليناً، لكن «بيكاس» أخذ بالمبادرة منها، ناهضاً مادّاً يده المفتوحة: «أهلاً عمي» فَذُهل العمّ. أخذ «بيكاس» يد الرجل المرتخية بين يديه، وهزّها. «تفضل» وأشار إلى وسادة قرب الموقد، فانزلق العمّ ثقيلاً بجسمه عليها. رفع «بيكاس» عينيه إلى وجه المرأة، ثم

جاوزها إلى وجه الفتاة. ردّ بابتسامة بلهاء على الابتسامة البلهاء. فم الفتاة مفتوح أبداً، وثمّت ضحكة محتبسة بين الأسنان. تدخّلت «خاتي»: «اجلسا، اجلسا»، وقدّمت وسادتين للفتاة وأمها. أمُّ «بيكاس» ردَّت الغطاء عن جسمها فبدت كأنها تهيَّأت للموقف: ثيابها كأكمل ما تكون، وعلى رأسها غطاء موصِلِّيّ أحمر مرقّط ببقع سوداء، وحول استدارة الرأس منديل زهريّ من الحرير.

الصمتُ يتصيَّد الصمتَ بصنّارته بين الوجوه. كلٌّ يراقب الآخر، مُطْرِقاً حيناً وملتفتاً حيناً، أو عابثاً بأيِّ شيءٍ يقع بين يديه ليداري العبث المخَيِّم على الموقف. حتى أولاد الملاّ، الذين بقوا في الغرفة بتوصية من أخيهم «بيكاس»، كانوا يلكزون بعضهم البعض دون نأمة، ومن يتألم منهم يفتح فمه على آخره، ثم يعود فيعض على أسنانه. حاول الصغير، ذو السنوات الأربع، الاقتراب من العروس المرتقبة فشدّه أحدهم من حاشية جلبابه، فسقط على وجهه، بينما ظلت مؤخرته في الهواء. هم أن يبكي فتلقَّفت إحدى الأيدي فمه وسدَّته.

على حين غرَّة دخل الشيخ «عارو» يتبعه الملاّ. نهوض جماعي وجلوس جماعي. إيماءات بالرؤوس لا معنى لها حول الموقد. «اقترب يا بني. اقتربي يا ابنتي» قالها «عارو» مستعجلاً. قطعة ورقيَّة من فئة الخمس والعشرين ليرة جنبت العائلة أسئلة الشيخ. «بسم الله. أنكحتها لك.. تأخذينه، تأخذها. عُهْدةٌ. المهر مقدّماً.. خمس ليرات رشادية..». هذه الكلمات، إضافة إلى كلمات أخرى، استقرّت على البساط الصوفي ذي المربعات. بعدها نهض الشيخ متمتماً: «على بَرَكة الله»، وخرج يودّعه الملاّ في الباب.

الصمت يزداد ثقلاً، من غير أن تقطعه التفاتات الفتاة البسيطة الفجائية إلى هذا الوجه، وإلى ذاك، مسترسلة في ابتسامتها البلهاء. «خاتي» ألقت بثقلها على الموقف: «أيّ غرفة نختار للعروسين يا برينا؟»، فردّت زوج الملاّ: «غرفة المضافة»، وأومأ الملاّ برأسه موافقاً، فهرولت الأخت لتهيئ ما يلزم لليلة كهذه.

ما من أحد في حاجة إلى قليل من السمر. هكذا بدا الموقف بين الملاّ وزوجه من جهة، وبين أخيه وزوجه من جهة أخرى. قد يُبدّد الصباح شيئاً من هذا الكابوس: الوجوم في الوجوه يميل إلى تخمين كهذا. علبة تبغ الملاّ وعلبة أخيه انتقلتا بالتناوب بينهما. حركة آلية من الأفواه والأنوف لنفخ الدخان. تجاسر الملاّ بكلمات قليلة إلى أخته: «حان وقت العشاء يا خاتي. أطعمي الأولاد واذهبي إلى بيتك. نشكرك على كل شيء. سيفتقدك أطفالك وزوجك». واستدرك فأضاف: «سأتدبر لي ولأخي وزوجه شيئاً نأكله»، فردّ «مَحّمَد»: «اعذرنا. يجب أن نعود إلى أولادنا لنتعشى معاً يا أخي»، فلم يلحّ الملاّ، كأنما يودّ أن تغيب الصورة الماثلة في أسرع ما تكون. «كرزو» هتف الأب بابنه البكر: «دلّ أخاك وعروسه على غرفة المضافة».

لم يكن يهم الملاّ، في هذا الموقف، أن يرشد ابنه «بيكاس» إلى ما ينبغي فعله، فالعادة أن يقوم رجل وامرأة، كلٌّ بدوره، بإرشاد العريس والعروس إلى ما يتوجب عليهما في هذا اللقاء الأول، لكن الاستثناء في الموقف أنسى الحاضرين لعبة المرح التي يُفْصح فيها العارف عن معرفته للساذج الجاهل بهذه الأمور. النساء كنَّ يتفكَّهْن بالعرائس، قائلات: «احرقن خصلة من شعركن قرب الفراش، قبل أن يدخل

عليكن الرجال، لتجعلنهم متعلقين بأجسادكن إلى الأبد»، وإذْ يريْن أن الفكاهة انطلت عليهن يُقهقهن: «لا. نمزح. ارفضن الاستسلام ليشعر الرجال بعفّتكن». وكان الأمر يكلف العرائس ما يشبه الاغتصاب من جراء ذلك. أما الرجال فينصحون المقبلين على الزواج قائلين: «لا تطيلوا المكوث في الداخل. فضُّوهن واخرجوا على الفور، لأن في الإطالة انتقاصاً من ذكورتكم»، وقد كلّف ذلك الكثيرين عِنَّةً من لهفتهم إلى السرعة فما استطاعوا.

«كرزو» يقود أخاه وعروسه إلى المضافة بخطى تترك خشخشة في الثلج، حاملاً قنديل الكيروسين ذا الشعلة المرتشعة. فتح الباب ودخل، فدخلا من خلفه. علّق القنديل إلى مسمار في الحائط، وانكب على المدفأة يشعلها بخرقة مبللة بالمازوت، معلقة إلى سلك طويل، وحين تيقَّن من دبيب اللهب في القاع الصفيحي للمدفأة، انسلَّ خارجاً.

كان الفراش الممدد قرب الموقد مجهزاً على عجل، فاللحاف السميك مكوّم فوقه دون ترتيب، والشرشف القرمزي ملقى قرب الوسادة في إهمال، منتظراً من يقوم ببسطه على الفراش. جلس «بيكاس» على اللحاف تماماً، فبدا عالياً عن الأرض. أشار إلى «سينم» لتجلس، فاختارت مكاناً على البساط قرب الموقد، متجهة بقدميها العاريتين صوب الصفيح الذي بدأ يتوهج. وكانت تبدو، في جلستها تلك، كطفل على وشك أن يستلقي ليتلقفه أحد من قبل ارتطام ظهره بالأرض. الابتسامة البلهاء تتحول إلى هأْهَأة، و«بيكاس» يتفكر في الأمر على نحو من يُقْبل على لعبة. مدّ إصبعه

مداعباً خاصرتَها فتلوَّتْ مُقهقهةً. نزل عن اللحاف المكوّم زحفاً، وشدَّ غطاء رأسها الموصِلّيَّ فاهتزت جديلتاها السوداوان. بدا خائفاً قليلاً، أو مُتهيِّباً، لكن سذاجة الفتاة الضاحكة، وخِفَّتها، سهَّلتا عليه إمعانه في اكتشاف الغريب.

لهاثه الغرائزي يرتفع، متستراً بابتسامة كابتسامتها. ينحدر بيده من كتفها إلى ثديها فلا تجفل. تنظر إلى يده بهأْهَأَةٍ تجعل اللعاب يتلألأ في زاوية فمها. أرجعَ يدهُ إلى حضنه، وسألها بصوت متقطّع: «أتعرفين لماذا أنت هنا؟»، فردّت الفتاة محدّقة بعينيها الساخرتين: «لنتزوّج». سألها ثانية: «أتعرفين معنى الزواج؟»، فردّت ووجهها على الحال ذاتها: «يعني أن تصبح زوجي». باتت بلاهتها تحيله إلى واثق لا يتقطّع الكلام في فمه: «هل أخبرك أحد قصتي؟». ابتسمت من غير أن تفهم السؤال. «من أنا؟» سألها. فردّت: «أنت بيكاس». تمتم: «أعرف أنني بيكاس..» فقاطعته: «أنت ابن عمي». «أوه» تمتم «بيكاس» ساخراً من اكتشافها هذا.

مدّ «بيكاس» ساقيه مثلها قرب الموقد، ملامساً بقدمه قدمها في دغدغة خفيفة. الفتاة لا تتوقف عن الهأْهَأة بفم مغلق. بادرها، وهي تنظر إلى حركة قدمه: «أتصدقين أنني ولدت اليوم؟». «هَأْ.. هَأْ» ردت الفتاة. «ولدت اليوم، وكبرت حتى صرت رجلاً». «هَأْ.. هَأْ». كان مسترسلاً في دغدغة قدمها: «عمر الإنسان، في الأصل، يوم واحد، ومن يعيشون لسنين هم استثناء»، قالها هامساً، وقد توقف عن الدغدغة، غير أن الفتاة بادرت، حال توقُّفه، إلى التحرش بقدمه، بغية الاستزادة من هذه اللعبة التي أعجبتها، فاستسلم

«بيكاس» لتحرُّشها، مكملاً حديثه: «يوم واحد يكفي. كم عمرك؟ عشرون سنة؟ وفَّرْتِ على نفسك مليارات من هذه الهَأْهَأة لو عشتِ يوماً واحداً فقط. لقد مللت من نظراتهم الفاحصة في ساعاتٍ، فماذا يحدث لو امتدت هذه النظرات لسنين؟ كل يوم ستقابلين النظراتِ ذاتها من غريب يتشمَّمُكِ كالكلب، قبل أن يطمئن إليك»، واستدركَ، كأنما يسأل نفسه: «أَين تعرَّفتُ على الكلاب؟. كنتُ حاضراً على كل شيء، في مكان ما، ولا يهم أن استقصي ذاكرتي لأعرف المكان ذاك. لقد رأيت الكثير، وهذا يكفي».

الفتاة مسترسلة في دغدغة قدمه بقدمها. التجاعيد تأخذ أمكنة لم تكن قد بلغتها من قبل. لحيته تتصل وتزداد كثافة. الهأْهَأْة تترافق، أحياناً، مع تكتكة خفيفة في صفيح المدفأة، الذي يتمدّد بفعل اللهب، فتتساقط نثارات من قشرته الداخلية المتفحمة على القاع. «أعجبتني اللُّفافات»، قالها مُسْتَذْكِراً، وقد أرخى رأسه على كتفه. «ليتني أصطحبت علبة أبي. أتعرفين..» التفت إليها فرآها تحدِّق فيه في وداعة لا استفسار فيها. «أتعرفين أني ملمٌّ بالأشياء، لكني أفتقر إلى الإحساس بطعمها. لقد رأيت من قبل، في مكان ما - لن استقصيه، فأنا متعب - من يأكل خبزاً ولحماً، ولكني تذوَّقتهما اليوم فكأنني عرفتهما توّاً، لا من قبل. والمرأة.. رأيتها. أشعر برعشة أسفل المعدة. الأمعاء، نعم. لماذا أشعر برعشة في الأمعاء؟ لأنني مقبل على تذوُّقها؟». إذ ذاك استدرك تناقضاً ما، فأردف: «يوم واحد يكفي. أن تستمر في التذوّق يعني أن تعيش أكثر. المعرفة تكفي، والإحساس بالطعم شواذ في القاعدة».

«هأهأ.. أمي ستطعم الدجاجات غداً، لأني سأبقى هنا». ألقت الفتاة بكلماتها هذه فاستعاد «بيكاس» إحساسه بدغدغة قدمها لقدمه. «الدجاجات» ردّد من ورائها، وصاح متفكهاً: «كَأْ كَأْ كَأْ كيك» مقلداً صوت الدجاج، فازداد هرج الفتاة حتى كادت تصدمه برأسها المهتز. قام من جلسته، ثم أحنى ظهره، رافعاً رجله اليمنى عن الأرض: «كَأْ كَأْ كَأْ»، فتشظّت القهقهة في فمها مبللا بلعاب متطاير. «كَأْكَأْ كيك» ودار حول المدفأة. رددت البلهاء بدورها: «كَأْكَأْ» واستلقت على ظهرها. جثا «بيكاس» قرب صدرها. ثم جعل ينقرها بأنفه أسفل الثدي الأيسر، مثلما تفعل الدجاجة حين تلتقط الحبَّ، فارتفعت ساقاها المرتعشتان من الضحك في الهواء.

كان «بيكاس» ماضياً في لهوه حين بادرته البلهاء، وسط القهقهة المبللة بلعابها: «عليك أن تقول كوكو، كوكوو»، فسألها، وقد رفع رأسه عن صدرها: «لماذا؟»، فردت: «لأنك ديك، ولست دجاجة». رفع «بيكاس» حاجبيه في تساؤل ساخر: «وكيف تعرفين أنني ديك؟»، ردت الفتاة: «للديك خصيتان، وللرجل خصيتان». «أووه. لقد نسيت ذلك»، قالها مبتسماً، ثم استلقى قربها على ظهره، متكئاً على مرفقيه، وجعل يدغدغ قدمها من جديد.

نظر إلى المدفأة لبرهة، ثم التفت إليها فرآها تحدق في قدمه اللاهية. سحب ساقه اليسرى في هدوء حتى اكتملت زاوية حادة في مثلث ضلعاه الساق والفخذ، وقاعدته أرضية الغرفة. انحسر جلبابه عن ركبته في ذلك الوضع، وقد تعمّد أن يشدّه بأطراف أنامله، خلسة، لينزلق حتى منتصف فخذه. نظر إليها من جديد فرآها تتبَّع

حركته المُفْتَضَحة بفم مبتسم مفتوح. رفع يده إلى فخذه وانحدر بحاشية الجلباب فتجمع في ملتقى الفخذين، اللتين يكسوهما شعر خفيف فوق بشرة لا لون لها إلاّ لون ضوء القنديل، الذي يعلو أو يخفت بفعل امتصاص الفتيل السريع حيناً، والبطيء حيناً آخر، للكيروسين.

يتراقص نبضه فيخرج زفيره متقطعاً. المعرفة مُنْجَزَة، لكن نكهة المعرفة ما تزال على مرمى حركة صغيرة من جسده: «ضعي يدك هنا»، وأشار بعينيه إلى حيث تجمَّع الجلباب فوق ملتقى فخذيه، فمدّت البلهاء يدها المخفورة بهَأْهَأة خفيفة حتى استقرت في المكان الذي أشار إليه. «ارفعي الجلباب» قالها هامساً، فسحبت يدها في حركة مباغتة، مصحوبة بقهقهة عالية: «كوكوو.. ديك».

كان واضحاً أن البلهاء مستمرة في اللعبة التي بدآها، غير حافلة بزفيره المتقطع. لكن «بيكاس» أمسك بيدها، وأعادها إلى حيث كانت بردّةٍ عصبية لم تبن على وجهه. إذ ذاك هدأت القهقهة، لكن الابتسامة ذاتها ظلت تحوم على فم «سينم»، التي أراحت يدها على ملتقى الفخذين، ولم تسحبها بعد ذلك. «ارفعي الجلباب» ردد الكلمة مرة ثانية، فشدت البلهاء الجلباب حتى سرَّته.

نظر «بيكاس» إلى نصفه العاري، ثم التفت إلى الفتاة فألفاها محدّقة في أعضائه. دفع يده في خَفَر حتى استقرت على فخذها. بدأ يسحب ثوبها بدوره، لكن الفتاة اعتدلت في جلستها، مطوقة ركبتيها بذراعيها في وضع مضموم، وعيناها لا تفارقان ذلك الظهور الغريب لاستطالات في جسد الرجل. البلاهة تنحسر إلى مكمن

الفضول. يد «بيكاس» المرتعشة تنذرها بشيء أبعد من لعبة، ووجهه الذي يكتسي صرامة في إقدامه الحائر لا يخفى حتى على دجاجة بلهاء مثلها. همس «ما بك؟»، فلم ترفع عينيها عن نصفه العاري. همس ثانية: «قلتِ للديك خصيتان، وللرجل خصيتان، وأنا رجل..». وكأنما استأنست البلهاء بعودة الكلام بعد وجوم متحفز، فندّت عنها هَأَهَأَة خفيفة. «كَأَكَأَ» ارتفع صوت «بيكاس»، عارفاً أن تربُّصه الفجائي كذكر بها قد صعَّب عليه استسلامها كأنثى، فقهقهت البلهاء من معاودة اللعبة.

على «بيكاس» إذاً، أن يعود بإغوائه إلى أوَّله. دغدغ خاصرتها فتلوَّت. قلَّد الدجاج من جديد، ناقراً بأنفه على ثدييها فاستلقت. انسلّ بجسده قليلاً قليلاً حتى استقر فوقها، متذرّعاً، في اللعبة، بإمساك ساقيها المتأرجحتين، في الهواء، بين ساقيه. يده اليسرى تستمر في دغدغة الخاصرة، بينما تشد اليمنى الثوب حتى ملتقى الفخذين. اشتداد صخب البلهاء بحركاتها العنيفة من تحت، وبقهقهاتها، جعلها تسهو عن التسلُّل العاري لحيلة اللحم. ساق الرجل تستقر في فرجة بين ساقيها، ثم تشتغل دفعاً بينهما ليتمكن الحوض من حصاره. سكنت البلهاء وقد فاجأها ارتطام صلب بمكانٍ حرصت طويلاً على إخفائه بغريزتها. يد «بيكاس» كانت أسرع من تصوُّرها لما يجري، فقد استقرت على فمها بإحكام، بينما اندفع الحوض في حركته التي استقاها من أوّل اتصال بين الخليقة.

انتهى الأمر في ثوان. تهيؤ «بيكاس» جعله سريعاً إلى درجة لم يدرك معها ما جرى، لكنه في استلقائه قربها، حين استقرَّ خائراً

على البساط بحركة دفع قوية من يدها، أحسَّ فضولَ الجسدِ السرمديِّ: اكتشاف ما لن يُكتشف قط. وقد قطعت البلهاء عليه ذلك شبه مولولة: «دم.. دم..»، رافعة يدها اليمنى إلى مستوى عينيها، فصرخ بملء فمه: «اسكتي»، فخيَّم عليها وجوم صلب، ويدها لا تزال في الهواء.

كان ثمت حلة وإبريقان في زاوية قرب الباب، حيث مساحة دائرية ضيقة من الإسمنت، ذات انحدار يؤدي إلى مَسْرَب يمضي خارجاً. والزاوية تلك مخصّصة للاغتسال عادة. أحضر «بيكاس» الإبريق ووضعه على سطح المدفأة، ثم جلس قرب «سينم» التي بدت خائفة مرتعشة. لم يَقُلْ لها شيئاً، بل مسّ براحته كتفها، وربت عليها مطمئناً. بعد دقائق جسّ «بيكاس» الإبريق. أنزله، ومدّه إليها: «اغتسلي هناك»، وأشار إلى زاوية الباب. تناولت البلهاء الإبريق ومضت إلى الدائرة الإسمنتية. رفعت ثوبها حتى الخاصرة ثم قرفصت، وجعلت تغسل نفسها. تركت الإبريق هناك فمضى إليه «بيكاس»، وفعل ما فعلته، مجففاً ما بين فخذيه بجلبابه كما جفَّفت الفتاة نفسها.

حين صارا جالسين حول المدفأة من جديد، بادرها: «هاتي يدك» فمدّتها إليه. تحسَّسي هذه الأسنان، وفتح فمه على آخره. «بدأت تتخلخل» قالها حين استعادت الفتاة يدها، فأجابته وهي تُهأهِئُ من جديد: «أسنان أبي تتخلخل. إذا خلعت أسنانك ارْمِها إلى الفضاء وغمّض العينين». سألها بمرح: «ولماذا عليَّ أن أفعل ذلك؟»، فردّت: «حتى لا يأخذها الشيطان. ارْمِها إلى الفضاء مُغمض

العينين»، همّ أن يسألها أكثر في الأمر، فرآها تمدّ يدها، خلسة، تحت ثوبها، فسحب يدها محتدّاً: «انسي يا سينم. كل النساء يجري لهنّ ذلك»، وزحف متراجعاً حتى استقرَّ على الفراش، فتمدَّد.

لأول مرة يحسّ «بيكاس» بازدحام غير متجانس من المشاهدات في ذاكرته. يد أمه التي مرّت على وجهه في حنان، ثم في حيرة، بعد ذلك، مستقرئةً نمواً لا تجد إليه فهماً. كبش ينهار بضربة من سكين تلتمع شفرته تحت ضوء الشمس. أين رأى ذلك؟ رجال كُثُر يقفون على باب موصد يذوب رويداً رويداً كشحم فوق النار، ليبدو رجال آخرون، من جهة الداخل، يقفون الوقفة ذاتها. «أبي».. رأى نفسه راكضاً ليقتحم الواقفين، صارخاً «أبي». كرة كبيرة بيضاء تتدحرج على مستوى أعلى من رؤوس الرجال، ثم تنحدر صوبه في هدوء. يرفع يديه ليصدَّها متشبثاً بالأرض بقدميه. يزداد ثقل الدفع و«بيكاس» يصرخ: «أبي». الأب على مقربة منه، خارج الجمعين المتقابلين من الرجال، الذين يفصلهم الباب الذائب. يعض «بيكاس» على أسنانه لاهثاً، وينظر إلى أبيه ليقول في حشرجة: «ظننتك في وسطهم يا أبي».

«ظننتك»، كان يردّدها لنفسه في استلقائه على الفراش، بما يشبه نوبة حُمّى. بعد قليل تراخى جسده المُجْهَد فرفع رأسه لينظر إلى عروسه، فرآها تحدّق فيه. همس: «كَأَكَأ» مداعباً، فلم تزددْ إلاّ وجوماً. استند على مرفقيه سائلاً: «ما بك يا سينم»، فأشارت بإصبعها إليه. رفع ظاهر يده بطريقة مائلة إلى مستوى عينيه، لينعكس الضوء عليها، مدركاً من وجوم الفتاة ما كان يحسّ به في

أعماقه، فرآها ملأى بالتغضّنات، وقد تقوّست أصابعه فلا تستقيم برغم جهده. «أووه» همس، «اللعبة تكتمل».

رعشة فزع غامضة تعتريه. كان يبدو واثقاً من دورته الغريبة، لكن ثقته تتزعزع في كلِّ مرة يرى الحيرة ذاتها على وجه أحد ما. فترات سلامه هي أن يستسلم المراقب، قبل عودة المراقِب، نفسه، إلى حيرة جديدة من زمن لا يراه إلاَّ على جسد «بيكاس». «ما همَّ» يقولها لنفسه، «لو وضعوا خصيتيَّ في كفة ميزان، ووضعوا سنواتهم في الكفة الأخرى، لرجحت كفّتي». إذ ذاك رفع رأسه عن الوسادة في وهن: «أوه، سينم»، ناداها ولم يكن من داع لمناداتها، فهي لا تفارق وجهه بعينيها،: «كم مرة يضاجع الرجل المرأة في حياته»، ولما ظلت ساكتة، أردف: «في وهنه سينسى كل شيء، ضارعاً إلى دقات قلبه حتى لا تخونه». ثم أشار إليها: «اقتربي»، فاقتربت زحفاً، من الفراش. قال: «ارفعي ثوبك»، فانتابتها هأهأة خافتة لا طعم لها. «ارفعيه. ارفعيه» ردّد الكلمة آمراً، فرفعته البلهاء حتى ثدييها. ظلّ يحدّق بعنق ملتوية إلى ملتقى الفخذين، هامساً: «هذا هو: هذا هو».

نُدَفُ الثلج تتلاحق في ساحة البيت بعد سكون قصير. الليل المرتجف كطريدة في شبكة رمادية، يلوح مضاءً في هذه الجهة من جسده المستطيل، أو في تلك، بوهج بارد يتضوَّع كالرائحة من الأرض. غرفة الملاّ وزوجه، حيث تكوّم الأولاد بعضهم قرب بعض تحت الأغطية، ترسل لألأة باهتة من النافذة، ومن ثقب المفتاح الكبير، الذي نسي أحدهم أن يسدّه بخرقة، حتى لا يتسلل منه الهواء. باب الزريبة مغلق على بعض أغنام وبقرتين، لكن دفئاً خفيفاً

ينبعث مما يسمّى «غرفة التنّور»، المسقفة بصاج عارٍ. ذلك ما يمكن أن تحس به أية روح عابرة في ذلك الوقت، فوق الساحة؛ روح كلب أو إنسان.

بصرير لا يسمعه إلاَّ من يكون قريباً يُفتح باب غرفة «بيكاس». شبح يستند بظهره إلى عارضة الباب ليرتدي حذاءه، ثم يوصد الباب خلفه بصرير لا يسمعه إلاَّ من يكون قريباً. يتقدم الشبح في الساحة ساحباً قدميه وراءه، في خشخشة عالية، متوّجهاً صوب بوّابة السور، وحين يدركها يستند عليها قليلاً، كمن يلتقط أنفاسه. يرفع المزلاج ويسحبه يميناً فتتحرَّر الدَّفة اليسرى من البوّابة. يجتازها ويرّد الدفة خلفه، ثم يمضي شمالاً ليغيب في الشبكة الرمادية المنسوجة من الليل والثلج.

قال «بيكاس» للبلهاء، قبل خروجه بدقائق من الغرفة: «هاتي عباءتي»، وكان يشير إلى العباءة المبطنة بالفرو، التي تكوّمت حيث كانا يلهوان، وهي عباءة استعارها من والده على كل حال، في يوم لم يكن كافياً لأن يشتغل خيّاط على مقاساته المحيَّرة. وحين حملت الفتاة العباءة إليه، وقف في عياء، سائلاً أن تساعده في ارتدائها، ولما اكتمل له ذلك جعل يتفرَّس فيها من وراء حاجبيه المرتخيين. «سينم.. اجلسي»، فجلست الفتاة بآلية مبهمة. كشف العباءة، بيديه، عن جلبابه، في الصدر حتى القدمين، هامساً: «تشمَّميني من الأسفل إلى الأعلى». بدت الفتاة واجمة، في مزيج من الحيرة والبلاهة، فأمسك برأسها ضاغطاً عليه إلى أسفل: «ابدأي من هنا»، وكاد رأسها أن يلامس البساط من ضغطه.

عادت الهأهأة إلى فم البلهاء وهي تشمه من أسفل إلى أعلى، ككلب وديع، ثم تنحدر من أعلى إلى أسفل، في لعبة لن تنتهي. أوقفها وهو يضمُّ ذقنها براحة يده، ثم يرفع وجهها إليه، قائلاً: «أوصدي الباب خلفي»، فأومأت «سينم» برأسها إيجاباً في راحته. مضى إلى الباب وفتحه فاقتحمت وجهه لفحةٌ كريمة من الثلج الكريم. استند إلى عارضة الباب، وارتدى حذاءه الذي بدا ضيّقاً، ثم أغلق الباب خلفه منسلاً إلى قدره.

آثار الخطى تمَّحي من خلفه في الثلج العجول، والبيوت التي تبدو على مرمى خطوات تختفي بعد عبورها بخطوات. الجهة الشمالية نفقٌ تحدِّدُ العين دائرته في الظلام. هذا ما يحسّه «بيكاس» الذي يزداد وهناً وإبطاءً. يفتح ذراعيه على وسعهما فلا يلمس أيَّ جدار للدائرة اللولبية. امضِ امضِ «بيكاس». لا مرئياتٌ فضولية تواكب خشخشة قدميه في الثّلج، وإذ يقف ليتنصَّت إليها، تعود إلى مزيجها الظلاميِّ الصامت. شبكة واحدة، عريقة تضمُّ جسده إلى العراء. كم يحسُّ بضيقه وباتّساعه: هذه، إذاً، هي الكرة المنفلتة من ماضيه؛ كرة اليوم الواحد المعلوم بفجره، وصباحه، وظهره، وعصره، ومغيبة، ومسائه، وليله؛ كرة اللامعلوم؛ الكرة الجاثية بعينين مغمضتين خشوعاً أمام معرفة تعبر الجهة الأخرى على ظهر حمار. و«المذاق؟» يسأل «بيكاس» نفسه، ليردّ: «فتحت عينيَّ فرأيت كل ما أعرفه، أما المذاق فليس إلا هذا الوهن». «عَمّ.. عَمّ» تلك كانت حركة فمه الذي يقضم الهواء والثلج. «عَمّ.. عَمّ» يصرخ «بيكاس» مقضقضاً بأسنانه، كأنما يلتهم اللامرئي، دائراً حول نفسه، ويداه تتشبّثان بغده الذي لن يأتي.

«خاتي»، أخت الملاّ، كانت تسرد، في الوقت ذاته، الأمر لزوجها في تقطُّع، بحسب ما رأت وسمعت، وكان الزوج الساذج يصغي إليها في ذهول. وبيت «خاتي»، الذي يقع على مقربة من بيت أخيها، لم يكن قد استكمل الإعداد للنوم برغم تقادم الليل. فالأب، الذي حاول جهده ليستحصل من الأولاد على مواعيد الأكل والنوم، أخفق في ذلك، ثم استسلم إليهم، فبات يخبرهم بأقاصيص أكثر بساطة منه، ينسى خواتيمها فيلّح عليه الأولاد، أو يخترعون ما يجدونه مناسباً، ليخرجوا الأب من ورطته، فيحاججهم، بدوره، كطفل، في أن ما يقولونه غير مقنع. إذ ذاك تدور الدائرة. يقول الأب: «وجد الكلب زورقاً وهو مشرف على الغرق، فتشبَّث به»، فيسأله الأطفال: «وأين كان الزورق؟». يرد الأب: «كان هناك، في النهر.. أنتم تعرفون»، فيردّ الأولاد صائحين: «سقط الكلب في البئر، وليس في النهر»، فيستدرك الأب: «أنا آسف.. تشبَّث الكلب بالدّلو».

فيضيف الأولاد: «بالدّلو الذي ألقى الثعلب به إليه»، فيهزُّ رأسه: «نعم.. نعم.. الثعلب ألقى إليه بالدّلو»، فينظر الأولاد بعضهم إلى بعض مقهقهين: «أيُّ ثعلب؟ الكلب سقط في البئر سهواً، ولم يكن هنالك من ثعلب». فيحتدُّ الرجل البسيط قليلاً: «ولماذا تسألونني عن قصص تعرفونها أكثر مني؟»، فيردون: «لنتأكّد ممَّا تقوله أمُّنا عنك». ويسألهم: «ماذا تقول أمكن عني؟»، فيجيبونه: «غبي، خصية قنفذ»، وتكون ردّة فعل الرجل أن ينهض كالبهلول، ملوّحاً في الهواء بحطّته التي ينتزعها عن رأسه، دون أن يهوي بها على أحد. أما الأولاد فيبقون جالسين، مصفقين لحركاته المضحكة، وتهديده الذي لا يخيفهم قط.

كانت «خاتي» تسرد ما يفوق فهم زوجها، الذي اقتصرت ردّات فعله على «واو»، «أووه» «هاي هاي»، بينما راح الأطفال يردّون عن وجوههم الأغطية، مادّين ألسنتهم سخرية من خلف ظهر أبيهم. «خاتي» تراهم، لكنها مسترسلة في شرح ما لن يشرحه أحد، بحركات من يدها، وبأنصاف كلمات توحي ببلبلتها أكثر مما توحي بفهمها. وحين تُخْفق، أو تشعر بأنها أخفقت في جعل هذا الأبله يلمس الذي تقوله مَلْمَس إدراك، تنتفض صارخة بالأولاد اللاهين: «فليتبوَّل عليكم عزرائيل». ثم تقذفهم بعلبة زوجها النحاسية، التي تقشّرت طبقة القصدير عن حوافها، فترتطم بالحائط، لينتثر على الوسائد تبغها المطحون.

«صدّقني يا حشمو» تقولها «خاتي» لزوجها، بعد برهة الغضب العابرة: «صدّقني أن قلبي كان يحسّ بانقباضٍ منذ البارحة»، وتصمت لتتفرّس في وجهه المنتبه. «البارحة. نعم. كانت دجاجة بيت رَمُّو راقدة لتبيض. لماذا اختارت هذا الوقت البارد لتبيض؟ اللّه أعلم. قَأْقَأَت طويلاً وهي تروح وتجيء من طرف الساحة إلى طرفها، وسط الثلج، وكان ابن رَمُّو الأعور يتبعها، بدوره، من طرف الساحة إلى طرفها. ابن رَمُّو جائع. طلب من أمّه كسرة خبز عليها سمن مُحلَّى كالذي يأكله ابن حُوِّبي فنهرته، صارخة به: اتبع الدجاجة ولك بيضتها». توقفت «خاتي» قليلاً لتسأل زوجها: «أتصدقني أن قلبي أحسّ بانقباض حين أخبرتني زوج رمُّو بذلك؟»، فهز «حشمو» رأسه بحركة سريعة إلى أعلى وإلى أسفل. «أين وصلنا؟» سألت «خاتي» نفسها، واسترسلت من جديد: «نعم. قالت

زوج رمُّو أن ابنها تبع الدجاجة حتى دخلت القن، ثم انتظر أكثر من ساعة فلم يظهر شيء. ذهب إلى أمه صارخاً: «أنا جوعان. لن أنتظر هذه الدجاجة التي لن تبيض». استغربت الأم ذلك التأخير، فحملت المكنسة متجهة إلى القن ذي الباب الضيق الشبيه بفتحة التنّور. حوَّمت بالمكنسة داخل القن فخرجت الدجاجة مذعورة. رفعت «خاتي» إصبعها إلى مستوى حاجبيها، سائلة زوجها: «أتعرف ماذا رأت؟» فرد الرجل: «لا». أضافت المرأة: «رأت طرف البيضة ظاهراً من مؤخرة الدجاجة. الأمر واضح، لقد أصابها عسر في الطرح. وفي هذه الحال - قالت زوج رمُّو - أن عليها أن تكسر البيضة، وتستخرجها بإصبعها حتى لا تموت الدجاجة. حالات كثيرة كهذه ذهب ضحيتها دجاج ثمين. ركضت مع ابنها لتلتقط الدجاجة المذعورة، وحين حاصراها في زاوية السور الطيني طارت، بقدرة قادر، حتى بلغت أعلى السور. جاءت زوج رمُّو بعصا طويلة لتتدبَّر نزول الدجاجة فلم تفلح، بفعل انتقالها السريع من جهة إلى جهة. استسلمت هي وابنها إلى الأمر، ومضيا إلى داخل البيت قبل أن يتجمَّدا، عسى أن تنزل الدجاجة بمحض إرادتها». وسكتت «خاتي» لتضيف بعد تثاؤب: «أتعرف ما جرى؟ لقد وجدت المرأة الدجاجة متجلدة، بعدئذ، فوق السور. ماتت، ولم يخرج من البيضة إلا قسم يسيرٌ».

اللهب يترجرج في موقد الملا «بيناف». نام الأولاد، ونامت زوجُه، أو تظاهروا بالنوم، أما هو فقد فرد أمامه كدسة من دفاتره، هرباً من براهين وشروح لابد منها في غده الذي يحسُّه جالساً مثله قرب الموقد، مادّاً يديه وساقيه إلى الدفء، وعلى وجهه ابتسامة خبث أكيد.

الأرقام تتزاحم في خطوط عمودية على الورق المسطّر، وإذ لا ينتهي حاصل الجمع في صفحة ما، فثمت سهم يشير إلى الصفحة التالية. أرقام، وسهام صغيرة من أثر ضربةٍ حنونٍ لغنىً سحيق. كل يوم يجرف سنة من سنوات دفاتر «بيناف»، وكل دفتر يجرف محاصيل سهول بأكملها.

لو قُيِّض للقرى أن تخرج على صورة لم تلتقطها عدسة، خرجت على شكل الأرقام التي دوَّنها الملاّ. بيوت واضحة متلاصقة، وأخرى لم يبق منها إلا جدران خربة من أثر المِمْحاة. تدوين بقلم الرصاص يحفر أخاديد عميقة كبقايا جداول جافة على الصفحات، وأيام الملاّ، وحدها، هي التي تتعثر بالأخاديد. إنه يصغي إليها؛ يصغي إلى رقم هنا فيسمع نباح كلب، وإلى رقم هناك فيسمع هدير آلات الحصاد. وبين رقمٍ هنا ورقم هناك يرتفع شجار القرويين، الذين يتسابقون إلى إطلاق أغنامهم على أسواق القمح بعد حَصْد السنابل. وحين يصل الملاّ بعينيه المتفحصتين إلى الخطوط الأفقية تحت الأرقام، حيث تلي تلك الخطوط محصّلات الجمع أو الطَّرح، يقف ولا يجاوزها. الحاصل الحسابيِّ امتحانٌ عادةً.

الرجل يحسب ليمتحن مصيره. الأرقام هي امتحان الحاضر والمستقبل معاً: الخسارة، أو الربح، في الحاضر، يُلزِمانكَ برسم مؤشر آخر للخطوات: زيادة ما زاد، أو تعويض ما نقص. لعبة على الورق، بغير تخطيط، تصبح تخطيطاً، فيما بعد، لأعمارٍ، وبيوتٍ، واقتناء حيوانات، وإطلاق نار أيضاً، بغير خوف، على القائمقام إذا اقتضى الأمر.

«لو زادت هنا» يتمتم الملا الناظر إلى أرقامه بعينيه اللتين زيَّنهما كحل كثيف. ورجال الشمال، يجعلون على عيونهم الكحل إذا هطل الثلج، اتقاء من البياض المتلألئ الذي يعشِي العيون. «لو زادت هنا» يكرر، «آه، لو نقصت هنا، جعلت المساجد تركض كالأوز الغضبان من هذه الجهة إلى تلك الجهة من مدينة قامشلو، ولنقلت المخفر إلى قرب بيتي، لتسألني الشرطة مَنْ تعتقلُ، ومن تطلق سراحه»، ثم يرفع راحة يده ليمسح خيطاً أسود ساخناً من مزيج الدمع والكحل، انحدر من عينه اليسرى، وغاب في ثنايا لحيته.

شبح «بيكاس» يتخبط في الشبكة الرمادية للَّيل والثلج، محاولاً أن يتقرّى بيديه ذلك الأفق الدائري الذي لا يبعد أكثر من خطوتين. يجثو غير قادر على التقدم أكثر، وقد أغمض عينيه، مبتسماً، على صورة «سينم» البلهاء. «لماذا اختارها أبي؟ كنت أريد مَنْ أتحدّث إليه»، وكأنما استدرك سؤاله العقيم، فبرّر الأمر لنفسه: «ومن يمكن أن أتحدَّث إليه غير هذه الضاحكة؟ كل شيء كان كما ينبغي، إلاَّ أن أولد في يوم كهذا»، ثم رفع عباءته حتى قمة رأسه العاري إلاَّ من شعر يكاد يصل إلى كتفيه، في خصلٍ متنافرة مبتلة.

طوى «بيكاس» جذعه حتى لامس صدرُهُ فخذيه، مستسلماً في جلوسه إلى اهتزاز زُحافةٍ تترجرج كخدر ساحر، لم تكن إلاَّ زحافة نفسه، التي تقودها نساء يشبهن «سينم» على الثلج. لكنه رفع رأسه بغتة، على أثر جلبة تناهت إليه، ناظراً بعين واحدة من شق العباءة التي تغطى بها، فرأى جمعاً من الرجال يحيط به، ومن خلفهم بغال زرقاء مضيئة، كأنما انحدر ضوءٌ من مكان ما، خفيٌّ مؤنسٍ، فاستقر

على الحيوانات وحدها. أما الرجال فكانوا معتمين، تبين لحاهم الطويلة شعثاء بنفسجية من أثر الضوء المتلألئ خلف ظهورهم. «وصلتُ إذاً» تمتم إلى نفسه، ثم شدّ لجاماً خفياً بيده كمن يقود عربة، فتباعدت الحلقة المكوّنة من الرجال والبغال، مفسحةً ممّراً لنساء «بيكاس» اللواتي يتقدَّمّنَ بزُحافته.

يرتعش الضوء من نافذة الملا «بيناف»، ابن كُوچري الملقبة بأم العشرين ولداً، ثم ينطفئ، فتُعتم نُدَفُ الثلج التي كانت تُرى مضاءة خارج النافذة. أما غرفة «بيكاس» وعروسه، فمازالت على حالها من الضوء الرجراج، الذي يضيء النُّدَفَ الضاحكة على بعد شبر منها. وفي الداخل لم تزل «سينم» البلهاء، بكامل ثيابها، تتمدَّد مريحة قدميها أمام المدفأة.

لم تسأل البلهاء لماذا لم يعد زوجها. كانت في شغل آخر من أشغال ذاكرتها التي لا تلمس إلاَّ الأشباح الصغيرة لأيامها المتساوية الصغيرة، وقد حاولت بكثير من اللاترابط، أن تعقد المواقف المتشابهة التي مرَّت بجسدها، نزولاً من ذلك الألم الذي سبَّبه «بيكاس» باقتحامه الساخن لسرِّها المتوارث، من أول جدَّة إلى آخر أمّ في هذا التاريخ الخجول، حتى محاولة «حيندر» صاحب الثور المزواج.

كانت في الثانية عشرة حين دلف «حيندر» بثورة إلى ساحة دارهم، التي لم تكن مسوَّرة آنذاك، بل ترسم حدودها أسواق طويلة لنباتات الذرة. كثيرون يستأجرون ثور «حيندر» ليلقّح بقراتهم، مقابل مائة قرش مؤلّفة من قطعة معدنية واحدة، ثقيلة، هي مزيج من

الفضة بثلاثة أرباع مقابل رُبع من معدن رخيص. وقد اختلط الأمر، مراراً، على الحكومة التي تصكّ النقود، فصكّت المائة قرش فضة خالصة، ولم يتم تدارك الأمر إلا بعد وقت طويل، حين كادت هذه العملة أن تختفي من البلاد بتهريبها، في صهاريج، عبر الحدود، لأن القطعة الواحدة كانت تساوي أكثر من قيمتها المقدرة بعد ارتفاع سعر الفضة. وإذ ذاك، وبعد تأخُّر أتى على ما أتى عليه، استبدلت الحكومة تلك القطعة النقدية بما يشابهها حجماً من النيكل الرخيص، لكن سعر البيضة الواحدة ارتفع، في البلاد إلى ما يعادل الضعفين.

دخل «حيندر» بثوره الذي يتولّى قيادَهُ بحبل، صارخاً: «يا أهل البيت، أين بقرتكم؟»، فردّت عليه أم «سينم»، من الداخل، وقد غطى العجين ساعديها حتى المرفقين: «حيندر، أنا مشغولة، ستدلك سينم»، وصاحت بالفتاة التي تصب الماء، من إبريق، على الطحين: «خذيه إلى الحظيرة»، فهرولت إلى الخارج والهَأْهَأَةُ لا تفارقها.

كان واضحاً أنَّ ما من أحد في البيت لتكلِّفه الأم بالمهمة غير البلهاء، التي دلّت «حيندر» بإشارات تهريجية من يدها إلى حيث تنتظر البقرة الصاخبة، إذ شَغَلَتِ الدار، وأهلها، بخوارها المتواصل، قبل أن يستقرّوا على استئجار ثور «حيندر» للمهمة الكفيلة بإعادة التوازن إلى هذه الحلوب الوديعة عادة. وحين دلف الرجل بثوره إلى الحظيرة ذات السقف الواطئ، تبعته الفتاة. وقد قامت، غريزياً، بحصر ثلاث غنمات في الزاوية لئلاّ يجفلن من دخول الثور الفجائيّ إلى مملكتهنّ الآمنة، فاردة ذراعيها على امتداد جذعها المنحني.

دار «حيندر» حول البقرة الهادئة بثوره، يحثّه حثاً خفيفاً على الأمر الذي سينال عليه مائة قرش. بدت عينا البقرة صافيتين تماماً، بل ثمَّةَ ولَهٌ ما في زاويتيهما المبتسمتين. بطن الثور يشهد استطالةً ما، بيضاء رفيعة، تزداد صلابة شيئاً فشيئاً، والفتاة تنظر إلى تلك الاستطالة بمرح صبيانيّ. رفع الثور قائمتيه الأماميتين فاستقرّتا على ظهر البقرة. «حيندر» مسترسل في التحديق بدوره، لكن بفكٍّ بدا مرتخياً. نظر إلى الفتاة ثم انزلق بيده اليسرى من بطنه إلى ما دونها، فاسترعت الحركة نظرها. ثمة انتفاخ تحت جلباب «حيندر» الذي انعقد على وسطه حزام جلدي عريض. ابتسم بخبث فهَأْهَأَتْ. همس: «تعالي»، فاقتربت. حمل يدها، في حركة عجولة بفعل استثارته، واستقرّ بها تحت جلبابه الذي رفع طرفه. ضغط بيدها على ملتقى فخذيه فضغطت دون تذمُّر.

طغت حركة الثور البهيمية على لهاث «حيندر»، وحين وثب الثور بعيداً عن البقرة، سلَّت الفتاة يدها، بغتة، وقد داهمها انفجار ساخن، تصحبه تشنَّجات وسّعت قبضتها المضمومة خفقة بعد خفقة. آنئذ سحب «حيندر» حطّته الملقاة على كتفه. مسح يد الفتاة في سرعة، وأعاد الحطّة إلى كتفه ثانية، ثم خرج بثوره على عجل.

قد تعتمل إشارات كثيرة من هذا النوع في الذاكرة الرخوة لـ «سينم»، لكنها لا تمسّ إلا أكثرها جسارةً. فهي لن تقف أمام مشهد التصاق «شيخو»، ابن «سِيْدَري»، بها من الخلف دائماً، كلّما سنحت له فرصة للإمساك بها وهي ترفع الدّلو من البئر؛ ولا أمام مشهد «بَكْرُو رَشْ» وهو يرفع جلبابه ليريها شيئاً نافراً يشبه ما تراه في

الكلاب الحائمة، بعضها حول بعض، قرب زريبة «حمزة جَكَر». كان ذلك لهواً، أو ما يشبه اللهو، مروراً بقريناتها، اللواتي كُنَّ يتباهين بنمو الشعر على عاناتهن. صائحات: «فَلْنَرَ ما تملك سينم»، وهن يعرّين أسفلها، في هجوم لا تملك البلهاء ردّه، وصولاً إلى الفقيه «سُمُوّ»، الذي كان معلّم الصِّبْيَةِ في تعليم القراءة. وهم يدعون أرباب الكتاتيب، عادةً، بلقب «فقيه»: «جزء عمَّ.. يسن» إضافة إلى السُّوَر القصار، التي يلوكها لسانه الآلي في لُكنةٍ لا زمان لها، والبلهاء لا تجيد نطق حرفين مما يقول.

إنها لا تنسى «سُمُوّ» ذا البؤبؤين الأبيضين. يبدو كأعمى، لكنه يتقن، عن قُرب، قراءة أعمق أعماق صبيٍّ أو صبيَّة. لقد ارتأى أبواها أن يرسلاها إليه مع مصحف ذي غلاف ذهبي، علّها تتمكن من الإمساك بخيط واحد من خيوط ذاكرتها المتطايرة كرذاذ ماءٍ منحدرٍ من مزراب، أو لعلَّ تسكنها روح أخرى، تليق بفتاة مُقْدِمةٍ على سنتها الرابعة عشرة، لتتدبَّر ـ كما تتدبَّر قريناتها. مُهْلَة نُضج حكيمة تعرف الأنثى فيها كيف تبوح بما يمكن البوح به، وتخفي ما ينبغي إخفاؤُه؛ كيف تمزج الدلال بالحذاقة، والذكاء بالخفر؛ كيف تتحاشى النظر إلى عيني ذكر، وتتفرسه إذا سها؛ وأخيراً، أن تبدو رقيبَ حِكمةٍ على البيت الذي سيغدو، ذات يوم، بيتها وهي في كَنَفِ بعلٍ. لكن هيهات مع «سينم». لقد أخَّرها «سُمُوّ» مراراً من العودة إلى البيت، ليقاصص قُصُورها بعصاه الخيزران. «سمُوّ» يقاصص كلَّ متأخِّر في الاستذكار، أو الفهم، بعد انتهاء ساعات الدَّرس. يختار من الصِّبية أقواهم ليمسك بقدميّ الضحية، حتى يتمكن من جلدهما، والآباء يفرحون لصرامته.

في الأيام الأخيرة من الشهرين المُرتَجلَين للتعليم، تعود «سينم» متأخرة على نحو بات يتوقّعه أبواها. وهي ترجع حَجِلاً كلَّ مرَّة. لا تكاد قدمها تلمس الأرض حتى ترتفع في ألمٍ من أثر الضرب بالخيزرانة. غير أنها باتت تعود، قبل ثمانية أيام، تحديداً، من إقفال الوكر العاري، المخصص لتعليم لغةٍ مُحْكمة بالتلقين السمّاعي، ماشية في خِفَّة لا أثر فيها لألمٍ، برغم تأخُّرها.

لم يكن أحد أن يفهم الأمر عداها، فالقصاص يُرفُع عنها بثمن يحدده الفقيه «سمّو». وقد صار «سمّو» لا يحتفظ بصبيّ قوي للإمساك برجلي ضحيته ليجلدهما على مهل. يطلب منها وحدها أن تبقى، عابساً على صورة يعتقد الصِّبْيَة معها أن تلك الغرفة العارية ستتشظَّى بعد قليل: جداران إلى جهنم، وجداران إلى الجنّة، أما السقف فسيظل على حاله، واقفاً في الهواء، محمولاً على ألسنة السحالي التي تتوالد بين الدعامات الخشبية كحروف كُتُبهم. وكم من صغار تلك السحالي كان يتساقط على الصحفات المفتوحة، أو على حجُورهم، وهم جالسون، فيدّب فيهم عويلٌ أبكم تلجمه خيزرانة الفقيه، المرتفعة كصارية ستنقذ العالم.

تتأخَّر «سينم» غير مستاءة الآن، ما دامت تُرضي الفقيه بثمن لا تحسّ له وزناً؛ فلو طلبه، منذ البداية، لأجابته حتى توفّر على ذهنها البليد عقاباً يشعل قدميها بألمٍ عبقريّ. يقول الفقيه: «ارفعي ساقيك عالياً» فترفعهما. يضع الخيزرانة جانباً، ويشدّها إلى وسطه: «هذا عقابك الجديد»، ثم يلمس جسدها، من ملتقاه الساخن بضرب ساخن لطيف من شيء لا تراه الفتاة، بل تحسه من

انحناءة الفقيه وتقوُّسه، وهو يخور خوار عجل أمسكه شخص ما من فكّيه.

مرت أربعة أيام دون أن يأخذ «سموُّ» من جسدها إلاَّ ظاهره الأنثوي، حتى لفتت زوج الملاّ «بيناف» أمَّها، قبل مولد «بيكاس» بزمن طويل: «ألا ترين ثديي ابنتك؟» «وما بهما؟» ردت أم «سينم». «يكبران على نحو..»، فذُهلت المرأة من ملاحظة زوج أخي زوجها: «ياللّه. لمِ لَمْ أنتبه؟ «سينم»، صرختْ بها، فتقدمت الفتاة والهَأْهَأَةَ لا تفارقها. «من يلعب بهما؟»، وأشارت إلى ثدييها.

النساء يتشمَّمْن نمو الأثداء لدى المراهقات، إذا زاد عن حدّه. يتشمَّمْن الأنامل الصلبة للذَّكَر في أثر غير مرئي. الأثداء تكبر من هبوب رائحة الذكر عليها. رياح الذَّكَر. رياح الرياح. والبلهاء تنظر إلى صدرها في ذهول مبتسم، فتلتقط ذهولها صفعة تلقي بها أبعد من الذهول: «مَنْ..؟؟» وترد البلهاء: «سموُّ»، مُلقيةً بالاسم وهي في دوارٍ وطنين. يد «سموّ» الفقيه كانت تعبث بصدرها. إنها ترى الصورة الواضحة لأصابع معقوفة تنتهي بأظافر طويلة، مفلطحة، تشبه أصابع الأقدام، وهي لا تملك إلاَّ أن تشير إلى ما تراه: «يد سموُّ». وقد ذبح أخوها «بَهْرَم» ذلك الفقيه من الوريد إلى الوريد، دون أن تأبه الناس، أو الحكومة، بما جرى.

أربعة أيام مضت على الجثة في ذالك الوكر الطيني، غير المطلي من الداخل بالجير. الصِّبْيَة يأتون صباحاً فيلقون نظرة على الباب المغلق، ويعودون أدراجهم. فرح غامر يعلو وجوههم، وقد أنقذهم صمت الباب من ساعات القراءة المزروعة، كحقل، بالخيزرانات.

أربعة أيام، والصبية يتواطأون ضد الجثة في صمت. فالطوال منهم يتمكّنون من رؤية جسد نفخَهُ القيظُ كما ينفخ الكبار بالمِنْفاخ دواليب درّاجاتهم، عبر كوَّة خلفية ذات شبك معدني صدئ لردّ الذباب. إنهم يلقون حقائبهم جانباً، ويتبوَّلون على الحيطان، ثم يرجعون إلى بيوتهم، فلا يسألهم الكبار المشغولون ماذا تعلّموا في نهارهم. مامن أحد يعرف كيف تم العثور على الفقيه الضائع في صحراء غرفته. كانت الجثة ملآى بالسحالي، التي تتقافز هاربة من بين ضلوعه المهترئة. وقد رمى الطيبون عليه بعض أكياس القُنَّب ليستروه، قبل دفنه في مقبرة «الهلالية». و«الهلالية» ضاحية، يفصلها عن مدينة «قامشلو» دغل من أشجار الصفصاف والكينا، ومجرى طينيّ يسمى نهراً، تترعرع فيه السلطعونات، والحنكليسات، التي تشق أفخاذ الصِّبْية السابحين فيه بظهورها المنشارية.

«سينم» مستلقية أمام المدفأة، وقد اتّكأت بمرفقها على الوسادة التي اتّكأ عليها «بيكاس» قبل أن يغادر الغرفة. ذاكرتها تتهشّم وتومض كشرر باهت، مثل خشبة رقيقة تحترق فتتفتَّت. الرماد هو الصورة المُحْكَمة التي تلتقطها عدسة ما، يقف خلفها شبح يغطي رأسه بكيس أسود؛ رماد البلاهة الحافل بالقهقهة. «سينم.. انظري» يرتفع صوتها هي في صمت الغرفة، مبلَّلاً بلعاب متطاير. ترفع نفسها عن الوسادة لتستوي جالسة أمام كوَّة المدفأة ذات الستار الزجاجي السميك: لهب يلعق اللهب بألسنة زرقاء، وبرتقالية، كجروٍ جهنَّميّ ينظّف فروه من أثر شجار مع جروٍ آخر. غضب يتدلّى كلحية أبيها، وسروال فضفاض، كسروال أُمّها الطويل حتى عقبيها،

يرفرف في مدى انشغالاتها الضيقة. «سينم.. انظري» تقول لنفسها، وتحتار: إلى مَنْ تنظر؟ إلى وجه «بيكاس» المنتفخ بجزء ظاهر منه، وجزء في الظل الذي يرسمه القنديل، وهو منحن عليها بلهاثه الرّطب، أم إلى الفقيه الجالس على لسان اللهب، متّكئاً على باب فضيّ، وقد فتح فمه في ذعر دون صراخ؟. «طيري.. طيري» تهمس، والهَأْهَأَةُ ملء فمها المفتوح. ماذا ترى البلهاء؟ وأيّ طير سيطير؟. لهب يعض اللهب بأسنان تشبه القش في حظيرة أبيها، وثيران تقرع الجدران الصفيحية للمدفأة بقرون لها رائحة لزجة كرائحة «حيندر».

تزحف «سينم» على ظهرها، في كسل بالغ، حتى تصل إلى الفراش الممدّد على الأرض، لصق الجدار، مخفورة بنعاس مغلق لا تنتظر أن يقرعه أحد.

المدفأة تظلُّ مشتعلة، مثلها مثل القنديل المعلَّق إلى الحائط. سينطفئان وحدهما، حين ينفد الوقود. فليس من عادة «سينم» أن تتدبَّر أموراً كهذه منذ مجيئها إلى هذا العالم الضيق، المطرَّز بخيوط حريرية كحزامها الذي لم يمنع «بيكاس» من رفع الثوب حتى ثدييها.

«سينم» تنحدر إلى هاوية ناعمة، وقد ردّت على جسمها الغطاء. الممالك الأكثر بساطة وصغراً، في أعماقها، تتفتّح كالأزهار الهندسية في بساط الغرفة؛ ممالك لا تتسع لرأس صبيّ يرمقها من الباب المفتوح للمرحاض، أو لدجاجة هائجة تردّ عن فراخها الدِّيَكة.

تنقلب «سينم» على جنبها الأيسر، واضعة يديها بين فخذيها الدافئتين، وقد علت أنفاسها بانتظام كأنفاس كلّ نائم. جسدها

وحده، يبقى يقظان، متتّبعاً ممالك أعماقها الهندسية. جسدها.. نعم، ذلك المباح لاغتصابات الأيدي اللاهية، التي ترى في بلاهتها مبّرراً لجسارة. ومن يأبه للجسارة على أي حال؟ حَسْبُها أن ترى في ذلك ما لا يراه أحد. حَسْبُها أن ترى الدعابة في كل شيء، أعويلاً كان أم ضحكاً. الحركة، مفصولة عن تعبيرها، هي ما يعنيها. زمن صامت وأُناس صامتون: شفاهٌ، وأيدٍ، وأقدام، وانحناءات. عيون جاحظة أو مغلقة. تمايلات ترتسم على أشكالٍ تقتطف من فمها الهَأْهَأَة. دغدغة أبدية على خاصرتها، والمشهد واحد.

ظلام في الخارج. الأرض والثلج نائمان، جنباً إلى جنب، فقد رُفعَت الشبكةُ الفضّية بعدما تصيَّدت ما تصيَّدَتْهُ. لا نُدَفَ كسولة أو عَجُولَة. صمت سكران سيلقي بالفجر كزجاجة فارغة بعد ساعات، لكن ثمة شعاعاً يتلصَّص من شُبّاك «سينم» على الساحة؛ شعاعاً غريقاً، يضيء ممرّاً ضيّقاً في الثلج، ويستقرّ على ورقات شجيرات الزيتون، التي لن تكبر قطّ من وحدتها.

«سينم» تبتسم. تتحرك شفتاها في همس: «كَأْ.. كَأْ». تتحول الابتسامة إلى قهقهة صامتة: «بيكاس ديك وليس دجاجة.. عليه أن يقول كوكووو..».

الفصل الثاني

ذلك «الحيوان» يزحف في الظلام، بل الصواب إنه يسبح في الظلام، مهتزّاً يمنة ويسرة في الزلال الدبق.

آلاف من الحيوانات البيضاء، التي تشبهه تماماً برؤوسها المستديرة، وأذيالها الناعمة كالخيوط، تمضي قدماً بالحركة ذاتها، مهتزَّة يمنة ويسيرة، في سباق غامض عبر الزلال الدبق الذي يغطي أرض النفق المظلمة. سيصل واحد منها، ذلك ما يعرفه «الحيوان» المندفع بغريزة الخروج إلى النور، وإلى المصير المنتظر بساعديه المفتوحين كساعديّ أُمٍّ، ليكمل اللعبة التي يرتقبها الكائنُ أعزلَ من العزلة ذاتها.

ذيله الرقيق يرتطم، في انزلاقه، بجثث كثيرة لم تزل ساخنة بعد. «حمير» يهمس، محتقناً من سرعته: «يسمّونني الحيوان وأنا ذاكرتهم كلّها»، ويندفع بحمّى الواثق من وصوله.

ليس في وسعه أن يراوغ ليتقدم. قد يدفع برأسه، أو بذيله، جاراً على يمينه أو على يساره، لكن أمامه حشداً أبعد من أن يجاوزه حتى بجناحين، لذلك يعوِّل على شيء آخر؛ على مقدرته في البقاء حياً بإلهام ذاتي، وهو يحسّ سقوط الكثيرين صرعى، كلّ ثانية من السباق.

«إلهام ذاتيّ» يكرّر الجملة، «المسألة أن أشغل نفسي بما سيعطيني شكلاً، أكثر من هذه الحاشية الكبيرة العمياء، المنجذبة إلى رائحة ضجرها»، واسترسل، مندفعاً: «كمالي ينتظرني».

دفقةٌ من نبع مستور كسرت قشرة الظلام الرقيقة، دافعة بذلك «الحيوان» إلى حمّى سباقه. نبعٌ منجميٌّ فاض بما استجمع من

عروق المعدن، وثلوج السلالات المنحدرة جداول نقيَّةً من مكان ما، أعلى من جبل، وأكبر حصاراً من الريح.

«الحيوان» يتقدم، متلمساً بذاكرته الممرَّ، إذ لا عينين في رأسه المستدير. وفي اللحظة ذاتها يتلمَّس ابن «عَقْدي ساري » كراسي المقهى، ويبعدها عن طريقه بيده، دون نظر إليها، متَّخذاً ممرَّه بين الطاولات الواطئة التي اجتمع حولها عتالون مسترخون في كسل، وبعض تجار القمح ذوي الأصوات الخشنة في المساومات. ليس في محيّاه أثر لغضب، لكن عينيه لا تفارقان وجهَ «باقـي جُواني» ذي الشاربين الأحمرين بفعل الحنّاء. و«باقـي جواني» مسترخ، حتى تكاد قدماه تلامسان حافة الرصيف.

جانبياً يرى الشاب وجه الرجل، وحين يجاوره لا يرى إلاَّ قمة رأسه الكبير بين كتفيه، بفعل الحطّة الماردينية التي يعتمرها على شكل عمامة. يشهر مسدسه ويطلق النار من أعلى إلى أسفل، فينهض الرجل مصعوقاً، وقد تسمّر في وقفته. لا يبدو ألم على وجهه، بل دَهَشُ المفاجأة، برغم الدم الذي نفر من كتفه، قرب العنق. يشد ابن «عَقْدي» على الزناد مرة ثانية، بيد ترتجف ارتجافاً قوياً، فتخترق الرصاصة خاصرة «باقـي جواني». يهوي الرجل إلى الوراء، جارفاً نرجيلته التي كانت تُكَرْكر تحت شاربيه الكثين قبل لحظات. رجال المقهى ينهضون مصعوقين بدورهم. طاولات تنقلب، وكؤوس شاي تندلق وتتبعثر. لن يقترب أحد من الشاب الذي تبدّلت سحنته، فاكتست ذهولاً عصبياً ينبئ بالحماقة.

الرجل ذو الشاربين يتكئ في وهنٍ على أحد مرفقيه، مصدراً أنيناً كأنين هرَّة. جسده متمدّد، وثمة كرسيٍ مقلوبٍ استقرّ على فخذيه. الشاب يقترب فيحاذيه من جديد. فوهة المسدس تستقر على جبين الرجل، الذي رفع وجهه إلى وجه غريمه في توسُّل مرير.

يبدو واضحاً أن الشاب يجد صعوبة كبيرة في الضغط على الزناد أكثر. جسمه يرتجف بحمّى الذهول الذي يعتري مَنْ لم يقتل شخصاً من قبل، أو من تلاشت حماسته إلى القتل، لكنه اندفع مرغماً. رصاصة ستنهي المشهد، وهي لا تنطلق. الذهول الذي تبثّه عينا رجل لا يريد أن يموت هكذا، هو الباعث على صمت الطلقة، لا شفقةُ الشاب. والشاب بات يدرك ذلك، في وقفته التي تشهد، من كل الجهات، أشباحاً واجمة في الشارع. إذن، كان لابد من دفعٍ آخر لتستكمل الجسارة مداها. «ها ااااي»، تلك كانت صرخة الشاب التي استجمعت صُور حقده دفعة واحدة، فانطلقت الرصاصة.

تلوّى رأس «باقي جواني» كأنما يشيح بعينيه عن الومض الذي تفجّر من فوهة المسدس. تراخى الجسد وانقلب على بطنه في هدوء مَنْ يخفي وجهه في الوسادة. وحين لم يعد الشاب في مواجهة ذلك التوسُّل المرير في عيني ضحيته، أفرغ الرصاصات الثلاث الباقية في ظهر الرجل. ثم رفع يده عالياً، وأهوى بها قاذفاً بالمسدس إلى الرأس الملتصق بالرصيف، فأصابه. بصق ومضى، أكثر ثقة مما كان عليه.

«المسألة أن أُشغل نفسي» يقول «الحيوان» المندفع في الزلال الدبق، ويكاد يصرخ: «تراجعي أيتها الحيوانات الشبيهة بي، لأصل سريعاً» فيدرك أن لا فم له.

ذاكرته تقود جسمه الرقيق عبر الظلام، وتقود الوعود الكثيرة بكمالٍ. ستتفتَّحُ من حوله، كالبراعم، حروبٌ وخيانات، ورعب، ومرح، وأشياء أخرى لا تُسمّى إلاَّ في حينها. «حيوان أنا» يردّد في غضب. «لو لم أكن حيواناً لكنتُ في أيّ مكان إلاَّ هنا. يختارونني لهذا السباق، من آلاف من أمثالي، ولا يد لي في ذلك، والأدهى تصميمي على الربح. لماذا الرغبة في الربح، والأمر مبهم كالكمال المبهم الذي أعدُّ نفسي به؟ من قال إن كمالاً ما ينتظرني أبعد من هذه الجثث المتراكمة في النفق؟». يرتطم به جاره الأعمى مثله، فيستنفر قواه المكتومة: «ابتعد، إنك تجعل الأمر يسيراً على من اختارني». ويدفع بذيله ذلك الجار، ماضياً قدماً: «لو ارتأت هذه البهائم، من حولي، أن تخفف على نفسها عناء المزاحمة لخففّت بدوري».

«الحيوان» يزحف فوق جثث كثيرة كادت أن تسدّ الممر أمامه. كل شيء ظلام، إلاَّ ذاكرته، التي تلقي به بين حشد هائل من كائنات تواطأت على جعله حيواناً أعمى، ومن ثم ألقت به إلى سباق أعمى.

أيُّهم كان الكائن الأول؟ سؤال تتزاوج فيه ومضات شاحبة للفجر الذي يتسلل بين ورق كثيف؛ تتزاوج وتنفصل، ثم تتكوّم على جسد ملتفع بجلد خنزير برّي، كان مختبئاً بين الورق، لكنه يزداد وضوحاً الآن. «إنه هو» يقول «الحيوان» السابح في الزلال، ثم يستدرك: «لا. أريد الهيئة الأولى، الأبعد من هذه الهيئة». بحثُ «الحيوان» عن بدايته يلهيه قليلاً، فيكاد يتوقف في تأمُّله المظلم، وما يدفع به إلى المضي هو مرور حيوانات كثيرة من فوق جسده المتباطئ. «يا للقذارة، إنها تسبقني حين أصير حكيماً. لا موضع، في هذا السباق، إلاَّ للغضب»، ثم يهزّ ذيله يمنةً ويُسرة فيجاوز من سبقوه.

لم تمنعه حمّى الرحلة هذه من حثّ ذاكرته المتخبّطة في شبكة باردة: «هذا المتربّص بين الورق الكثيف ليس الأول»، يقولها لنفسه. «إنه مشوّش الهيئة على نحو يدعو للرثاء». إذن، ثمة تسلسل آخر لهذا الجلال الجسديّ، الذي يتحقق بمصادفات متينة. «تفتّحي.. تفتّحي» يخاطب «الحيوان» حمّى سباقه، وحمّى الذعر من أن لا يجد أَزَلَهُ. لكن هيهات، فالذي يتراكم بإلحاح لا يتعدّى فسحة من العشب العالي، وحيوانين ملتمعين تتلامس قرونهما في ارتطام قاسٍ وحنون. أحدهما مُجفل إجفالةً خجولة، والآخر ممعن في الدوران من حوله، كأنما يروِّض الغريزة بحصار من رائحته الذّكوريّة.

حيوانان، بثماني قوائم وأربعة قرون، واختلاءٍ واحد بين العشب العالي، حيث كمن المتربّص الملتفع بجلد خنزير بري، في ذلك الفجر الأبعد من الذاكرة. «آه» يتنهّد «الحيوان» السابح في الزلال الدبق. سلسلة من التَّربُّصات. سلسلة هوجاء من مكائد ناعمة وخشنة.

الحيوانان، اللذان يستبدُّ بهما أُنسٌ جسديٌّ، يختصران المداورة. أحدهما يستسلم للآخر. وفي اللحظة ذاتها، التي ترفع فيها الغريزة مجدها كأكمل ما يكونُ لشعاعات الصباح الذهبية، تسقط القائمتان الخلفيتان لأحد الحيوانين في حفرة مموّهة. يتخبّط فلا يستطيع سحب نصفه المنزلق. يخرج المختبئ الملتفع بجلد خنزير من مكمنه وينقض على الطريدة. الحيوان الآخر يطير من مكانه بقفزة واحدة. لا جناحين له، لكنه يطير، وفي ذعره ذاك لا ينسى أن يلقي نظرة غامضة على شريكه المذعور، بل على عيني شريكه المستنجدتين بكل شيء.

كان الرجل، الذي خرج من مكمنه العشبيّ، ينقض كسِلَّوْر على عنق الحيوان الخاسر، ممسكاً به بأسنانه ويديه. قطعٌ من اللحم والجلد تنفصل عن العنق في كل نهشة من تلك الأسنان الطويلة، والحيوان يستسلم، كما استسلم، من قبل، لعضّات شريكه الأكثر عذوبة من نعناع الماء. «يا للجحيم» يهمس المتسابق الأبكم إلى نفسه في ظلام النفق، «ليست هذه هي الصورة التي أريدها، عليّ أن أعود إلى الوراء أكثر بذاكرتي».

اجتاز ابن «عَقْدي ساري»، الشاب الذي أطلق النار على «باقي جواني»، الشارع دون أن يلحق به أحد. أمامه أكثر من ساعتين ليختفي قبل أن تصل دورية الشرطة الكسولة في سيارة «بيك آب» تقشّر الطلاء الرصاصي عن حوافها. والدورية ستصل، بالطبع، بناء على تبليغ شفهي من شاهد. وعلى الشاهد، بالطبع أيضاً، أن يقطع مائة شارع قبل الوصول إلى المخفر الوحيد، المقام على تلّة تعلو السهل المنبسط الذي يربط شمال المدينة بحدود تركيا. ومبنى المخفر، الملحق بفناء مسوّر تحدُّه غُرَف ضيقة تسمى «السجن المدني»، هيكل قديم تركه الفرنسيون خلفهم بعدما مضوا. وعلى مدخل البوابة الضيقة ثمة طاولة يجلس خلفها شرطي في حال نعاس دائمة، يسأل زائري السجن بجملته المعهودة: «أتحمل سكيناً؟» فإن أجبته بالنفي لأمْكَنَك الدخول وأنت تحمل ساطوراً، وإن كنت رقيقاً في الخُلق، وأجبته بالإيجاب لسألك أن تترك السكين على الطاولة، ولك أن تأخذه، حال عودتك من زيارة سجين ما، مهما كان حجم السكين وشكله.

وصل الشاهد اللاهث، الذي تبرّع بالتبليغ، على كل حال، إلى مبنى المخفر. تمالك نفسه وقد انحسرت حطته عن نصف رأسه، وصرخ بالشرطي الجالس وراء الطاولة: «قُتِلَ باقي جواني»، فرفع الجالس جفنيه الثقيلين، وأشار بيده إلى غرفة على مسافة متر منه: «راجع هناك»، وأسبل جفنيه من جديد.

كان باب الغرفة، التي أشار إليها الشرطي مفتوحاً، فدخل الشاهد دون استئذان. «قُتِلَ باقي جواني»، قالها من غير أن يتوجّه بكلامه إلى أحد بالتحديد. ثم ركّز أكثر، فوجّه كلامه إلى الرقيب الذي يحتسي كوب شاي: «ابن عَقْدي قتل باقي جواني»، «أووه» ردّ الرقيب. نهض بتثاقل وهو يعدِّل من وضع قبعته ذات الشريط الذهبي المتآكل على مدى استدارتها. نفخ صدره قليلاً، وصرخ صرخة أشبه بالمزاح: «عبود .. عبدو، بلُّوط»، وقبل أن يسمع جواباً همس بالتركيّة: «بيزڤنك. لصوص».

مضت ثوانٍ دخل بعدها شرطيان، بينما ظلّ ثالث في الباب. قال الرقيب: «احضروا السيارة، وزّرروا بناطيلكم».

نهبت السيارة الطرقات الترابية، مثيرة عاصفة من الغبار الذي اختلط بأجنحة الدجاج الهارب، ثم توقفت بحشرجة مريرة أمام سور بيت «عَقْدي ساري».

في دقيقة واحدة اجتمع حول السيارة، التي ظل السائق في داخلها، مائة صبي فضولي. وفي دقيقة تالية امتدت وجوه وأجساد متزاحمة لكبار وصغار، من البوابات الطينية الضيقة، على امتداد الزقاق. كلاب شاردة هرَّت قليلاً فزجرها القريبون منها بقشور البطيخ.

دخل الرقيب برفقة شرطيين إلى ساحة الدار. كان «عَقدي ساري» وأولاده الستة الفتيان، وزوجه، وابنته، في استقبال الزائرين، بوجوه يبدو عليها احتقار واضح، برغم أنها تكلّفت بعض الترحيب غير الودود. «تفضّل حضرة الرقيب.. تفضل حضرة الـ...» بلكْنة تختلط فيها الحروف الكردية بالعربية. «شكراً» رد الرقيب، وأضاف: «ابنكم قتل شخصاً. احمِّ. أهو هنا؟». وبدا بارداً إلى درجة لا يتوسّم فيها جواباً من أحد. فردّ الأب: «قتله؟ قتل باقي جواني، إذاً». رفع الرقيب المتكاسل حاجبيه، كمن وجد فرصة ليشحذ ذكاءه: «انتم تعرفون الضحية دون أن أنطق باسمها»، وزمّ شفتيه، مُخرجاً من جيب سترته علبة دخان من نوع «خصوصي للجيش». سحب لفافة فوجد نصفها فارغاً من التبغ. دعكها في يده ورماها متأفّفاً. أخرج أخرى لم تكن أحسن من سابقتها. قطع نصفها الفارغ، وأشعل النصف الآخر بعود ثقاب ارتفع لهبه حتى كاد يحرق جفنيه. وعلب تبغ «خصوصي للجيش»، كما يدل اسمها، كانت مخصّصة للجنود والشرطة بسعر متهاود، لا يزيد عن خمسة عشر قرشاً. تبغ غريب أسود، يجف صيفاً حتى يغدو كروث البقر، فينفرط من الأطراف، ويصير رطباً حادّاً في الأيام الباردة، فيشعله مدخنوه بعود كبريت بعد كل نَفَسٍ.

سحب الرقيب نَفَساً جافاً من لفافته، وتمتم: «هِمّ.. هِمّ.. آه.. أأنت مشترك في تحريض ابنك؟»، وجّه سؤاله إلى الأب. فأطرق الرجل الغارق في قفطانه النظيف، وحطته البيضاء الناصعة، إلى الأرض، مجيباً: «الكلب كلب يا حضرة الرقيب».

استدار الرقيب واتّجه إلى خارج الساحة، هامساً: «اتبعوني كلكم».

صعدت العائلة كلها إلى سيارة الجيب، الأب، والأم، والأولاد الستة. تخلَّفت البنت وحدها، فلم يجرؤ الرقيب على نداداتها. الصِّبية متحلِّقون حول السيارة، يردّهم السائق منتهراً فلا يستجيبون. سأله الرقيب الذي حشر نفسه مع زملائه في المقدمة: «أين الشاهد؟»، فردّ السائق: «اختفى. كاد يذوب من نظرات الجيران فاختفى». لم يعقّب الرقيب بكسله المعهود، بل همس ثانية: «إلى المخفر»، وفتح زرّين من أزرار سترته.

دوّى محرك السيارة ذو الحشرجة. اهتزّت العجلات المطّاطيّة قليلاً وهي ثابتة، ثم انفصلت عن المؤخرة كتلة دخانية سوداء. ارتجّ الجالسون فيها جميعاً، فاختُضَّت جماجمهم. «يلّلا» تمتم السائق، فانطلق الحمار الحديدي. ركض الصِّبية خلف السيارة حتى اختفت ملامحهم في الزوبعة الغبارية، ثم عادوا أدراجهم كالإوزات الشرسة التي لحقت بالقافلة، بدورها، وعادت أدراجها إلى حيث البركة الطينية قرب سور «عَقْدي ساري». بعد ذلك أقفر الزقاق لينتظر زوبعة أخرى.

كل جثة في طريق «الحيوان» السابح في الزلال الدبق تزوّده ببشارة للفوز. «اسقطي، اسقطي. قَدَرُ واحدٍ أن يصل؛ واحدٍ فقط». ذاكرته تتلألأ كحُباحبَ فوق نهرٍ، وذيله يشتدّ اهتزازاً. «مَنْ كان ذاك؟»، يسأل نفسه كمن التقطَ ظلاً عابراً ولم يتمكن من تحديده. يمعن التفاتاً إلى أعماقه التي أورثتها أشكال إلى أشكال. سرٌّ صياغة يلقي إليه بالكثير مما مضى، دون أن يكون حاضراً في الذي مضى. الخليَّة؟.. نعم. حَلَبةُ

النَّسّخِ الأعظم للدورة كلها، والهاوية التي تتحد فيها مصائر الأشباه، الذين يملكون غريزة أن يستمدّوا بقاءهم من موتٍ، وموتهم من بقاء. سوران عظيمان لا نهاية لهما من المرايا، والشكل يستقر في الفواصل بين الألواح. «من كان ذاك؟» يستعيد «الحيوان» السؤال، ثم يجمع الشتات المضيء الخافت في ظلام جسده، محاولاً حصر ما يراه: كان ذلك الحيوان الآخر، ذو القوائم الأربع، الذي انقض عليه الرجل المختبئ بين الأعشاب، هو العابر بظله على مساحة جلية من ذاكرته. يرصد «الحيوان» السابح في الزلال حركة الحيوان الآخر: وديع مغتبط ببلاهة النعمة التي تجعله أبله. القوائم الأربع تتناوب على الحركة في نظام صارم. وَبَرٌ يَحُوِّلُ إلى شُقّرةٍ في الضوء، فوق ذلك الجلد البني الفاتح. عشب يهتز من حركة الحيوان. حشرة تطير مذعورة، وذبابة تطنّ فوق قرنيه، ثم تحطّ على زاوية عينه اليمنى. العنق ينحني في رخاء، من أعلى إلى أسفل. الخَطْمُ يتشمَّم نبتة صغيرة، قبل أن تجتثها فكّا الحيوان بقضمة واحدة.

«واوو»، همسة مكتومة على هذا النحو تندُّ من أعماق «الحيوان» السابح في الزلال الدبق، فالقضمة التي اجتثت النبتة اجتثَّته أيضاً. إنه يحسّ بجسده مطحوناً بين الفكَّين القويين. «أيمكن للذاكرة أن تستعيد الألم حرفيّاً؟» يسأل السابح نفسه. «نبتة.. كنتُ نبتةً إذاً» يردُّ على حيرته، «أحسُّ بثآليل صغيرة في أطراف جذوري. أحسُّ بجذوري النحيلة أيضاً، سابحة مثلي في ظلام صلب لا دبق فيه. ورقي العالي لا يرى أبعد من شبر في محيط رؤيته. لو يميل العشب قليلاً لأرى أكثر، لو يستوي النبات كلُّه في مدى ارتفاعي فقط. آه. الأعلى ملك رؤيتي. لِمَ

لَمْ أنتبه إلى أن ثمة فسحة مديدة إلى الأعلى؟. الضوء المتهدّل في كسل من منارات الغصون. الغصون وألاعيب الورق المضحكة. السماء التي تفتح ممرات ضيقة بأيديها الألف الطرية لتراني. وجهاً لوجه أنا مع صورتي الأخرى، وامتداداتها». ويستدرك السابح في الزلال الدبق هاتفاً: «قطفني الأبله، عليّ أن أبحث عن حريتي أبعد من ذلك»، ثم يندفع بقوة في النفق.

«باڤي جواني» متورّط حتى أذنيه في لعبة أكبر منه. فقد خُيِّل إليه، وهو تابع «سطّامو لاوي حجي عباس» أن في إمكانه إذلال بيت «عَڤدي ساري» بأقاويل تافهة، بعدما أصابهم الكثير من الحكومة.

حروب مهرّبي تبغ، بعضهم شهم وبعضهم خسيس. «سطَّامو» كان يسرّب إلى شرطة الحدود مواعيد مرور قوافل «عَڤدي ساري»، مقابل أن تتغاضى قليلاً عن بغاله، التي توزّعت سُبُل عبورها بين «نصيبين» و«عامودا» في الشمال السوري المتاخم لتركيا. اثنان من رجال «عَڤدي» قُتلا في المداهمات الليلية، وعشرات البغال شردت بحمولاتها بين الأحراش والأودية، بعدما فرَّ الرجال بجلودهم. ولقد أمست أحواله تسير من سيء إلى أسوأ، بينما تَبَحْبَحَ «سطّامو» النكرة، على نحو يدعو إلى الريبة.

كان «عَڤدي» يحسّ أن في الأمر شيئاً غير المصادفات التي تمكّن الشرطة من نصب كمائن موفقة دائماً. وقد كاد غضبه أن يدفعه إلى نصب كمائن، بدوره، لتلك الدوريات، لكن العقلاء نصحوه بعدم إشعال حرب مع الحكومة لا يعرف أحد خاتمتها.

دافعُ جشعٍ وحسدٍ، لا أكثر، كان وراء ما فعله «سطّامو»، الذي مضى وقت غير قليل قبل أن يكاشف العارفون «عَقدي» بأمره. أما رَجُلُه «باقي جواني» فما من أحد فهم، حتى الآن، سبب نزوعه إلى ثرثرات حول ابنة «عَقدي» وأمها. قد يقول قائل إن الأمر محض تزلّف إلى سيّده، الذي نال من الرجل القوي في الحارة الغربية للمدينة بخساسته، أو هو استقواء الوضيع على من هم أرفع شأناً، ممَّن جعلتهم المكائد المتتالية على شيء من الضعف. و«باقي جواني» من الرجال النادرين جداً، ممن يحملون إلى بيوتهم بعض زجاجات الجعة، في أكياس سميكة محكمة التمويه. إذ ما من عادة هذه الأحياء المحافظة أن ترى بينها من يتعاطى غير شراب العسل، أو التوت. وفي إحدى حالات نشوته، كمبتدئ يستطيع أن يتباهى بقول ما لن يقوله قط في صحوه، تفوَّه، في المقهى، بأنه سيُذِلُّ «عَقدي» في شَرَفِه، وقد ازدراه بعضُ الجالسين، قائلين إنَّ هذا الكلام لا يليق برجل له شاربان كشاربي «باقي جواني». لكنه تمادى، في حالات أخرى، وفي وضح النهار، بأن يمرَّ من أمام بوابة بيت «عَقدي» وهو يفتِّل شاربيه، ليثبت أنَّ في إمكانه التحديق في باب رجل لم يكن يحاذيه، من قبل، إلاَّ مطأطئاً. وذهب به وهمه إلى درجة الغمز بعينه إلى زوج «عَقدي» مرة، وابنته مرة أخرى. ثم بات يثرثر بأنهما تبادلانه غمزاً بغمز، فحصل ما حصل، وسقط «باقي جواني» تحت كراسي المقهى، آخذاً معه حصيلة عمره التي لم تجاوز ستة ثقوب في جسده المستدير.

«أين نهاية هذا السباق؟» يكاد «الحيوان» السابح في الزلال الدّبق أن يصرخ. رأسه المستدير يصطدم، في تقدُّمه، برؤوس أخرى، وذيله

يلامس الذين تخلَّفوا عنه. تعتريه شفقة ما على جنسه الأعمى هذا، المحكوم ببحثه عن مصير محسوم كأي نتيجة حسابية في دفتر بقّال؛ المحكوم بالخروج من النفق، والعودة إليه، أكثر هذياناً من أثر الكمال الذي يجنيه بعد كل دورة. لكن العودة عودةٌ وحسب، والظلام ظلام، لا يقلُّ مقداره أو يزيد بزيادة في الكمال أو بنقصانٍ فيه. ما من إغراء، إذاً، وراء هذيان جسده المندفع، إلاَّ أن يكون حلقة في الدورة، لا أكثر. على أن هذا يبدو كافياً، كاكتفاء كل شيء بخطوة واحدة، خجولة أو واثقة، صوب النزيف العظيم للمعرفة.

«لا، فلأكن صدى ما لا أعرفه، لا صوت ما أعرفه»، ورمى بنَرد ذاكرته مرة ثانية؛ النَّرد الأوحد المضيء في ذلك الظلام الصلب كحمى صلبة، هامساً: «أين حريتي؟»، غير أنه رآها، أو رأى رمادها الذهبي العالق بأوراق النبتة، التي اجتثّها الحيوان ذو القوائم الأربع بقضمة واحدة.

«هاي. لم أكن نَبْتة إذاً. كانت النبتة صدى شيء آخر». واستحثَّ النَّرْدَ المضيء، قاذفاً به على وجوه كثيرة فوق مساحة أعماقه. «هنا» هتف، «هنا». كان يرى ثآليل جذر النبتة مسترسلة برخاء في المياه، تحت الطبقة المتراصَّة من جذور العشب الهيِّنة والتراب الرطب. أكل الحيوان ذو القوائم الأربع تلك النَّبتة، لكن المياه ظلّت هناك. يتنفّس السابح في الزلال الدبق باطمئنان مَنْ عثر على طريدة سقطت بعد فَرٍّ.

المياه، المياه. تلك الدّعامة الشفيفة التي تسند هيكل الحياة المائل، تسند ذاكرة «الحيوان» المتسابق أيضاً. «مياهٌ أنا» يقولها في اغتباط، متلمساً بحساسيته الحيوانية صيغة هذا السائل المتهتّك، الذي يصهر في مزيجه كل مزيج، والقابض بشهوته على كل انحلال فلا يستقرُّ إلاَّ

فيه: ذُرُوَرٌ آحيِّةٌ. ثآليل تتفجّر تباعاً، كاشفة عن حيوات ترقد وادعة في أسرارها. خلايا وأشباهها. يرقاتٌ أكثر تواضعاً من أن تُرى. شباكٌ ذائبةٌ ممّا يذوب، وصلبةٌ ممًّا لا يذوب. حينٌ هواء إلى الهواء، وصداماتٌ صامتة بين خلائق تستعجل ظهورها على هذا النحو أو ذاك. «مياهٌ أنا» يردّد «الحيوان» صورة اكتشافه، «فضيحةٌ عذبة أنا، أكثر اتساعاً من أن تحدّدها مشاغل نباتٍ أو جسارةُ حيوان».

إنه بهيٌّ في اندفاعه الآن، ذلك «الحيوان» السابح في الزلال، بنعمة الصورة التي تترقرق في فضاء جمجمته الصغيرة جداً. حمّى سباق وحمّى ذاكرة. حمّى من متواليات كشوفٍ تختفي في كشوفٍ أخرى. يقول: «المياه. المياه» في كل خفقة من ذيله، وإذ يدركه التعب بعد شوط لم يبلغه شركاؤه، يهدأ قليلاً، بل تهدأ كلمة «المياه» في أعماقه، أيضاً، كأنما يراجع اكتشافه بشيء من الريبة، بعد كل ذلك التألُّق.

إنه يتبع المشهد من آخره إلى أوّله، صعوداً من البحيرات إلى الجداول، ومن الآبار إلى المسارب الباطنية، ومن الينابيع إلى العروق الضّيقة بين الصخر والحصى: المطر ماء. الثلج ماء. الغيوم ماء. شمس تأخذ البخار في سلالها، وعتمات باردة تُرْجِعُ البخار، ثانيةً، إلى المكان. نواعير شفيفة عملاقة تسرق الشكل بمغارفها، وتعيده، من ثمَّ، كمثل ما كان. تآكلٌ طفيف يعتري المشهد، بعد كل دورة، تماماً كاستعمال ملعقة، لا أكثر.

المياه، إذاً، ميثاق شرف بين الليل والنهار، و«الحيوان» السابح في الزلال الدبق يحاول صياغة أعماقه من جديد، بعد اطمئنان عابر لم يُفْضِ به إلى يقين.

«انزلوا» قالها الرقيب لعائلة «عَقدي»، فنزل الأب، وأولاده الستة، وزوجه، من «بيك آب» الشرطة المغطى بسقف من الشادر. فكّ الرقيب أزرار سترته وهو يتقدم العائلة نحو باب المخفر، وإذ دخل الغرفة جلس خلف طاولته، وأشار إلى الآخرين بالجلوس، فجلس الأب على الكرسي الوحيد الذي تدلَّت لوالبه المعدنية من الأسفل، بينما قرفص الأولاد، والأم على بلاط الغرفة العاري.

وضع الرقيب قبَّعته أمامه. أخرج لُفافة وأشعلها فدمعت عينه من الدخان الذي غطاها. تراجع إلى الوراء في مقعده، وصرخ: «يا بلوط، يا لصوص»، فردّ عليه صوت من الخارج، أكثر صراخاً: «نعم سيدي الرقيب». «هات ورقة بحقّ اللّه. من يسرق الورق عن طاولتي؟»، فرد الصوت الآخر: «حاضر». «حاضر» ردّد الرقيب بدَهَشٍ، موجهاً كلمته إلى «عقدي»: «يقولون حاضر ويسرقون الورق. ألا ترى كروشهم الكبيرة؟ إنهم يأكلون دجاج السجناء مقابل تسريب الخناجر إلى السجن. واللّه، واللّه يا.. شيخنا، هناك بنادق داخل هذا السجن الصغير. بنادق تحت الأغطية. أفتشهم فأصادرها، وتعود في اليوم الثاني إليهم بقدرة قادر. لو أراد السجناء اعتقالنا لاعتقلونا بدلاً منهم. لكنهم طيبون تجاه الشرطة، ويكتفون بقتل بعضهم البعض في الداخل. الغرفة، هنا، هذه الغرفة يا.. شيخنا، ينام فيها بعض الخائفين ممن يستنجدون بنا. من يقول أنه سيُقْتَل فسيُقْتَل. ذلك أمر لا مفرّ منه. وقد ذهبنا إلى القائمقام نشكو إليه هذه الحال، علَّه يوزِّع السجناء على.. على جهنم.. فردّ علينا: أكراد، فليتذابحوا. قلنا له: سيدي كلَّما قُتِلَ شخص في السجن حلّ عشرة أشخاص فيه، ممن

انتقموا للقتيل. سيتحول سكان المدينة، والضواحي، والقرى من حولنا، إلى سجناء. ويقيناً أنهم لن يطعمونا دجاجاً أو بيضاً مما يصطحبونه إلى أهلهم هنا. سنأكل الكراسي، أو قبّعاتنا. فردّ القائمقام ـ باللّه عليك أهذا ردّ؟ ـ قال: كلوا البيك آب، لقد نسيتم البيك آب. وقد خرجنا من عنده ونحن نكاد نبول على الورد في حديقة مسكنه الفخم».

كان «عَقْدي» يصغي في وجوم إلى ما يقوله الرقيب. وكأنما استدرك الأخير سؤالاً لم يوجهه الرجل الماثل أمامه، فردّ: «أتظنني أخاف؟. من سيصل إلى القائمقام ليشي بي؟ هؤلاء الحثالة هنا ؟» صمتَ. مدَّ إليه «عَقْدي» علبةَ تبغه، فهزَّ الرقيب رأسه: «لا أعرف طريقتكم في صنع اللِّفافات. لُفَّ، أنت، لي واحدة» فاشتغلت أنامل عَقْدي حتى اكتملت اللُّفافة. قدّمها للرقيب الذي أشعلها في ارتياح، هامساً: «اللعنة على تبغ الجيش». ثم ارتفع صراخه على نحو فجائي: «يا لصوص، أين الورق؟»، ولم ينتظر الجواب، بل استرسل في شكواه، التي رآها «عَقْدي» غريبة، فأنصت بكل شيء فيه، وكذلك عائلته المقرفصة، التي بدا أن الأم، وحدها، لا تفقه كلمة مما يقوله ممثل الحكومة: «فلنفترض أن القائمقام سمع بـ .. اعذرني يا شيخنا .. سمع بجَحْشَنَتي، فماذا سيفعل؟ ها؟ قل بربك ماذا سيفعل؟ سيقول إنني غير مرغوب فيه هنا، وسيردّني إلى دائرة المحافظة. في المحافظة لي أقارب، وسيعيدونني بدورهم إلى هيئة مركز المدينة التي جئت منها. لا أريد البقاء هنا. هذا الشمال يزهق الروح. الجنود الأتراك يطلقون النار، عبر الحدود، على الحمام البرّيّ، فيصيبون جنود ثكنتنا. لماذا لا

ينقلون الثكنة عن هذه الهضبة العالية كدريئة للتدريب؟. يتصيدون الحمام، ثم يعبرون الأسلاك فيأخذونه، وهم يمدّون ألسنتهم للجيش. ما من شرطي يجرؤ على العبور قرب الحدود. قال لي فلاّح، ممن لهم حقول قرب الأسلاك الشائكة، أن جندياً تركياً اتّهمنا بأننا كُفَّار. لماذا نحن كفّار؟. سيأخذون هذه المدينة ذات يوم، دون أن يكون لأحد حقّ الرد على النار. إنهم يعبرون الحدود إلى قرية الهلالية، ويأخذون أي رجل يختارونه، ثم يبصقون على باب المخفر. وانتم.. من أنتم؟»، ثم صرخ من جديد: «الورق، الورق»، فدخل عليه شرطي حاملاً مغلفاً مهترئاً: «حاضر يا سيدي»، ووضعه بين يديه.

سحب الرقيب، الذي توردّت وجنتاه من الانفعال، درجاً من أدراج طاولته، ثم تناول قلم حبر بلَّل أصابعه بلون أزرق على الفور. «تفو» همس لنفسه. لفّ وسط القلم بورقة نشّافٍ ليمنع تسرُّب السائل، ومال على الأوراق التي أخرجها من المغلَّف، متمتماً بصوت مسموع: «اليوم.. التاريخ.. المَحْضَر». كان يردد الكلمات دون أن يكتب شيئاً. رفع بصره إلى «عَقْدي» وأولاده، قائلاً: «من منكم يتقن الكتابة؟»، فرد الأولاد أنهم يتقونها. زمّ الرقيب شفتيه، وأومأ بقلمه إلى أحدهم: «تعال». قام الشاب الذي يبلغ التاسعة عشرة، واقترب منه. «اجلس مكاني» أمره الرقيب وهو ينهض عن كرسيه، فامتثل ابن «عَقْدي». مشى الشرطي حتى بلغ الباب. ردّه بحركة من حذائه السميك، ثم اتَّكأ عليه بكتفه: «لا أريد لهذا الأفَاق أن يدوّن المحضر»، وكان يشير برأسه إلى الخارج، بما يعني أنه لا يريد مساعدة أحد من الشرطيين. «إنه يستوقفني كثيراً ليسجل الكلمات بحذافيرها، وهو يتعمد ذلك مستغلاً

ضعفي في الكتابة. ابن الجحش. لا ينفع إلا لهذا العمل، لذلك يطيل حتى يقضي نهاره في تعذيبي». ثم توقف الرقيب برهة، قائلاً للشاب الجالس وراء طاولته: «لا ترفع القلم كثيراً، وإلاَّ اضطررنا إلى كتابة المحضر من جديد».

رفع كتفه عن الباب. نظر إلى حذائه قليلاً، ثم إلى «عَقْدي»: «سجّل»، قالها من غير أن ينظر إلى الشاب. «اليوم كيت.. التاريخ كيت.. المحضر»، واتجه إلى «عقدي» بسؤاله: «لماذا قتلوا ابنك؟». رفع «عَقْدي» حاجبيه في دهش، هامساً: «ابني؟». قال الرقيب: «عمتك.. اختك.. خالتك، جدك، أبوك، من قتلهم؟». ازداد دَهَشُ الرجل، ثم تحوّل الدهش إلى غضب: «سيدي الرقيب، من قتل حكومتك، وحكومة أبي أبيك؟»، فأجفل الشرطي كمن كان شارداً، وقال في جفاف: «ماذا تقصد؟»، فرد الرجل: «إذا أردت أن تنتهي من المسألة سريعاً، فقل لابني ماذا عليه أن يكتب في أوراقكم». «أجبني، إذاً، ليكتب ابنك ما تقول»، ردّ الرقيب بدوره.

همهمت الأم الجالسة على بلاط الغرفة بكلمات مشوبة بشيء من القرف، فنظر إليها أولادها متوسِّلين، فسكتت. نظر إليها الرقيب فلم تطرف عينها الغاضبة. «واوو» تمتم الشرطي، ثم تحول بعينيه عنها كمن يتلافى موقفاً حرجاً: «ما القضية إذاً؟» سأل الرقيب الرجل، فرد الأخير: «أنت أَخْبَر». قال الرقيب: «أتيت بكم لأن هناك جريمة قتل»، فردّ «عَقْدي»: «جريمة قتل، أو انقلاب.. ما الذي يعنينا في ذلك؟». رفع الرقيب كتفيه في تساؤل: «أليست لكم علاقة بجريمة قتل، أو بسرقة، أو بتهريب، أو بمسجون هنا؟». صمت «عَقْدي» ولم يجبه. رفع

ابن «عقدي»، الجالس وراء الطاولة، رأسه قليلاً، سائلاً في حياء: «ماذا أكتب يا سيدي؟»، فأجابه الرقيب: «القضية عويصة، يلزمنا شاهد. أين الشاهد؟»، ثم صرخ ملء فمه عبر الباب المغلق، فركض شرطي من الخارج، مُطلاًّ برأسه فقط: «نعم يا سيدي». سأله الرقيب: «لماذا جئنا بهؤلاء الناس؟»، فأجابه الشرطي الذي لم يتقدّم أو يتأخر: «جريمة قتل». سأله الرقيب ثانية: «مَنْ قَتل مَنْ؟»، فطاطأ الشرطي برأسه، هامساً: «هرب الشاهد يا سيدي، لكنني أعتقد أن هناك جريمة قتل». فاحتدّ الرقيب، متوجهاً بكلامه إلى ابن «عَقدي» الجالس وراء طاولته: «الحكومة لا تعرف ماذا يجري، فلماذا عليَّ أن أعرف؟ سجّل يا بُني: قُتلَ حمار. دعوى ضد مجهول. انتهى. التوقيع حذاء بن حذاء. الشاهد حذاء».

فردّ الشاب: «أعليَّ أن أوقّع في مكان ما على الورقة؟». نفخ الرقيب صدره الممتلئ غيظاً ومللاً: «نعم. وقّع على مؤخّرة الرئيس»، وأشار بيده إلى صورة معلّقة فوق أحد الجدران.

«الحيوان» السابح في الزلال الدبق يستحثّ قواه وأعماقه معاً. حركة الذيل تدفع الرأس الكرويّ أماماً، والذاكرة تحاصر المشهد بكل آلاتها. «الحرية هي صيغة الشكل». إنه يمهّد بهذه الكلمات ضرباته الجديدة، بعدما أخفق في أن يجد الماء منطلقاً لصيرورته. ويردّد كالهاذي: «الشكل.. الشكل. الذرة الأولى، الخلية، الجذر الذي لا ينقسم، هو الحرية. البداية.. وأنا لست ماءً».

كان «الحيوان» قد انتهى، توّاً، من اشتغاله على فكرة السائل؛ الفكرة التي تتأرجح كنوّاس الساعة بين تعاقبات الطقس: بخار. ماء.

بخار. ماء.. الخ. «أنا أحدهما» أسرَّ لنفسه، «أنا جُسَيِّمٌ بارد أو ساخن، لا أكثر»، ثم استدرك: «لكن أيّهما أنا؟ السخونة؟ نعم، السخونة هي طبيعتي. الزلال الذي أسبح فيه، وكذلك النفق المظلم هذا، كلاهما ساخنان. جسمي ساخن، هذا ما أحسّه. بيد أن عليَّ معرفة ما هو الساخن. الحرارة. واوو. من سيؤكد المسألة؟ عليَّ التفكير أبعد. نعم. الساخن يصبح بارداً بعد قليل. البارد، نعم. من سيؤكد المسألة؟»

بات «الحيوان» يحسّ بسذاجة أسئلته في حمّى السباق، الذي سيجعل وجوده متَّصلاً أو منقطعاً، لذلك ينبغي اعتبار السباق، وحده، حقيقةَ وجوده. حاول أن يصرف أعماقه إلى الراهن فقط، فأخفق. ثم استبدَّ به غضبُ مَنْ يخذله جوابه، فصرخ: «أنا الحرية. وحدي أنا. لست أسمع أحداً من كائنات هذا السباق. ألا تتساءل لماذا اللعبة كلّها؟. تتعب فتستسلم للموت. حيوانات. لديّ ذاكرتي واندفاعي، فأنا الحرية. أعبر الجثث بحمّى لا قانون فيها. الحمّى هي الحرية. أنا الشكل الآن، وصورةُ كَمَالِه حين أصل. أللشكل كمال؟ هاااي. الحمّى هي الحرية»، ثم ضرب بذيله الزلال فاندفع مسافةً إلى أمامٍ.

الحيرة تتجذّر. لماذا عليه أن يصوغ نفسه على شكلٍ وهو على شكلٍ آخر؟ لا يهمّ، على كل حال، تعاقباته، وتحوّلاته، التي أفضّت به إلى هذه الصورة. عليه الوصول إلى آخر النفق. تلك مهمّته، لا أكثر. وسيكون ما سيكونه، لا بتصميم منه، بل بتصميم من الحمّى التي يحسّها منفصلة، أحياناً، عن رغبته وحماسته. «أنا سرُّ الحرية» يقولها لنفسه بإذعان لا غضب فيه، «أنا سرُّها، أما هي..»، ويرجع إلى استثارة ذاكرته، صارخاً تحت وطأة ذلك من جديد: «الذاكرة هي

الحرية. الحرية؟ لِمَ الهمّ؟ الحرية ذاتها لن تكون حرّة مثلي حين أصل». لكن إلحاح البحث عن جذر ما ظلّ هاجساً. وقد انصرف «الحيوان»، السابح في الزلال الدبق، بتساؤلاته الساذجة إلى هاوية أخرى.

ضوء صباح رخيٍّ يغمر المسافة المنبسطة التي تحدّها تلال في آخرها. ظلال الأحجار الصغيرة لم تزل مديدة، وهي تُغوي بغفوة ما، قبل أن تنحسر من صعود الشمس. نبات بنفسجي، من فصيلة السرخسيات، يكسو الأرض بتنافر. هدوء لا يقطعه إلا طقطقة خفيفة للخمائر الدفينة في التراب العاري بين نبتة وأخرى. المكان يزن نفسه بميزان البهاء الصامت. مامن شيء سيحصل قطعاً، وما من جماد ينتظر حدوث ما يوقظه. غيبوبة منبسطة، سميكة كجلد وحيد القرن: هذا هو المشهد الذي يطفو على ذاكرة «الحيوان» النَّزقة.

«من أين ستنبثق النَّتَّشَةُ الآن؟» يسأل نفسه، «الآن، أو بعد قليل، أو أبعد مما بعد». إنه يتلمس المسافة المنبسطة بوصة بوصة، ويتشمّم الهواء كعقرب. يده يد أنثى القردة، التي تلتقط البراغيث والقمل من فراء ذكورها، وله خرطوم آكل النمل، الذي لا يخطئ الجحور. «بذرةٌ ستتفتّح. بذرةٌ ما: غلاف وفلقتان، ونُتَيْشٌ سيطفرُ عالياً من ظلام الأعماق. وريقات كقرنية الظّرباء ستستطلع المكان بحركات مفصلية. كل ورقة سترصد إحدى الجهات، وكل جهة ستزاحم الأخرى في تقديم هباتها إلى هذا الحيِّ المؤنس الوافد بعُرّيه. للجهات أمومتها وأثداؤها. لقد تهيَّأت، مُذْ كانت، لوافدٍ ما: هذه بسَرير، وتلك بظلٍّ. هذه برياحٍ، وتلك بطبولٍ. هذه بفضيحةٍ، وتلك بانتصار. هذه بهذيانٍ، وتلك بأنينٍ عظيم».

أعدَّت الجهات عُدَّتها إذاً، ولم يبق إلاَّ أن يرتفع الصخب العذب لوليدٍ ما.

صمتٌ يلفّ ذاكرة «الحيوان». مرصدٌ كبير يحصر المكان في أعماقه بعدسات من الفضول والحمّى. إنه ساكنٌ من الداخل سكون القنّاص، لكن ذيله النحيل الذي لم ينس المهمة بعد، يدفع الرأس أماماً، بحركات متَّزنة، في الزلال الدّبق.

عائلة «عَقْدي» تمضي إلى البيت راجلة، بعدما جاءت إلى المخفر محمولة في سيارة الشرطة. كل فرد يلتفت إلى الآخر، عبر المسلك الترابي، في نقاش عالٍ يدور حول المسألة برمَّتها.

في تلك الأثناء، كان ابن «عقدي» السابع، الشاب الذي قتل «باقي جواني»، والمغطّي وجهه بحطته البيضاء تمويهاً، مبقياً فسحة لعينيه، يعبر البيوت الخلفية من جهة الشمال، التي تعقبها بساتين الحلبيين بباذنجانها، وفلفلها الأخضر، وقُنَّبِيطها، وخسِّها. فلاّحون وفدوا من «حلب»، يتعهدّون هذه الأرض المنبسطة ذات الجداول. يبنون بيوتهم وسط آجام الشجر، ويربّون كلاباً ضخمة. والمسافة بين تلك البيوت، والحدود التركية المسيّجة بالأسلاك، لا تجاوز بضع مئات من الأمتار.

كان الوقت يقارب الظُّهر حين أطلق النار على «باقي جواني»، وهاهو العصر بهزيعه الأخير يغطي المدينة. قضى ساعات متنقّلاً بين الحي اليهودي، وحي الأرمن، على غير هدى، متفكراً في الطرق التي ينبغي عليه أن يسلكها قبل أن تصبح مطاردة الشرطة جدّيّة. المدينة صغيرة، وأي ملجأ فيها لن يستره أكثر من ساعتين. عليه أن يجري

اتصالاً ضرورياً، على كل حال، بأهله، أو بأقربائه، من أجل تدبير دليل يعبر به حدود تركيا. سيصبح في مأمن هناك حتى ترتيب الأمور، أو بلوغها حدّها الأقصى. لكن أين يتصل بهم؟ ومن أيّ زقاق يدخل الحيَّ الذي يترصّد أناسُه ودجاجهُ كلَّ عابر؟. لابد أن الخبر ملأ البيوت، والتكّهنات بما سيجري تتأجّج كرؤوس لُفافات التبغ في الأفواه الشرهة.

يميل الشاب صوب البساتين، في محاولة لإعطاء نفسه فرصة تفكير صائب. وإذ يصل إلى أول جدول حفرت مجراه معاول الفلاحين من أجل السقي، يرفع الحطّة عن رأسه، ثم يغرف الماء ملء يديه، ويغسل وجهه ورقبته، ممسّداً شعره القصير بما تبقى من قطرات عالقة بأصابعه. إنه بكر إخوته الذكور، وتكبره أخته «برينا» وحدها، التي تزوجّت الملا «بيناف» بعد موت زوج الأخير بستة أشهر. ثمة تفاوت في العمر، لكن الملاّ كان حكيماً، برغم العُهْدة التي أورثها لعروسه، والتي تبلغ أربعة أولاد. فقد خفّف الأمر عليها، وهي الغريبة عن بيت لم يكن لها يدٌ في تجهيزه، حتى غدت جزءاً منه، وغدا الأولادُ أولادَها.

«إيـ يـ يه» يتنفّس الشاب المقبل على سنته الثانية في الثانوية، وهي سنة ستطول لتشمل سنين من عمر العائلة، من غير أن ينال شهادتها الدراسية قط.

ينظر في اتجاه الحدود، وقطرات الماء تتنزلق في رفق فوق أنفه المحدَّب قليلاً، ثم ينظر إلى يديه المغمورتين بالماء الشفيف. يحرك

أصابعه فوق القاع الطينيّ للجدول فتنبعث غمامات صغيرة كَدِرَة، ما تلبث أن تستقر على القاع، ثانية، بِثقَلٍ، ويعود للماء صفاؤه.

فَكرة الفِرار تتلاشى رويداً رويداً، ورهبة الجريمة تشفُّ حتى تغدو استسلاماً لمصير يرى الشاب أن يدفع به إلى منتهاه. فهو يعرف، مُسبقاً، بحكمة الشماليِّ الذي لا يرى إلاَّ المرَّ حتى الموت، أو الحلو حتى الضجر، ما ستؤول إليه الانتقامات. لكنه يستشعر في نفسه، إضافة إلى هذه الفراسة، رغبة في اختصار المسألة؛ رغبة في جعل الهول شديداً إلى درجة تشلُّ مَنْ يفكر في أمرٍ آخر.

سينفذ بجلده إذاً عبر الحدود، غير أن الجهة التي سيصلها لن تخفي حقيقة ما سيجري في الجهة الأخرى من الأسلاك: أبواب ستوصد على الخوف، ومزاليج حديدية ستحل محلّ المزاليج الخشبية خلف البوابات. دجاج سيختفي إذا عبر باحة مالكيه، هنا وهناك. أعواد ثقاب مشتعلة، وخِرَق مبلَّلة بالكيروسين ستعبر أسوار الباحات، علّها تصادف ما يشتعل فيشتعل المكان برمَّته. قهقهات استفزاز ستعبر الأزقَة كفخاخ مهيَّأة للقنص. أطفال سيعودون إلى بيوتهم مُهشَّمي الجماجم والأعضاء، ومثلهم النساء والبنات مشَّعثات الشعور، ممزقات المناديل. مقاهٍ وأرصفة كثيرة يرتادها المتخاصمون ستخلو للقويّ وحده، والآخرون سينزوون.

«لا» ينتفض الشاب. «فعلتها ولن أختفي. سأقول للكلاب إن لها أذيالاً إذا نَسيِت ذلك. متى كان على أولاد «عَقْدي» أن يختفوا؟». ثم نهض، وقد أخفى وجهه بحطّته من جديد.

الشمس في مغيبها، وابن «عَڤدي» يعبر فرعاً غربيّاً من نهر «جغجغ» في اتجاه قرية الهلالية. لوالده أصدقاء حميمون في المهنة هناك، والأيام السيئة لا تحيل السيد الكريم إلى عبد منبوذ بين عشياتها وأضاحيها. يقول لنفسه: «فلأتجَّه إلى بيت سُمُّو الميرسيني، فهو الأقل حكمة، والأشدّ فظاظة. لا أريد حكيماً من هؤلاء ينصحني بغير ما أريد. لا أريد مداورات الطيبين البُلهاء».

يجاوز ابن «عَڤدي» الهضبة العالية التي يجري في سهلها ذلك النُهَيّر، مخترقاً دغلاً صغيراً هو آخر امتداد لما يشبه الغابة من جهة الجنوب. ذيل من الشجر في ذلك الجسم الكثيف، لا يلبث أن يتّسع على شكل مساحات هائلة من العُلِّيق النَّهريّ، والصفصاف، قبل أن يغيب في ما وراء الحدود التركية.

نقيق صاخب للضفادع يغيب عنه في عبوره، وكذلك الخفقات الكثيرة لأجنحة الشّقراق وأذيالها المنبسطة كراحة اليد. المخفر الصغير المبنيّ من اللَّبنِ يلوح على المشارف الشمالية للقرية، التي لن تكون إلا ضاحية، في ما بعد، من مدينة «قامشلو». وفي المخفر، عادة، بضع دركيِّين لا يؤبه لهم، لكنهم خطرون كُسعاةٍ لطلب النجدة من المدينة.

المسافة بينه وبين المخفر مديدة، لذلك لا يحسّ بوجلٍ ما. يمضي على شكل قوس من الهضبة في اتجاه الجزء الجنوبي الشرقي. بيت «سُمُّو» منعزل عن البيوت الأخرى قليلاً. السراج مضاء برغم بقايا ضوء نسيها المغيب على الأسطحة، والنتوءات الترابية المبثوثة كجدريٍّ على تخوم القرية. الباب نصف مفتوح. يدفعه ابن «عَڤدي» بيده دون استئذان، فيرى العائلة مجتمعة حول صحفةٍ من البرغل الذي يتصاعد

بخاره. يومئ الشاب للرجل متجاهلاً العيون الفضولية، فينهض «سمُّو» مقطّباً، ويتجه إلى الوافد الغريب، قائلاً لأولاده، من غير أن يلتفت: «أكملوا طعامكم». وحين صار في مواجهة الباب تنحّى الشاب خارجاً فخرج الرجل خلفه. نزع ابن «عَقْدي» حطّته عن وجهه، فاتسعت عينا «سمُّو»: «مجيدو لاوي عَقْدي؟!»، فردّ الشاب: «نعم. اسمع يا سمُّو ليس لديّ وقت للشرح. أنا في حاجة إلى بندقيتك وحزام الطلقات». رفع الرجل حاجبيه: «بيتكم مليء بالبنادق والطلقات؟»، فردّ الشاب مخفياً تذمرُه: «قصدتك لأنك لا تكثر من الأسئلة يا سُمُّو».

كان ردّ الشاب كافياً ليتّجه الرجل إلى الداخل، ثم يرجع ببندقية وحزامين من الطلقات. نظر ابن «عَقْدي» إليه، وهو يتناول ما طلبه، دون أن يتفوّه، قبل أن يستدير على عقبيه، ويعود من حيث أتى.

الهواء يغدو ثقيلاً من الطقطقات الخفيفة التي يحملها عبوره. هذا ما يحسّه «الحيوان» السابح في الزلال الدبق بذاكرته. أشياء تتعرى لتندفع أسرارها من ظلام الجوهر. أرض تتعرّى في حياء كجوزة القطن. عراءٌ يتعرى. «العُرْيُ هو الطَّرْقةُ الأولى على الباب الذي سيظل موصداً»، يقول «الحيوان»، ثم يحصر المشهد بمرصده من جديد. «ابدأي. ابدأي»: همسة الإثارة في انتظار الطفرة الحية. «هاا»: رجفة ذهول ترافق صوت «الحيوان». «هاااا» يُطلقها مديدةً من أعماقه وهو يرى النَّرْدَ الساحر للحياة متدحرجاً في السكون: شعاع لولبي يكسر القشرة الرطبة تحت ظل النبات الذي لم يكن نباتاً قط، بل أشكال حجر بنفسجي تكاد تكون صورة من صور السّرخسيّات.

الشعاع يتكوّم كأخطبوط في كتلة واحدة، ثم يتهدَّل مترجرجاً. مامن شكل له، لكنه حيّ. خليط من اللون يتخثَّر تارةً، ويميع تارةً أخرى. يلمس الأرضُ ثم ينفصل عنها ثانية، كأنما يدٌ تجسُّ يداً في حياء. يتمدّد منتشراً كالريش، ساقطاً في تمايل، ثم يلتقي ليصعد خفيفاً. حركة رشيقة تصحبها همهمات صادرة من لا مكان.

يكاد «الحيوان» أن يتوقّف من ثقل ذهوله، لكن الأذيال التي ترتطم بجنبيه، من حركة الحيوانات المتسابقة مثله، توقظه، فيمضي محموماً في ظلام النفق.

إنه يصغي بذاكرته إلى الإشراقة الحية؛ بذاكرته المعتمة التي يضيئُها ماضٍ ممتدّ إلى الأقصى الغامض، وهاهي تمتلئ بالخليط اللونيّ، المنبثق من ذاته، بطفرةٍ تلقائية، كأنما إرادةٌ كامنةٌ، خارج أية ضرورة أو سبب، تفجّرت بتركيزٍ خارق منها على أن تكون ذا ذاتٍ، فكانت؛ بل عدمٌ ألقى بنفسه إلى الملهاة، ساخراً من سلطانه الصارم المديد، خارجاً على قانون صمته وثقله.

الخليط اللوني يدور على نفسه كزوبعة صغيرة، وإذ يصير مدوّراً كقُرص، يهبط حتى يستقر على الأرض الرطبة. وشيئاً فشيئاً يتجمّد مثل خثارة اللبن. المتعرجّات اللونية الصافية تأخذ هيئة نقوش صلبة، وما تبقى من أمزجة رمادية، أو خضراء مسوَّدة، يصير إلى معدنٍ متين.

يفتح «الحيوان» دَهَشَتَهُ على مصراعيه: «هذا درع!!».

درعٌ معدني كأكمل ما يكون، مزخرف في فوضى تقارب الإتقان الصارم. ولو رفعَتْه يدٌ عن الأرض قليلاً لبانَ في تجويفه مقبضان، مما يجعلهما المحارب في ذراعه فيُحكم الإمساك به.

درعٌ إذاً. أنجزت الإشراقة درعاً!! «وَيّحي» يهمس «الحيوان»، «أهذا بدء المشهد؟»

المغيب يستكمل جمع الشارد من ألوانه كما يجمع الراعي غنمه الشارد، ثم يوصد الباب خلفه، في الجهة الغربية من قرية الهلالية. وابن «عَقْدي» يرجع من المسالك ذاتها التي جاء منها، مروراً بدغل الصفصاف، وانتهاءً ببساتين الحلبيِّين. البندقية العجمية مُلقَّمة. حزام طلقات على وسطه، وآخر على الكتف. ما من رهبةٍ تسوقه الآن إلى الأزقة المظلمة، من جهة الشمال، بل استسلام عذب لسحر المأساة. وهو يحاذر، في عبوره، أن يرى شبحٌ ما شكل البندقية، لذلك يرخي فوّهتها إلى الأرض، في موازاة جسده الخفيف.

ساحة بيت «باقي جواني» مكتظَّة بالنادبين الباكين والصامتين. زوجه جالسة لصق حائط، مشعّثة الشَّعر، واجمة، يحف بها أولادها الصغار كقطط مبتلَّة. بعضهم يلتصق بها، وبعضهم يحوم ناظراً إليها كَمَنْ ينتظر لعبة مرحة. النساء الواقفات حلقةً من حولها يتأوّهن، ويعتصرن أحداقهن أسفاً. وقد تبادر إحداهن فتلطم صدرها مرّة أو مرّتين، بانتظام، هامسة: «وا.. باقي جواني».

كان واضحاً أن الباكين استنفدوا بكاءهم، فباتت التأوّهات الجافّة، واللطمات الخفيفة، بين حين وآخر على الخدود والصدور، هي كل ما يمكن تقديمه من مظاهر الأسى لزوج القتيل. أما الرجال، الذين تجمهروا مقرفصين، على مبعدة من النساء، فكان أساهم صارماً ووقوراً. إخوة «باقي جواني»، وأعمامه، وأولاد أعمامه، مطرقون. «سطّاموا لاوي حجّي عباس» ينظر إليهم فرداً فرداً

بتحريض واضح. القتيل أحد رجاله، لكن لا صلة قربى بينهما، لذلك هو مُعْفى، بالطبع، من دفع أية ضريبة للنزاع الذي سينفجر. أعليه أن يطلق قهقهةً ما، وهو يرى ببصيرته الخبيثة، ما سيجر التناحر عليه من مجدٍ؟.. لا. سيكتم القهقهة، والوقت سيتكّفل بإزاحة عائلة «عَقْدي ساري» من طريقه إلى الأبد، بأيدٍ لن يدفع لها قرشاً، ودمٍ لا شأن له به.

«كيف يتجاسر ابن عَقْدي؟» قالها «سطّامو» دون أن يرفع نظره عن كرشه المندلق بين فخذيه القصيرتين. بعض الرجال وافقه بهزّ من الرؤوس، وآخرون لم يَخفَ عليهم التحريض البيِّن في سؤاله، فألقوا عليه نظرة تَزُنُه بلحمه، وشحمه، وعقله الباهت كضوء القنديل الذي بات يضيء الساحة.

جثة القتيل في الداخل المعتم للبيت، ملفوفة بكفن أبيض ذي بُقع تميل إلى البرتقالي، وهي ما تبقَّى من سائل ينزفه الجسد حين يستنفد الدم. لن يرى أحد تلك البُقع، بالطبع، في ذلك الظلام، لكن للجثّة رائحة تشي بما أصابها، حتى لو كانت طازجة بنت دقيقتها. تلك مسألة لا تخطئها أنف من يرى جثّة عادية أوّل مرة، فكيف بهذه، وهي تحمل ستة ثقوب، ولها رهبة القتل الجاثم كديك الحبش على بيضٍ لن يفقس غير القتل؟

الجثة في الداخل، نضرةٌ بصمتها الذي يعقب الغَسْل والصلاة، وستكتمل تلك النضارة حتى تنبت أول عشبة فوق التراب الطري الذي سيغطيها. لكن الواضح أن لا أحد في عجلة من أمر التراب. قد ينتظرون إلى الغد، وقد يدفنونها الليلة، وهم يحملون مصابيحهم

الصامتة إلى مقبرة الهلالية. من سيتكّهن بهذا أو بذاك؟. رؤوس الأقرباء مشتغلة بالغضب لا بالجثّة، ورؤوس المعزّين الجيران مشتغلة بالعودة إلى منازلهم، لتناول العشاء، والحديث عن المسألة صراحةً، دون رقيب أو مجاملة.

ابن «عَقْدي» يحاذي سور بيت «باقي جواني». يسند ظهره إلى الحائط، ويستطلع الزقاق من أوّله المعتم إلى آخره المعتم. إنه يسمع، واضحاً، همس الرجال في الساحة، وتأوّهات النساء المكتومة، وكذلك ركض الأطفال اللاهين وزجر الكبار لهم. باب السور مفتوح كالرّهبة، لكن ذلك لا يفي بالأمر. عليه اختيار الزاوية التي تصل ركن السور بالحائط الخارجي، حيث ثمت فسحة مربّعة يمكن حصر الساحة منها، والاحتماء بالجدار، أيضاً، إذا لزم الأمر. يرجع الشاب مبتعداً عن البوابة، وإذ يدرك ذلك الركن يعلوه في خفّة لضآلة علوّه، ثم يتفرّس في الأشكال بتمهّل، وقد وضع البندقية بين ساقيه المنحنيتين فيما يشبه القرفصاء.

بيت «عَقْدي ساري»، الذي يقع في بداية الزقاق ذاته، يشهد حشداً خفيفاً بدوره، دون ضجّة. بوّابته موصدة، وفي الداخل أولاده، وبعض أبناء إخوته، ممن حضروا تحسُّباً. بنادق مُسندة إلى الجدار من الداخل، ملقَّمة كما ينبغي. لُفافات صامتة تومض في خجل. لم يشعل أحد سراجاً، كأنما سيخفّف الظلام، الذي يخبّئ قسمات الوجوه، بعضاً من ثقل الكابوس. لقد اختار «عَقْدي» هذا النَّقر على مصير عائلة حين دفع بالمسدس إلى ابنه «مجيدو»، لكن الحياء من الموتى يدفعه إلى الحياء من المسّ بأحزان أحيائهم. كان عليه أن يبدو أكثر

فخراً وقد أُنجزت المهمة. كان عليه أن يضيء مصباحين بدلاً من مصباح واحد، وأن ترتفع قهقهته القوية كمن يبلّغ أمراً إلى الحارة كلّها، وفي ذلك ما فيه من إنذار القوي باستعداده للمضي أبعد مما جرى: إنها لعبة الجسارة، والثمن محسوب سلفاً. بيد أن «عَقْدي»، الذي فَقَدَ الكثير من سطوته، ارتأى منحىً هادئاً، بالرغم من إلحاح أولاده، وأولاد إخوته على إضاءة المصباح، والسلوك مسلك غير العابئ، وليكن ما يكون.

اقتربت زوج «عَقْدي» سائلة ذلك اللفيف إن كانوا جائعين، فَهَمْهَموا: «لا». اللُّفافات المشتعلة، والترقّب، يكفيان. لا كلام، والآذان تترصّد الهمهمة البعيدة الصادرة عن بيت «باڤي جواني». وعلى حين بغتة نهض الجميع متحفّزين. بل همّت الأم وابنتها أن تركضا إلى الداخل لجلب البنادق، لكن ما جمَّدهم على حالهم تلك أن الأصوات ظلَّت بعيدة، وكذلك الصخب العارم الذي يستشعره الإنسان في حركة جَمْع مُجْفل داهمه الذهول والرعب. والكلمة الوحيدة التي صدرت من ذلك الظلام هو ما همس به «عَقْدي»: «ماذا جرى؟».

طلقات بدّدت انتظار الزقاق. طلقات عجولةٌ تسبق في سرعتها ما تحتاجها يدٌ إلى التلقيم والإطلاق.

من فوق الركن المربّع للسور كان ابن «عَقْدي» يختار ضحاياه الجالسين حول السراج. إخوة «باڤي جواني» الأربعة تهاووا. كان حين يسقط أحدهم يتسمّر الآخرون وقد جمَّدهم التخبُّط والحشرجة. لم يبارحوا مكانهم أبعد من متر. أما بقية الحاضرين فتناثروا كبطيخة حمراء تسقط من أعلى على أرض صلبة. أولاد أعمام القتيل هرعوا إلى داخل الغرف يحتمون، والجيران إلى البوّابة.

ابن «عَقْدي» يميّزهم في الظلام، وقد وضع طلقات إضافية بين أسنانه ليسهل عليه تلقيم البندقية، إذ أن سحب الطلقة من الحزام الجلدي يأخذ وقتاً. عينه تتحوّل إلى مرصد للموت، وفي إمكانه أن يرى على رأس الضحية المُخْتارة هالة من الحباحب المضيئة تحدد الهدف بقدرة قادر. وهكذا لم يخطئ اختيار أحد أولاد الأعمام أيضاً، إذ حاول الانسلال مع الجيران الهاربين عبر البوابة: سقط في صخب فداسته الأقدام.

حين خلت الساحة، ولم يبق إلاَّ عويل نساء، وبكاء أطفال يتناهى من الغرف الموصدة باختناق، اتكأ ابن «عقدي» على الحائط الذي يعلو السور ملتقطاً أنفاسه العابقة برائحة البارود وسخونة السَّبطانة. لقد خطّط للدخول في هذه الحمّى من غير أن يفكر بالخروج قط، والبقاء حيث هو اختيارٌ أخير: النهاية ستستكمل ذاتها بشكل أو بآخر، والنهاية مَخْرَجٌ على كل حال.

دقائق ثقيلة تضرب بمطرقتها أرض الساحة. أبواب الغرف تُفْتَحُ في وَجَلٍ لتطلّ منها أنصاف رؤوس تستطلع الهول الحائم فوق خمس جثث. العويل يتصاعد تدريجياً، وكان قد احتبس بفعل الرعب. رجال يلكزون الرجال ليتجاسروا على الخروج، وفي اعتقادهم أن من فعل الأمر لن يظلّ قابعاً في مكانه.

خرج المتجاسر الأول فتبعه الثاني. اطمأنّ الأربعة الآخرون فاندفعوا بدورهم. كان يتلفتون كالقردة، ناقلين أبصارهم بين السور وسطح البيت. النساء تقدَّمن أيضاً، أيديهنّ إلى الأعلى في ضراعة يائسة، وقد تعلّق الأطفال بأذيال أثوابهنّ الطويلة. وإذا اكتملت حلقة

المذعورين تحت ضوء القنديل الذي كان يضيء، في ما مضى، مجلس الرجال، دوَّت طلقات أخرى.

خانت الرُّكب حامليها، لذلك تلقَّفت بندقية ابن «عقدي» رجلين آخرين، بعد سقوط المرأة التي سدّت مرماه في أول طلقة. زحف الهاربون على بطونهم زحفاً، وقد انطفأ السراج من سقوطهم عليه. سراج آخر، بعيد قليلاً، في الجهة التي كانت النساء يجتمعن فيها، من قبل، أضفى على الزاحفين شكلاً مضحكاً. وهنا أخطأهم القنّاص بطلقتين، لكنهما كانتا كافيتين لرجّ أعماق أقرباء «باقي جواني» مدى ثلاثين سنة.

تراجع شبح ابن «عَقدي» إلى الوراء ثانيةً، مغمض العينين، كأنما يحاول أن يستوعب المشهد من الرنين الذي يملأ أذنيه. صدغاه ينبضان مع كل ضربة من ضربات قلبه، وومضات خاطفة من ضوء باهر يشرّد الذاكرة فلا تقع إلاَّ على الفراغ الأعمى. الجدار يتمايل. لا، جسده هو الذي يتمايل، وشخص ما، من أسفل، يشدّه من طرف قفطانه. سدّد البندقية وقد انخلعت رئتاه من المفاجأة، فبادره الشخص، من الظلام: «أنا عمّك جَهْوَرَ يا مجيدو»، وقبل أن يستدرك الشاب المُباغَتُ معنى الكلام، جرّه عمُّه بقوة، هامساً: «انزل، والحق بي».

طوال يومين لم يخرج أي فرد من أقرباء «باقي جواني» وعائلته. ظلَّت أبواب الغرف موصدة من الداخل برغم القرع العنيف للشرطة عليها، طالبين منهم الخروج، مؤكدين أن ما من شبح يترصَّدهم الآن، وهم في أمان حقيقي. ولم يرجع إليهم رشدهم إلاَّ بعد أن اخُلِعت الأبواب بركائزها، وبانت لأعينهم ثياب عسكرية توحي بهيبة مفقودة.

«درع»؟ يردد «الحيوان» السابح في الزلال الدبق. «درع. درع. فكاهة. ذاكرتي ملأى بالفكاهات. أنا فكاهة، هذا السباق كلّه فكاهة. لابد أن قهقهة ما تنتظرني، حين أصل، وهذه الجثث كلها.. هذه الجثث التي ارتطم بها في ظلام النفق هي دغدغة الموت على خاصرتي. لو أن لي فماً لالتفت إليهم صارخاً: إنها مهزلة. وماذا لو كانت لهم أفواه، هم، أيضاً؟ إنهم ليسوا أقلّ معرفة مني. كان عليّ أن أشعر بذلك منذ البداية، لكن لا فم لأحدٍ ليخبر الآخر. فكاهة.. فكاهة» وتوقّف ليلتقط نفساً فتذكّر أن لا رئة له.

كان أشدّ يأساً من أن يتابع السباق. حاول التماس جسد ما في ذلك الظلام، فلم يقع على شيء. دار بذيله يمنة ويسرة من غير أن يصطدم بجثّة حتى بدا مُباغتاً من صمت الزلال الدبق، وفراغ الممر أمامه، ومن حوله. لقد جرت العادة، كل لحظة، أن يزاحمه أحدٌ، أو يزاحم أحداً؛ أن يلامس ذيله عابرٌ ما، أو يلامس جَسدَهُ ذيلُ عابرٍ ما؛ أن يُجاوز البعض وأن يجاوزه البعضُ، حتى بدا له وكأن السباق انتهى. «لا» قاله لنفسه، «ليس هكذا تنتهي المهازل عادةً»، ثم تفكّر قليلاً قبيل أن يهمس، كمن أدرك سرّاً غير مُقْنع: «أتراهم تبصَّروا، مثلي، في أمر الدرع؟ أتُراهم قهقهوا حتى انفجرت أحشاؤهم سخرية ممّا وجدوه بعد كل ذلك العناء؟»

كان خالياً من أية رغبة إثر تساؤلاته. حمّى السباق لم تعد حمّى، وما من شيء يعزّي الذاكرة التي استنفرت ماضيها الغامض لتصطدم بدرع.

تكوَّم «الحيوان» على شكل حلقة تصل الرأس بالذيل، كأنما يودّ أن يغدو نقطة فحسب، لينتقم من الشكل الذي حاول، جاهداً، ملامسة جذرٍ من جذور حريته، هناك، في الأبعد القابض على مأساة الأشكال.

«عَقْدي ساري» يرجع بعائلته، ثانيةً، من التحقيقات التي استمرت يومين، في المخفر ذاته. وكان الفرق الوحيد، هذه المرة، في كل ما جرى، أن الرقيب العسكري بدا أكثر احتداداً بسترته المفكّكة الأزرار.

لفيف من الرجال والنساء كانوا ينتظرون العائلة في ساحة دارهم. وأوّل مرحّب بعودتهم كان الملاّ «بيناڤ»، زوج ابنته «برينا»، وقد بدا «عَقْدي» أكثر انشراحاً، كأنما استشعر أن المأساة، بهولها، استنفدت ذاتها تماماً، ثم مسَّت العدوى الخفيّة الآخرين فدار بينهم كلام فَكِهٌ لا وجوم فيه.

كانت ضربة ابن «عَقْدي» ضربة معلّم، إذ ما من أحد يصل بقرابة إلى «باڤي جواني» فكَّر، أو هَمَّ بالتفكير في ردّها. فالألم الذي استفحل كان كفيلاً بشلّ جيل برمَّته، حتى أن عائلة القتيل انتقلت من بيتها الذي يقع في آخر الزقاق إلى جهة مجهولة، خوفاً من أن يستفزّ وجودها غضب البيت الذي يقع في الجهة المعاكسة من الزقاق ذاته. ولقد أحسّ «عَقْدي ساري» بهبوب نسمة رخيَّة من الحظ، بعد تلك المأساة، قد تفتح أمامه، من جديد، ذلك الباب الذي أُغلق إثر دسائس لم يعرف مصدرها. فالأقوياء، الذين تجاهلوه بعد محنته، عادوا يمدّون جسورهم إليه في خجل، بل بات بعضهم يسأله المشورة في هذه الصفقة، أو في تلك، ملمّحين إلى رغبتهم في إشراكه معهم كسيِّد. غير أنه كان يخفي رغبته في معاودة المهنة، خوفاً من ضربة جديدة.

إزاء ذلك الانفراج المُباغِت قرّر «عَقْدي» البحث جدّياً عن مصدر الوقيعة التي أخذت بالكثير من ماله وهيبته، فإن ظفر بالأمر فإنما ستكون عودة محمودة العاقبة. وتحرّي المسألة، على كل حال، سيغدو سهلاً بدوره، فللأقوياء عيون بين الأقوياء.

«سطامو لاوي حجّي عباس» فكر بنقل بيته من تلك المدينة إلى «ترِّبَسْبي»، وهي قرية كبيرة تقع إلى الشمال الشرقي، على مبعدة ما يقلّ عن مائتي كلم، حيث الامتدادات الشرقية لجبال طوروس، والقاطع الحدودي الذي ترسمه مياه دجلة مع العراق. فكر «سطّامو» ليل نهار، ليبتعد بما حصل عليه من مجد صغير قبل أن تُودي به طلقة مباغتة.

كان يفكر وهو يشمّ الدَّويَّ من ثيابه وجلده. لقد سقط قتيلان ببندقية ابن «عَقْدي» فوق صدره، قبل أن يستطيع زحزحة جسمه الثقيل عن الأرض، ليهرب ككرة متدحرجة من بوّابة «باقي جواني». وهو لا ينسى ما رأى، أو توّهم أنه رأى، في ذلك الضوء الخافت للسراج: يد إحدى الضحيتين تشبّثت بحطته فانزلقت الحطّة مع الجسد المتهاوي. فم الضحية الأخرى همهم بكلام قرب وجهه فانبثق منه الدم. وقد انتظر «سطّامو» شهراً لتهدأ الأمور، وحتى لا يغدو انتقاله موضع شبهة، ثم انتقل فعلاً، ليلحق به من يكمل المشهد الذي لم تكمله ذاكرته هو، بعد ستة أشهر من ذلك التاريخ.

كان «عَقْدي ساري» ينظر إلى أحوال الملاّ «بيناف»، زوج ابنته «برينا»، بإشفاق، فلو تمكّن من إشراكه بقليل، أو بكثير، في أعماله القادمة، لأمكن للأخير أن ينهض قليلاً من مكيدة القمح الذي عاكسه،

لكن الملاّ صعب ونظيف، وهذه عقبات تقتل المجد، عادة. وقد ارتأى ألاّ يخوض الأمر معه مباشرة، بل أن يكلّف ابنته ذاتها بجسّ نبض هذا الرجل الذي لا يبتسم إلاَّ لماماً. وإذ حاولت المرأة إقناع الرجل ردّها في غضب: «مضاربات يستخفّ التجار فيها بأرواح من يرسلونهم عبر الحدود. مشتريات بقروش تردّ من المبالغ ما لا يحصيها إلاَّ اللّه. يقتل بعضهم البعض ليستأثر بالمهنة. وهم يتعدّون ذلك يا امرأة.. يتعدّون الحدود. ينتقلون من التبغ إلى الأفيون. ما هو الأفيون؟ سمعنا الكثير عن أهواله، جارنا «محمد حُسُّو» يقضي عشرين عاماً في السجن على نقله الأفيون في الجوارب المبطنة إلى العاصمة. أتريدين لي مصيراً كهذا؟ ليس حلالاً هذا، ولن أُطعم أولادي طعاماً من نار..». وإذ أخبرت الابنة أباها صرف الرجل النظر مؤقتاً عن إقناع صهره.

لم يكن خافياً على أحد أن «مجيدو عَقْدي ساري» قد عبر الحدود إلى تركيا، وانه صار واسطة أبيه هناك، من «نصيبين» إلى «ديار بكر»، المدينتين التركيتين. فهو يواكب البغال المحمَّلة بالتبغ الذهبي حتى الأسلاك، ليسلِّمها لمن يتولّى الجانب الآخر، واسمه اسم شبح يرفرف فوق الرؤوس، من «أضنة» إلى «درباسية». هذه منطقة نفوذ التبغ، أما «تِرْبَسْبي» وما يجاورها من القرى فنصيبها خيرات العراق من التمر، والمناديل الموصلِّيَّة، والحناء.

لقد وجد ابن «عَقْدي» لفيفاً ممن كانوا عملاء أبيه، في ما مضى، في «ديار بكر»، حين عبر الحدود، بعد ليلة المجزرة، مع عمّه «جَهْوَرْ»، فأحسنوا وفادته، بتوصية من «جَهْوَرْ» ذاته الذي لن يتوانى عن أكل زوجته إذا جاع. وقد كان رقيبَ أخيه في الصفقات، قبل دسائس «سطّامو». فما

من وكيل يستطيع إخفاء كيس واحد من التبغ بدعوى إلقائه في النهر، أو تركه خلفه، إثر مداهمات حرس الحدود بعض الأحيان، سواء أكان صادقاً أم كاذباً، وسيأتي بالكيس، أو بثمنه، من ماله أو من مال الشيطان. أكثر من وكيل اختفى بعد تلاعبات من هذا النوع، وكان في استطاعة المهرّبين أن يروا جثثهم أشلاء بين الألغام التي يعرفون مواقعها. فممّرات العبور السّرية ملأى بالألغام عادةً. الجيش التركي يتولّى ذلك، والمهرّبون يتحدّونهم في تلك الممرات. وهم يسمّون اللغم باسم «الإبريق». ألغام بدائية ضد الأفراد، لها جسم متطاول. وطريقتها أن توضع في حُفر متقاربة ثم تُغطّى بالتراب، فإن وطأها حيوان، أو إنسان، انفصل الطارق عن أمانه، وإذا ما ارتفع الثقل عنها اشتعل الصاعق وتفجّر الجسم المعدني. المهرّبون يعرفون ذلك. ولما لم يكونوا يملكون خبراء في تعطيلها، فقد عمدوا على وضع ألواح ثقيلة من الخشب فوقها. ولأن الألواح لن تتحرك بالطبع، فالفتيل القاتل لن يشتعل إذاً.

يأتون ويمضون و«الأباريق» على حالها. و«جَهْوَرْ»، الذي يعرف ما يعرفه الآخرون، كان ينقل الوكيل الغشاش مقيّد اليدين، مكمّم الفم، جرّاً بحصانه، ثم يمدّده فوق لغم ويبتعد، بعد ربط الجسم بحبل طويل. بعد ذلك يسحب الحبل فينزاح الثقل عن اللغم فينفجر.

«جَهْوَرْ» توصيته لا تُرَدُّ. وبعد عودة الإشراقة إلى اسم «عَقْدي» بات الابن موضع احترام جمٍّ، إضافة إلى توصية عمِّه.

ثمة نول خفيّ يغزل الأمور كلّها بإتقان. «سطّامو» صرخ «عَقْدي»، مضيفاً بلهجة من أعياه صبره: «سطّامو آه». لقد أدرك رأس الحربة في مأساته من ثقات لا يكذبون. هذيانه يعلو، و«جَهْوَرْ» يخفّف عنه:

«الليلة سينتهي سطّامو يا أخي، فاهدأ». و«عَقْدي» لا يهدأ: «سطّامو!! ماذا فعلت بسطامو؟ أنا مَنْ زوّج سطّامو، ومَن بنى بيت سطّامو»، فردّ أخوه: «لا يا عَقْدي. لا علاقة لنا بسطّامو، كان نذلاً بنتّهُ النذالة»، فهمهم «عَقْدي»: «ذلك أفضل. لماذا ظننتُ أنني كنت وراء مجده؟»، فأجابه أخوه: «لأنه كان يتردّد عليك، لا أكثر ولا أقل، من يمنع طارقاً يطرق بابه؟»، ألقى كلمته تلك للتخفيف من احتداد أخيه «عَقْدي».

قال «عَقْدي» بنوع من الهذيان: «أبلغه يا جهور أنه مطرود». جحظت عينا «جَهْوَرْ» قبل أن يسأله: «مطرود؟ إنه لا يشتغل عندك»، فتمتم «عَقْدي» دَهِشاً: «لا يشتغل عندنا؟».

إن «عَقْدي» يسرع بمخيّلته أكثر من الواقع، كأنما يستعيد مجده الذي كان دفعة واحدة. وفي ظل ذلك المجد لابدّ لـ «سطّامو» أن يكون وكيلاً من وكلائه. وقد أفاق على كلمة «لا يشتغل عندنا»، فصرخ: «عند مَنْ يشتغل إذاً؟»، فأجابه أخوه: «مهنته على حسابه». «على حسابه!! على حسابه!!» ردّد «عَقْدي»، مضيفاً وهو يصرّ على أسنانه: «حسابه عندي»، فبادره أخوه: «لا. حسابه عندي. اهدأ يا عَقْدي».

كان هذا الحوار يشتعل كلفافة «سطّامو» المتمدّد على مسطبة واطئة لصق بيته. مضت ستة أشهر التقط فيها الرجل أنفاسه، وكاد أن ينسى أمر «عَقْدي». له بضعة رجال يحملون أشياء خفيفة، لكنها تفي بحاجاته وجاهته المتوسطة. وهو ينتظر الآن استلامهم لمجموعة من بنادق الصيد، والأحزمة النسائية ذات الشناشيل. سيعبرون بها جسر الرومان، القريب من دجلة، بعد أن يتسلّموها من وسطاء يعرفون ثغرات النهر كراحات أيديهم. لكنه يحسّ بكرب ما، غامض،

كأنما للحوار الذي يجري بين «عَقدي» وأخيه، على مبعدة ما يقارب مائتي كلم، أيدٍ خفيّة تتقرّى جسد «سطامو» ضاغطة بأناملها على أجزاء ستغدو ثقوباً فيما بعد.

وصل «جهور» إلى «تربسبي»، القرية - الناحية. ويطلقون اسم «الناحية» على تجمعات أكبر من القرى، وأصغر من المدن. فيها حامية من العسكر عادةً، بقيادة ملازم، لا تتعدى مهمتها أكل الدجاج. لن يعرف أحد، مدى ألف سنة، لماذا كان درك الشمال، وعسكره، يحبون الدجاج. لابد أن طباعاً مشتركة تجمع بين الاثنين. دجاج وعسكر. ومن يتوّدد إلى خفير يتودد إليه بدجاجة، ومَنْ يتودد إلى ذوي الرُّتب يُكثر من ذبح الدجاج. والدرك الجوّالة على خيولهم، في القرى، يطلبون، أول ما يطلبون الدجاج. لو رصفوا شارعاً بعرض متر، من دجلة إلى اسكندرونة بعظام الدجاج لما نفد. القمح الذي ينمو في تلك السهول له طعم الدجاج. مياه الآبار لها طعم الدجاج. الرياح تهب ممتزجة بالريش، وأُولى قطرات المطر لا تلامس الأرض بل تلامس الريش. الوسائد من ريش الدجاج، وكذلك المراوح. الأطفال يلصقون كرات صغيرة من الطين بأطراف الريش ثم يقذفونها كالسهام فتلتصق بالجدران. الغضاريف التي تتوسط الريش تستخدم كمكاحل للنساء، والطويل منها لتنظيف البنادق. إذا وفد ضيف على أحد ولم تُذْبح له دجاجة، ففي ذلك انتقاص من قدره. تلك مناسباتٌ عادةً، لكن إعجاب العسكر، الذين يقضون مأموريّاتهم في الشمال، بالدجاج، بمناسبة وبغير مناسبة، له تصنيف آخر، غيبيّ، أكثر غموضاً من قراءة آية الكرسي.

كان الوقت مساءً شديد الهشاشة تحت المظلة القمرية، حين عبرت سيارة «البيك آب» أزقة «تربسبي». ولم يكن الاهتداء إلى بيت «سطّامو» عسيراً، في هذه الناحية التي يعرف حتى الأطفال من دخلها، ومن غادرها. توقفت السيارة مثيرة سحابة من الغبار، ثم ترجّل منها «جهور» واثنان آخران. طرقوا بوابة السور - ومعظم بيوت الشمال ذات ساحات مسوّرة - ففتحتهُ لهم فتاة ذات خفر، ربما كانت ابنة أحد الجيران، لأن «جهور» يعرف أولاد «سطّامو». ألقى الرجل التحية تمتمةً، سائلاً عن صاحب البيت، فأومأت: «نعم، إنه هنا». نظر إليها وهو يدلف بالرجلين داخلاً، كأنما يتفحّص وجه الشاهد الأول، الذي سيدلي بأوصافه إلى الشرطة، وكان وجهاً خجولاً لا جمال فيه، لكن في العينين انكساراً غامضاً لا يمكن للناظر عبوره دون أن يهمّ بسؤالها عن الأمر. و«جهور» لن يسألها بالطبع عن انكسارها هذا، بل عن الغرفة التي سيكون «سطّامو» فيها. ففي الساحة أربعة أبواب تفضي إلى أربع غرف. وإذ دلَّته الفتاة بإشارة من يدها، خطا خطوات واثقة في اتجاه هدفه.

دفع «جهور» الباب الذي لم يكن موصداً، فارتطمت دفّته بالحائط. نهض خمسة رجال واقفين على أقدامهم من المباغتة، ولم يُبدِ أحد منهم حركة لرد القضاء المستدير، الصامت، في فوهة البنادق التي توجهت إلى رؤوسهم. «لماذا يا سطّامو؟» همس «جهور»، فرنّ الهمس في الآذان، بل جاوز الغرف إلى الساحة فصرَّت عتلة البئر الرطبة بفعل الحبل الرطب. «ماذا تريدون؟» ردّ «سطّامو» مرتعشاً. «أتريدني أن أجمع حولك أولادك ليروا رأسك الذي سيتهشم؟» قال

«جهور»، فتمتم «سطّامو» في توسُّل: «كان أخوك ظالماً يا جهور، ولم يترك لنا إلاَّ الفُتات. ظلمنا فظلمناه. تعادلنا إذاً»، ثم أطرق خجلاً من هيبته المُهْرَقَةِ أمام ضيوفه، مكملاً: «نفيت نفسي عنكم، ألا يكفيكم هذا؟».

دفع «جهور» بفوّهة البندقية في كرش «سطّامو» حيث تأوّه، صارخاً: «سأحفظ لك كرامتك أمام هؤلاء. تعال معي»، ثم التفت إلى ضيوف «سطّامو» قائلاً: «لم تروا شيئاً. قولوا للشرطة إننا من لا مكان. أولادكم ينتظرون أن تأتوهم برزقهم. لا تحرموهم بالله عليكم»، ودفع «سطّامو» أمامه، حتى إذا وصل إلى البئر بادره، «حفظت كرامتك. لن يروا فمك القبيح مفتوحاً، وعينيك جاحظتين»، ثم أومأ برأسه فاخترقت جسد «سطّامو» ثلاث رصاصات، فهوى. لقّم الرجال بنادقهم من جديد، وأطلقوا ثلاث طلقات أخرى على أعماق البئر، حيث يتخبّط الماء مذعوراً من الظلام والدم.

«الحيوان» السابح في الزلال الدبق لا يرى غير كآبة أعماقه الآن. إنه لا يتقدم، لكن ذيله يتحرك يمنة ويسرة بطريقة آلية من أثر السباق الطويل. يحاول أن يوقف الذيل فلا يجاريه الأمرُ الذي يصدره الدماغ، عادةً. الذيل مستقلّ عن الجملة العصبية لـ «الحيوان»، واستقلال ذيله يدفعه أمامه من غير أن يتقدم، هو، إرادياً. حمّى جديدة تحلّ محل حمّى السباق: انقلابات الأعضاء.

ليس لـ «الحيوان» على كل حال، أعضاء كثيرة: رأس مستدير متصل بذيل، لا أكثر. ما من خيارات في هذه اللعبة. هاجس الدرع، وصورته، يسيطران على الرأس فيشلاّنه، والذيل لا ينصاع. على

الدرع أن يحسم المسألة إذاً: أن يشلّ الرأس نهائياً ليتوقف الذيل، أو يخلق مبرّراً لاندفاع الذيل يقتنع به الرأس: «الدرع. الدرع» يتمتم «الحيوان». وكأنما باغتت الكلمة ذاكرته، فالكلمات المعهودة تباغت الذاكرة بترددادها، فإذا النقوش ترتسم في العراء من جديد، وإذا المعدن، الذي أعطى الدرع شكله الصّلب، ينحلّ إلى هلام، ثم يتناثر كسقوط قطرة سائل على حجر اللُّوينات تغذو أنفاقاً مظلمة، والأبخرة الخالية من اللون تتراصف كحجارة ملساء على أرض المعابر.

«الحيوان» يتدحرج في الزلال. ريح خفيّة تقذف به، سريعاً، عبر مجراها، ومنافذُ ما، كأفواه نهمة، تمدّ ألسنتها لتلتقطه.

ظلام النفق لم يعد ظلاماً، بل محِفَّة تحمل «الحيوان» إلى سطوته التي تنتظره. شعاعات حامضة تتغلغل في ذاكرته لتعطيها طعماً. كان يرى، من قبل، بأعماقه فحسب، لكن الطعم شيء آخر. الطعم هو الجوهر. الحامض العذب هو الجوهر. كل شيء حامض في النفق. الظلام مضاء بطعم حامض. الزلال حامض. الحمى محضُ تذوُّقٍ للحامض. لماذا لم يعرف مذاق تلك الحمّى من قبل؟ الحمّى هي الحرية.

نشوة عامرة تجعل «الحيوان» مستسلماً لتلك الدحرجة؛ مستسلماً للظلام البهي الذي يرفع إليه أُبَّهة الإمارة، مرتعشاً بكلِّه، كالمُقَبِل على عذوبة لن تنتهي.

لا فم لـ «الحيوان» ليصرخ صرخة المَمّتَدِحِ للكُلِّيِّ، لكنه يتشظّى ويلتمُّ. سهام مريَّشة بمجرّات أعماقه تملأ النفق المتفتح كَكَرَمٍ في يدٍ

كريمة. دروع رقيقة تتمايل ساقطة برخاء من شجراتها، والبرهة تلتقط الزمن كلَّه بمنقارها الأليف.

يتوقف «الحيوان» مرتطماً بآخر النفق. كتلة ليِّنة تلتقطه التقاطاً وتنغلق عليه، فتأخذه غيبوبة لا تشبه إلاَّ التَّرف: لقد وصل «الحيوان» المنوي، الآتي من صلب الملاّ «بيناف» إلى بويضة «برينا»، أخيراً، والمُضْغَة التي الْتَأَمَتْ ستنسجُ، بآلاتها الحمراء، شخصاً يُدعى «بيكاس».

الفصل الثالث

بضعة زرازير حطّت على السلك ذاته، الممتد فوق ساحة بيت الملا بيناف، باحثة من الأعلى بعيونها، في كسل، عن رزق دفين تحت الثلج النائم ذلك الصباح الذي أعقب ليلة زواج «بيكاس».

الغرف ما تزال غافية في الساحة. الصبي «كرزو»، وحده، كشبح، يحاذي السور وهو ينظر إلى الزرازير، متئداً، خوف أن تجفل، ثم ينصب فخين ويخفيهما، عائداً أدراجه بالحذر ذاته الذي جاء فيه. يفتح الباب ويدخل؛ بعد برهة يُزَاح جزءٌ من ستارة النافذة لتبدو عيناه المتلصِّصتان على حركة الطرائد السوداء على السلك العالي.

يختفي وجه الصبي ليلوح وجه الملاّ من وراء الستارة بدوره، ناظراً لا إلى الطرائد كابنه، بل إلى غرفة «بيكاس» وعروسه «سينم». دخان خفيف يتماوج أمام فوهة الماسورة الصفيحية للمدفأة. يبتسم الملاّ. ثمت دليل على أن الغرفة يقظى من الداخل. أمّا أن تكون «سينم» قد نسيت إغلاق خزان الوقود الكروي الصغير، الذي يزود الموقد بما يُبقي النار مشتعلة، فهذا ما لم يخطر ببال الأب.

يختفي الملاّ، فيرجع الصبي «كرزو» إلى مرصده. يحط زرزور واحد، هابطاً من السلك، على الثلج ككشاف. ينط قليلاً، مقترباً من الفخين، ثم يقف. تلحق به الزرازير الأخرى، بالهدوء ذاته، ثم تقف. قطعتا خبز صفراوان تسترعيان مدى عيونها المستديرة العجلى. يرتفع لهاث الصبي حتى يكاد البخار الشفيف أن يغطي الزجاج، فيمسحه براحته. ثم.. طرقات عالية على بوابة السور. تجفل الزرازير، فتفرد أجنحتها راجعة إلى مكانها العالي. يرتفع صراخ الصبي شاتماً من الداخل، وما يلبث أن يخرج مهرولاً ليفتح للطارق في غضب واضح.

تدخل «خاتي» أخت الملاّ فيبادرها كرزو بإشارات عجولة غير متناسقة من يديه، هاتفاً: «طارت.. طارت. أفزعتِها»، فارتفع صوت خاتي أيضاً: «لماذا أنت محتدّ؟ ما الذي طار؟». «الزرازير كادت تسقط في الفخ لولا ..» همهم الصبي، فردت عمته: «لتذهب زرازيرك إلى جهنم. منذ متى أنت يقظان يا جرو؟»، «وأنت يا بقرة ألا تنامين؟» رد كرزو، عندئذ تناهى صوت الملاّ من الداخل: «ما الذي يجري يا ديكة المزبلة؟» ، واضعاً حداً لصراخ الصبي والمرأة، الذي كاد أن يتحول شجاراً بين الاثنين، فتوعّد الصبي عمته بصوت مختنق، ثم ركض إلى فخيه فركلهما ركلة مزجت الطين بالثلج. بعد ذلك اسند ظهره إلى السور وهو يكاد ينشج من غضبه.

فتحت خاتي الباب دون استئذان ودخلت. كانت العائلة، كعادتها في صباحات الشتاء، محيطة بصَحْفَة ملأى بالعدس المجروش الساخن. أفسَحت أخت الملاّ مكاناً لها بين ولدين، ثم رشفت بملعقة أحدهما، من الصَّحْفة، رشفة عالية. وإذ طلب الولد ملعقته أشارت عمته عليه بجلب أخرى، فنهض ممتعضاً. «كيف حال العريس؟» سألت دون أن تخصّ أحداً بسؤالها، وهي ترفع الملعقة وتخفضها بحركة سريعة. ردت زوج الملاّ بسؤال على سؤال خاتي، ناظرة إلى الأب: «أليس عليهما أن يتناولا إفطاراً؟». همهم الأب من خلف شاربيه الذين تبلّلت حوافهما: «فلنمهلهما قليلاً يا امرأة» ثم رفع عينيه إلى أحد أولاده: «أنظر من النافذة يا زيوان، لعلهما استيقظا»، فنهض الولد إلى النافذة، ثم استغرق هناك. وإذ تأخر في الرد تمتم الأب: «ها؟ زيوان»، كأنما يلفت انتباه ابنه إلى أنه ينتظر علامة منه، فقهقه

الولد هاتفاً: «كرزو ينثر رماد التّنور على ثلج الباحة كله»، فاحتد الأب: «قلنا أن تنظر إلى غرفة «بيكاس»، لا إلى كرزو»، فرد زيوان وقد اختفى مرحه: «لا أرى أحداً».

أكملت العائلة تناول إفطارها في صمت. رُفعت الصَّفحة الفارغة وجيء بإبريق كبير أسود ليحط على فوهة الموقد. إنها ساعة الشاي، التي يتماوج فيها دخان التبغ المتسرب من الأنوف فوق السائل الأسود في الأكواب. علبة تبغ الملاّ الفضية تنزلق من يده إلى يد أخته فزوجه. لفافات ثخينة تستجمع بدخانها فضول الجالسين عما يفعل بيكاس وسينم. وبغتة، بنفاد صبر، يقول الأب لأخته: «بالله قومي وانظري إن كانا على ما يرام»، فتقوم خاتي على عجل كمن ينتظر أمراً كهذا: «سأرى، سأرى»، وهي تغمض إحدى عينيها حتى تقيها من دخان اللفافة التي لم تفارق شفتيها المضمومتين في صرامة. وإذ تصير إلى الساحة تلتقي عيناها بعيني كرزو، الذي بدا وقد فرغ من مهمته الغاضبة: الرماد الأسود في كل مكان.. حتى شجيرة الزيتون المتوحدة لم تسلم من نثار الرماد على أوراقها. انتقام أسود من الثلج المستسلم.

فكرت خاتي بالحكمة الشريرة في هذا العمل فلم تقع على شيء. عبث صبي غاضب لا أكثر. مطت شفتيها ومضت صوب باب غرفة بيكاس. ثلج رمادي يعلق بحواف حذائها، وآثار خطاها تبدو مضحكة من ورائها. قرعت الباب قرعاً عالياً ثم وضعت يديها تحت إبطيها لتقيهما من البرد. بعد خشخشة تناهت من الداخل، فتحت سينم الباب، مطلَّة برأسها العاري ذي الجديلتين النحيلتين: «هأهأ»، فازدرت خاتي ذلك الرأس الأبله، منادية عبر الباب: «بيكاس. ألست

جائعاً؟». «هأهأ» ردت البلهاء الواقفة في الباب. أشاحت أخت الملاّ بوجهها على اللا تعيين، منادية بتساؤل: «بيكاس؟ أما تزال نائماً؟»، فتناهت الهأهأة إليها من فم سينم ثانية. رفعت خاتي يدها إلى وجه البلهاء دون أن تمسه:«هذه هأهأةُ الشيطان، فليأكل الدجاج لسانك. أين بيكاس»، ودفعتها من طريقها إلى الداخل. الغرفة فارغة، لم يبدُ على خاتي انفعال كبير، بل تساؤل عادي: «آه، أهو في بيت الخلاء؟»، وكأنما استدركت نفسها التي لن تجيبها سينم قط: «فلأنتظره.. أغلقي الباب يا واوي» فامتثلت سينم، وأغلقت الباب، راجعة إلى مجلسها قرب الموقد، حيث سبقتها أخت الملا.

كان التباين واضحاً في نظرات كل منهما إلى الأخرى. خاتي تسأل نفسها عما يمكن أن تعطي هذه البلهاء لرجل. والبلهاء غارقة في فضاء الوجه الجالس قبالها، لا سؤال عندها عن شيء. لا دَهَشَ، تسترعيها الحركة فقط، فتلمس الدغدغة الخفية أعماقها: «هأهأ. بيكاس ديك». فتحت خاتي فمها كأنما تهم بشتمها، لكنها أحالت الشتيمة إلى سخرية ساذجة: «وماذا أنت يا سينم؟» فردت البلهاء: «انا.. هأهأ. قالت أمي إنني مطاط السروال».

«مطاط السروال؟». تمتمت خاتي، وأردفت: «هذا الاسم يليق بك. أتلبسين سروالاً؟» قالتها في احتقار. فردت سينم: «نعم.. هأهأ»، وهمت برفع ثوبها فأوقفتها أخت الملاّ بحركة ضجرة: «لابد أنها المرة الأولى. أخيراً علّمتك أمك كيف ترتدينه.. ها؟» ثم اكتسى وجهها بقليل من الخبث: «ماذا فعلتما في الليلة الماضية يا سينم؟»، فأجابتها سينم دون تردد: «للرجل خصيتان مثل الديك. قالت أمي سنذبح الديك

لضيفنا ابن حَشْمَتْ..» فأوقفتها خاتي: «لا أريد حكاية من حكاياتك»، لكن سينم استمرت في سردها دون أن تأبه للهجة الأمر في صوت أخت الملاّ: «أنا من قبض على الديك.. هأهأ». «قبضك اللّه» ردت خاتي، وأضافت بتفكّه: «ورأيت خصيتي الديك بعد الذبح؟ أوه، أنت ذكية يا سينم»، فاسترسلت البلهاء: «أمي ستطعم الدجاجات اليوم. ألن تأتي أمي إلى هنا؟»، فردت خاتي: «ستأتي أمك، وجدتك، وبقرتكم، أيضاً»، ثم التفت من حولها لترى أثراً ما يدل على الرجل الذي كان في الغرفة، فلم تر شيئاً: «أين بيكاس باللّه عليك؟» همست خاتي بنفاد صبر. فتمتمت البلهاء والهأهأة تقطع الحروف: «خرج في الليل، سيبرد، أنا لن أخرج في الليل».

زمّت خاتي ما بين حاجبيها، سائلة: «خرج في الليل؟ ألم يعد؟» فردت سينم: «لحيته باتت طويلة. لم أر عينيه. لماذا لم أر عينيه يا خاتي؟». فانتفضت أخت الملا: «متى ستقولين شيئاً أفهم منه شيئاً.. أين بيكاس؟».

نهض الملاّ من مجلسه متّجهاً صوب النافذة. رفع الستارة الخشنة ذات الأزاهير الصفراء، وتطلع نافثاً دخان لفافته من منخريه: «يا للكلب، سأضعه في التنور»، قالها وقد استرعى بصره منظر الرماد المنثور فوق ثلج الساحة، ثم انتقل بعينيه إلى باب غرفة بيكاس: «أماتت خاتي؟» تمتم غاضباً من تأخّرها. وإذ مرّت ثوان قليلة على أسئلة أعماقه، عاد إلى مجلسه قرب الموقد. أزاح فوّهتها بطرف حطّته، ورمى لفافته إلى النار. رفعت زوجه رأسها عن الوسادة سائلة في إعياء: «تأخرت خاتي. ألن يخبرنا أحد بالذي يجري؟»، فرد الملاّ: «ليتننا نسينا البارحة وخبر

البارحة. ليتنا لم نَفِق اليوم»، ثم ارتفع صوته مجنوناً: «يا كرزوووو»،ولم ينتظر جواباً بالطبع، بل أردف: «أما من شيطان يلحق بالشيطانة خاتي؟. بيكاااااس»، ونهض إلى الباب. فتحه وتخطاه حافياً.

كان كرزو ما يزال مستنداً بظهره إلى السور، أزرق الشفتين من البرد والغضب، وقد أحنى جذعه قليلاً، ليتمكن من وضع يديه بين فخذيه. وإذ رأى أباه خارجاً من الباب دون حذاء، وعلى وجهه ما ينذر بعاصفة أين منها البَرد، استقام متأهّباً للفرار. عاين الجهات من حوله كيِّربوع ليرى منفذاً، ثم تطلع، خلفه، إلى السور، فألفاه أكثر علواً من قامته. لم يكن قد فكر في علو السور من قبل قط، وهاهو يعاينه الآن، ويعاين المسافة بين فوهة التنور والسطح. حتى شجيرة الزيتون مرَّت بباله، فكانت أصغر بكثير من أن تخفيه عن بصر الأب الغاضب.

بقي كرزو في مكانه متأهباً لا أكثر، بل مُجمَّداً في تأهبه، لكن الأب لم يلتفت إليه، فاحتار الصبي. كان الرجل متوجّهاً بكله إلى باب غرفة بيكاس، حافياً، تنطبع أصابع قدميه في المسافة الرمادية المضحكة. ولما أدرك كرزو أنه لم يكن المقصود من فورة الأب، واتته شجاعة المتطفِّل فتبع الملاّ بحركات خفيفة حذرة.

دفع الملاّ الباب ودخل. نفض الثلج الرمادي عن قدميه بحركة عصبية قبل أن يطأ البساط: «ماذا يجري يا خاتي؟» قالها مُزِّبداً. ثم التفت على أنحاء الغرفة فانتاب صوته برود مفاجئ: «أين بيكاس؟».

حاول كرزو أن يتنصّت إلى ما يجري، من خلف الباب، فلم يسمع إلاَّ تمتمات خفيضة، يعقبها وجوم يمكن اشتمامه كرائحة حساء ساخن. وقد دار في خَلَده، الذي اختلط فيه نذيرٌ مما بالسخرية، أن

المسألة كلها فكاهة. ولمّا همَّ، مراراً، أن يتذكر تفاصيل وجه أخيه الغريب «بيكاس»، تأبَّت الصورة عليه. ألم يمعن النظر فيه؟ بلى. لكن المشهد يتماوج كأنما في ماء رمى أحدهم حجراً فيه. حتى الصوت تلاشت نبرته فبات مبهماً، في ذاكرته، خليطاً من صوت أبيه وصوته هو. أهكذا كانت نبرة صوت بيكاس حقاً؟ إنه يصغي إلى السكون في الداخل، فتزدحم أعماقه الساكنة كالغرفة برفيف أجنحة الزرازير، وطقطقات الفخاخ المعدنية، لذلك يكادُ يجاوز الباب بفضوله وتنصُّته، في محاولة للفصل بين سكون الداخل الصارم وأعماقه الصاخبة حتى يسمع شيئاً.

برينا، زوج بيناڤ وأم طفله الغريب، تستوي جالسة في فراشها. جفنان ثقيلان من نوم الليلة الماضية المتقطع، ومن أسئلتها التي لم تواجه بها أحداً. وكانت، كلما تفيق في الليل، ترى الملاّ منحنياً على دفاتره، ولفافته تحيط وجهَه بهالات من دخان عصبي كقدمي طفل تخبطان في الهواء. ولقد بقي على حاله حتى الصباح، والدفاتر بين يديه في حركة دائرية. لكنها تظن أن أحدها، وهو دفتر بغلاف أزرق اللون، كان المُفضّل لديه. إنها تعرفه من رجوع الملاّ إليه أبداً، وإذ سألته ذات مرة، من سنوات، عن محتواه، رد أنه يخص أباه حسين، ابن «كُوچري». ولما سألته، ثانية، عن جدوى التنقيب فيه، رفع رأسه في دَهَش، كأنما عليها أن تفهم. وهي لم تفهم المغزى، حتى الآن، بالطبع، من كل ذلك التنقيب. لكن الدفتر ظل يروح ويجيء، من يده إلى الصندوق الخشبي تحت سريره، ومن الصندوق إلى يده، في غناه وفي فقره سواء بسواء.

لم يخف عليها، بالطبع، أن الدفتر كان خاصاً بالفراسخ المزروعة قمحاً وبطيخاً في قرية موسيسانا، حيث التدوين يتم، هناك، بقلم «الكوبيا» الذي يُبَلَّلُ باللسان قبل الكتابة به. حسين كُوچري، والد زوجها، امتلك دفتراً، ذلك الوقت، لحصر محاصيله، التي يعيا أكثرهم جدارة في الحفظ عن حصرها. وكانت عائلة برينا تقطن القرية نفسها، قبل زواجها من الملاّ، وقبل أن ينتقلوا جميعاً، هم وأقرباؤهم، منها، إثر السنوات التي أعقبت «المَحْل الكبير»، حيث استعادت الأرض بعض نضارتها، لكن الاغواءات الخفية للمدينة، المقتصرة على سحر الكهرباء، ومدافئ المازوت، وشراء آلات حصاد يتولى الأرمنيون صيانتها، دفعتهم إلى الاتجاه إلى «القامشلي»، أكبر مدن الشمال، والتي تمتلك دور سينما أيضاً.

ولما لم يكن حسين كُوچري، والد الملاّ، يفقه كثيراً في كتابة الحسابات، فقد استعان بمعلم أرسلته وزارة التربية والتعليم إليهم، لأول مرة في تاريخ القرية. هذا ما تذكره برينا بوضوح. وقد قيل، آنذاك، إن ابن كُوچري يدفع بسخاء للمعلم، لقاء انكبابه على دفتر أزرق كبير، يبلغ طوله خطوتين، بعرض خطوة واحدة من خطى رجل طويل. وكان واضحاً أن أبا زوجها قد استهوته فكرة استئجار معلم، وشراء دفتر، أكثر من حساباته نفسها، فيستوضح المعلم، في المضافة عادة، وعلى مرأى من الرجال المتطفلين، عن محتويات هذه الصفحة أو تلك، كمن يمتحن معرفة صبيّ قاصر.

لقد ظل المعلم ذاك موفداً من قبل الوزارة إلى القرية سنتين، وهي مدة خدمة الأغرار في مجال التعليم في المناطق النائية من أقاليم

البلاد. وإذا نقضت المدة تلك، استقال الرجل من المهنة بإغواء من حسين، ابن كُوچري، ليستقر في القرية محاسباً، حتى اختفى، بعد ذلك بسنتين أيضاً.

كانت وزارة التربية والتعليم تستخدم من يتقدم بطلب، بعد إنهاء الدراسة الإعدادية، لهذه المهنة. تنفق، بنفسها، على تعليمهم سنتين، مع دفع مخصصات شهرية لهم، ثم تقتطع المبالغ تلك من أجورهم على مدى سنتين. أي أنهم يصبحون، حكماً، أقناناً لدى الحكومة حتى تستوفي ما لها عليهم. وهم أحرار في البقاء في مهنتهم تلك، بعد المدة المعلومة، أو المضي إلى أشغال أخرى. واسم «وزارة التربية والتعليم» ظل سائداً فترة طويلة، منذ استقلال سورية وحتى الستينات من التقويم الميلادي، ثم اختفت كلمة «التعليم» إثر اجتهاد المجتهدين في ظل الوحدة المصرية السورية، لأنهم ارتأوا أن مهمة البلاد تقوم على التربية فقط، وإن كلمة «التعليم» تتضمن بعداً من العبودية والقسر. وقد ضاع «التعليم» فعلاً، في تعاقب الحكومات بعد ذلك، وانحصرت التربية في تلقين الطاعة بأساليب شتى.

على كل حال، استرسل المعلم - ذي ربطة العنق الحمراء خريفاً وشتاء، والمنديل الأحمر البارز من جيب القميص، بشكل مثلث، ربيعاً وصيفاً - في ترتيب عالم حسين، ابن كُوچري، عبر سطور أفقية للإشارة إلى الأسماء والأمكنة، وسطور عمودية من أرقام مُنَضَّدة كَلَبِنَاتٍ في حائط. وبين تلك السطور، وهذه، ثغرات بيضاء يرى منها أبو الملاّ بيناف نهر قرية «عاكولة»، وهضبة «معيريكا»، وقبر «شمدين» في «موزان»، والحشود التي يهيئها عباس البدوي على تخوم قرى الأكراد.

كان للمعلم لغة خاصّة إضافة إلى لغة الحساب، يستخدمها بطلاقة، راكناً إلى احترام الرجال له. ورجال الشمال يحترمون المتعلمين، ذوي البناطيل بخاصَّة. وكانت كلمة «الجماعة» من الكلمات ذات السحر في الأسماع إذ ينطق بها. «الجماعة..».. «الجماعة»، ولم يكونوا يفهمون الكثير مما يقوله، لكن ذلك، تحديداً، كان سرّ إصغائهم، وافتتانهم به، وتنافسهم أيضاً في مدّه بالسمن والعسل، والبيض، والدجاج، مرسلينه مع أولادهم إلى البيت الذي أسكنه فيه حسين كُوچري.

مدى سنتين كان المجلس في بيت أبي الملاّ يلتئم كل مساء، والمعلم يتحدث عن الأرض، وتوزيعها، فيضحك المالكون من الخفَّة في ذلك الكلام، ويصغي غيرهم فيؤكدون عليه حتى يحتدم نقاش لا يخرج فيه أحد عن أدبه. ويتحدث عن النقابات فيصير الكلام غامضاً قليلاً، ثم يصير أشد غموضاً حين ينطق بكلمة «بلشفيك»، حتى لقد تصوّروا هؤلاء المدعوين «بلشفيك» كائنات تنبت كالحرشوف.

لقد صادق الرجال على كلامه عن العدل من ألفه إلى يائه، حتى المُلكية لم يكونوا ليختلفوا عليها كثيراً، مجروفين بنوع من السماحة كان لا يرى حتى الأغنياء معه ضيراً في أن يكون للكائن ما ينبغي أن يكون. وإذا استشعر المعلم طمأنينة من مجالسيه مدى ما يقارب العامين، صار ينادي أحدهم باسم «الرفيق». ضحكوا، أول مرة، إذ رأوا في الكلمة رنيناً من ظَرْف المعلم. ثم انقلبت الضحكة ابتسامة، حين صارت شائعة في كل نداء يوجهه الرجل ذو البنطال إليهم. ثم تفكروا فيها إذ زاد تردادها عن حدّه. وقد فاجأ أحد الجالسين المجلس كله،

ذات يوم، بالقول إنه سمع شيئاً ما من أولاده عن كلمة «الرفيق»، وإنها تخصُّ الجماعة التي لا تؤمن باللّه. إذ ذاك اتخذت الجلسات بين الرجال والمعلم منحىً آخر. ساد الدين بأسئلته فضاع المعلم في زحمة ردود لم ترضِ هؤلاء، ثم اختفى.

الدفتر الأزرق يموج أمام عيني برينا، ثم يعلو متساقطاً ورقةً ورقةً، فيمتلئ البيت، حتى لأنها تسمعُ بدل النبض في صدرها خشخشة باردةً، فيرتفع صوتها: «أما من أحد يرجع من تلك الغرفة اللعينة؟ بينااااف»، فيرد أحد أولادها المتلصصين من النافذة على الساحة: «والدنا وعمتنا راجعان».

يدخل الملاّ ومن خلفه أخته واجمين. تبقى خاتي واقفة بينما يجلس الملاّ كمنهار قرب الموقد، ثم يأخذ وجهه بين يديه في استغراق ذي رهبة. تنتقل الأم بنظراتها المتسائلة بين جسد زوجها المتكور ووجه أخته، فتغض خاتي ببصرها، حائرة بدورها.

تناهى صوت كرزو من الخارج صارخاً: «أين أخي؟»، وهو يضرب باب غرفة سينم بكرة من الثلج الرمادي. وكان الصبي الذي أمضى فترة وجود أبيه وعمته، في الداخل، متنصِّتاً، قد اشتد به الحنق من أجوبة البلهاء حول زوجها. يسألها الملاّ: «أين بيكاس؟» فترد: «بيكاس ديك». يعيد الرجل السؤال كاظماً غضبه وتعبه: «بيكاس ديك. نعرف ذلك. لكن أين الديك؟» في محاولة لمجاراتها، فترد ثانية: «خرج بيكاس»، فيتمتم الملاّ من تحت شاربيه: «خرج إلى أين؟» فتجيبه البلهاء: «هأهأ. خرج لابساً عباءتك»، وإذ يأخذ الملاّ رأسه بين يديه كمن يوشك على قتل أحد من ضيِّقه، تتدخل أخته خاتي سائلةً: «كوني

عاقلة يا سينم.. أين...» فيقاطعها أخوها بصرخة ترن طويلاً في ماسورة المدفأة: «عاقلة؟ ها؟ أنت مجنونة يا خاتي لتسألي هذه المجنونة. واللّه، لولا الحياء لوضعت رأسيكما في هذا اللهب». ثم يتمالك نفسه متمتماً، بالحنق ذاته: «منذ البارحة واللّه يلعب بنا كنعاج، بيكاس اختفى. بيكاس لم يكن موجوداً. قومي يا خاتي لنتدبر شيئاً لحل هذه المهزلة». وإذ يهمّان بالخروج يبتعد كرزو، بخفّة، إلى ركنه لصق السور، حيث فخاخه الباردة مطبقة على الهواء البارد.

لقد فاق حقده الصبياني حقد أبيه على البلهاء. «لماذا لم يخنقها بجديلتيها اللتين تشبهان ذيل الفأر؟ لماذا لم يَقرِّب خدها من صاج المدفأة حتى يسمع جدُّها، في قبره، نشيش لحمها؟. لماذا لم يلق بها عارية إلى الثلج، وقد شدّ إلى عنقها، كالبقرة، حبلاً؟ تكلّمي.. تكلّمي»، ولم يتمالك نفسه، فانقض على الباب بكرات من الثلج، صارخاً: «أين بيكاس؟».

سمعت الأم صوت ابنها فردّت عن نفسها الغطاء السميك، زاحفة إلى حيث زوجها المختفي خلف يديه: «أين بيكاس؟» تمتمت وقد علا نبضها. ولمّا لم يردّ الرجل، هزّته من كتفه في خشونة: «أين ابنك؟» فانتفض الملاّ واقفاً كسلطان في بلاط فارغ: «مات. هرب. ضاع»، كان يردِّد كل كلمة مرتين، على نحوٍ فيه الكثير من الشرح الأخرس. وإذ استعصت الكلمات، برنينها الآتي من سقف الغرفة، على برينا، التفتت صوب خاتي تستنجد بها لفكّ اللغز، فتمتمت المرأة الواقفة: «يبدو أن ابنك قد خرج الليلة الماضية. ولم يعد».

كانت المسألة أكبر من أي شرح حتى لو وقف بيكاس في الباب، فجأة، في ذلك الصباح الأحمق. «نعم» يهمس الملاّ، ويضيف: «صباح

أحمق يتلو صباحاً أحمق. سنبدو حمقى إذا استغفلنا الناس بقصتنا». ثم يلتفت إلى أخته: «اقصدي أخي مَهَّمَد، فليحضر الآن. سأحصر الحكاية بيننا، فلدي منفذ صغير للخروج من المهزلة كلها». وفي الحال ارتدت خاتي حذاءها البلاستيكي وجاوزت الباب، ثم أغلقته من خلفها مسرعةً فطقطقت عوارضه الخشبية. بعد ذلك علا صرير بوّابة السور، وكذلك صوت خطواتها العجلى في الثلج، كأنما تمضي في كل اتجاه، لا في اتجاه واحد.

كان الملاّ، وأولاده، وزوجه، جالسين حول الموقد حين دخل أخوه مَهَّمَد، والد سينم، وقد بوغت الرجل بهذا المشهد الواهن لأناس واهنين، حتى أنه لم يسمع رد التحية منهم. الصغار بدوا مذعورين، لا من فهمهم لوطأة المسألة، بل من رؤيتهم لهذا التهدّل الفجائي الصامت على وجهي أبويهم. أما الأبوان فبانا ممسوخين، ليِّنَيْنِ ككرات عجين يمكن دَحْوُها قبل إلصاقها بباطن التّنور.

تقدم مَهَّمَد، فأفسحت العائلة له، فجلس مثلهم. أخرج علبة تبغه فاستوقفه الملاّ مناولاً إياه علبته الفضية. وبعدما انتهى الرجل من عقد اللفافة وإشعالها، ألوى رأسه صوب أخيه الملاّ: «ما الأمر؟» بادر دون مقدمة. ولم يكن في حاجة إليها، على كل حال، فتنفس الملاّ عميقاً، ثم همس: «خاتي خذي الأولاد إلى الغرفة المجاورة»، فتقدمت خاتي، ذات الأرجل والأيدي الخفية الألف، آخذةً الأولاد كما تأخذ مكنسةَ الخرنوب الخشنة بعرَ النعاج في طريقها. وإذا اصطفق الباب من خلف الخارجين رفع الملاّ وجهه إلى السقف، قائلاً: «أخي. قصدتك البارحة سائلاً يد ابنتك لابني بيكاس، ولم تسألني كثيراً في

أمر طلبي الغريب، وأمر حكايتي الغريبة.. أليس كذلك؟» فهز أخوه رأسه موافقاً، فأكمل الملاّ من غير أن يرفع عينيه عن فضاء السقف: «ولا أريدك أن تسألني الكثير الآن، بل استمع إليّ». صمت قليلاً، ثم أحنى رأسه ناظراً إلى النافذة الزجاجية الصغيرة في صفيح الموقد: «اختفى بيكاس. آه. تعبت من شروح لا ترضيني ولا ترضي غيري. تعبت يا أخي. بيكاس اختفى. سننتظره بعض الوقت، فإن لم يظهر..» والتفت ليرى وجه أخيه فألفاه هادئاً تماماً، محدقاً مثله في اللهب عبر نافذة الموقد الصغيرة.

انتاب الملاّ غمّ من هدوء أخيه: «ألا يصدقني؟» قال في نفسه، «ولماذا يصدقني؟» أجاب. ثم استجمع أعماقه قائلاً: «المسألة.. يا أخي..» فقاطعه مَهْمَد: «فلنقل للآخرين أن الوليد قد مات..». «يا إلهي» همس الملاّ، ثم امسك بكتف أخيه، وقد استوى جالساً على ركبتيه: «هذا ما فكرت به. مات. نعم مات».

أطرق مَهْمَد قليلاً قبل أن يسأل أخاه: «لن ألحّ عليك، لكن ما الذي يجري؟»، فأفرغ الملاّ رئتيه من دخان لفافته عبر منخريه وفمه، مجيباً: «محنة. محنة». إذ ذاك مال مَهْمَد عليه جانبياً: «وماذا عن أولادك؟ إنهم يعرفون الحكاية، وكذلك خاتي»، فرد الملاّ بلهجة فيها بعض الجزم: «الأولاد أولاد، من سيصدقهم إذا رووا الحكاية؟ وأنا كفيل بصمت خاتي وبرينا».

لقد أسقطا سينم، امرأة بيكاس لنصف ليلة، من حسابهما، وكانا على حق. ستردد «ديك. ديك» إلى أن تمتلئ مسافة ذاكرتها الفارغة

بأعرافٍ حمراء رخوة، وبمناقير ترتفع وتنزل بحثاً عن نخالة ضائعة في أعماق البلهاء.

تمتمت برينا، التي كانت قد انسحبت إلى فراشها: «ألا ينبغي أن ننتظره حتى المساء؟» فالتفت إليها الرجلان من خلف منكبيهما، ثم عادا فنظر أحدهما إلى الآخر، قبل أن يجيبها الملاّ: «ولماذا ننتظر يا برينا؟ إذا عاد فسنختلق حكاية أخرى لوجوده بيننا. سنختلق حكاية معقولة في الأقل. أتصدقين كل ما جرى؟ لم نصدّق نحن بعد، فلنتحايل على هذه المحنة بحق اللّه علينا». ثم قام من مجلسه على نحو عصبي، واتجه إلى كوّة مربعة في الحائط، ذات ستارة، يحتفظون فيها عادة بمخدات إضافية. سحب واحدة صغيرة، وتناول غطاءً أبيض فلفّها: «مات. انظري. مات»، ورمى باللفافة قربها بتشنج. بعد ذلك نادى بصوت مشوب بعويل: «كرزو.. كرزوووو»، فتناهت خطى الصبي راكضاً من الغرفة المجاورة ذات الباب المطل على الساحة. فتح الباب على عجل، داخلاً بنصفه الأعلى فقط، بينما ظلت ساقاه خارجاً. نظر الملاّ إليه وكأنما لا يراه: «بلّغ جدك عَقْدي ساري إن وليدنا قد مات». فوجم الصبي متمتماً: «الوليد؟ أخي بيكاس؟».

أجفل الأب من نفسه. كانت كلماته تطرق صدغيه فيستيقظ: «مات؟» قالها في تساؤل وحيرة، ثم استدرك وقد أخذته عينا الصبي الدَّهشتان: «نعم مات. ولا تنسَ أن تعرّج على بيت «جَهَوَرْ» سارِي لتبلّغه أيضاً».

حين أغلق الصبي الباب خلفه في هدوء، كانت أمه تتلوى في فراشها وهي تئن باختناق. أسرع الرجلان إليها يستوضحانها فلم تستطع ردّاً.

أزاح الملاّ الغطاء عنها ليعاينها فاسترعته بقع دم طازج على ثيابها والفراش. كانت المرأة تنزف بغزارة. رد زوجها الغطاء عليها، وهرول خارجاً. دخل الغرفة المجاورة حيث أولاده وأخته، صائحاً: «خاتي. انظري إذا كان جارنا الآشوري مازال في البيت. فليوصل برينا بسيارته إلى المستشفى»، ثم خرج مهرولاً كما دخل، فلحقت به أخته: «ماذا بها؟». رد: «تنزف»، فأكملت خاتي طريقها قفزاً صوب بوابة السور.

دخل الآشوري إلى الغرفة بمنامته. لم يكن قد فهم كلمة من كلمات خاتي الكردية، لكن إشاراتها الفزعة أقلقته فتبعها. لفّ الرجال الثلاثة برينا بلحافها ثم نقلوها خارجاً إلى سيارة البيك آب. اسجوها على القاع الصفيحي البارد من الخلف، ثم صعدوا إلى مقدمتها محشورين بفعل عباءتي الزوج وأخيه السميكتين. أدار الآشوري المحرك لأكثر من عشر دقائق قبل أن يستجيب، من برده، فينطلق.

بعد ثانية، أو ثانيتين، من انطلاق السيارة أوقف الملاّ جاره السائق، محاولاً شرح أمر طارئ. أخرج رأسه من النافذة صائحاً: «خاتي»، فردت خاتي الواقفة في البوابة: «نعم». «اللّفافة البيضاء. المخدة التي غطيتها هي بيكاس الذي مات». رفعت خاتي يديها في تساؤل: «المخدّة؟ مات؟». لم تستوعب كلمات أخيها. وإذ رأى الملاّ تلك الحيرة حاول الشرح بإيجاز خشية أن يضيق جاره الآشوري بهذه المحاورة المتأخرة: «أختي. بيكاس مات، سيأتي عَقْدي وجَهْوَر للتشييع. قولي إن هذه اللفّافة هي جثة الطفل الوليد، سأشرح لك الأمر حين أرجع»، والتفت إلى جاره الذي لا يفهم شيئاً من لغته الكردية مومئاً كأنما يخبره أن الحوار انتهى.

انطلقت السيارة مسرعة بحكم الأمر الطارئ، لكن رأس الملاّ انبثق من نافذتها من جديد، ملتفتاً إلى أخته ليرى إن كانت قد فهمته، فرآها تومئ برأسها إيماءة غامضة.

هرول كرزو أول الأمر، متوجهاً إلى بيت جده عَقْدي ساري (ليس عَقْدي جده، لكنه يناديه جدي احتراماً لزوج أبيه)، ثم تباطأ بعدما قطع نصف العراء الأبيض في الجهة الشمالية من الحيِّ الغربي. وكان عليه أن يسير على خط منحن ليدخل الأزقة، التي تتجاوز فيها البيوت المتاخمة لذلك العراء الفسيح، ثم تتقطّع شمالاً فتبدو متناثرة، تحيط بها حقول الحَلبِّيِّينَ حتى أسلاك الحدود السورية التركية.

لم تبدُ العجلة عليه، بحسب طلب أبيه، بعدما جاوز نصف المسافة. الزرازير المتناثرة في ذلك البياض المخملي، مثنى مثنى، أخذت بعضه إلى حُلُم الفخاخ، وتوزعت بعضَهُ الآخر أفكارُه الصغيرة حول كلمات أبيه: «بيكاس مات». متى مات بيكاس؟ لقد سمع الحوار بين عمته وأبيه والبلهاء برّمته، فلم يذكر أحدهم كلمة «مات»، بل «خرج في الليل». «لماذا يكذب أبي؟» ردّدها في نفسه. ولم يجد مخرجاً لسؤاله سوى أن أباه يكره «بيكاس». «لكن، ماذا فعل بيكاس ليكرهه أبوه؟» سأل الصبي نفسه من جديد، متغافلاً، بقوة، عن المصير الأبكم لشخص لن يصدق حكاية وجوده أحد. وقد حاول أن يتذكر ملامح أخيه في عراء فكره المتصل بالعراء الثلجي، فاستعصى الأمر عليه. حركات الأخ الغريب، وحدها، حول الموقد، ملأت ناظريه: هدوؤه. إغضاضته. يداه الورديتان اللتان مدّهما لإخوته. إجفالةُ أخيه الصغير من مداعبات أخيه الأصغر الغريب. حديثه عن الصيد. إنه يحس

غرابةً ناعمة ذات دغدغة؛ غرابة كالرغبة التي تدفع بالزرازير إلى فخاخه غير المموَّهة أحياناً، وإذ يلتفت إلى الثلج الذي شرَدَ عنه قليلاً من حوله، يرى الطيور السوداء الكسولة مُعَسْكِرةً برفوف أكبر.

يكاد الصبي أن يضرب على صدره انتقاماً من أنه لم يجلب فخاخه. آه، ماذا لو كانت لديه فخاخٌ بحجم العراء كلّه؟ فخاخٌ في الثلج وأخرى في الهواء. سيحاصر الأجنحة، وسترتفع طقطقات المعدن الصّلب المنقضّ على الأعناق، أو الأرجل، أو المناقير. طيور ستتخبط على الثلج عاجزة عن تحرير جسومها، وطيور ستهوي من الأعلى مرفرفةً في ذعر، دون أن تطاوعها الأجنحة لترتفع.

حُمّى مجنّحة تستبد بالصبي فيفتح ذراعيه راكضاً باتجاه الطيور، شمالاً مرةً، ويميناً أخرى. وشاحه الصُّوفي، الذي غطى به رأسه ووجهه، يَنْسَلِتُ، ثم يسقط على الثلج. سترته المبطنة الطويلة، والفضفاضة جداً، ترفرف حواشيُّها كعَلَم من فوق جلبابه. حذاؤه البلاستيكي، السميك، يقصّر ما بين خطواته في ذلك الطيران الأرضي. إنه آتٍ بفخّ جسده؛ آتٍ بأعماقه التي تحمل آثار أرجل العصافير وبقايا أعشاشها المهجورة.

كان الدَّهشُ يعلوه كلما طار سرب حاول الاقتراب منه بذراعيه المفتوحتين. «لا»، تخرج الكلمة مُتْرَفَةً ببخار أنفاسه، «لا تطيري». إنه يودّ أن يكون أليفاً لا قنّاصاً، ولقد حاول طوال صيده لها أن يقول ذلك فأجفلت منه. تصيَّدها ليحاورها عن قرب، فأرخت أعناقها بين يديه ثم ماتت. إلامَ سيستعصي حواره الحنون عليها؟ إلامَ ستجفل منه

فيضطر إلى نصب الفخاخ لها؟ «انا كرزووووو»، أطلق الصرخة، تلك، مديدةً، لتتعرّف عليه فتستكين، لكنها كانت تطير.

بعد ساعة من ذلك الركض اللاّمُجدي، خرَّ «كرزو» راكعاً من التعب على ركبتيه، ناظراً إلى الفضاء حيث الزرازير البطيئة تعبر حقل يأسه المُحْكَم.

«كرزو. كرزو»، علا صوتٌ من مكمنٍ ما، فأصغى الصبي إلى أعماقه ليحدد مصدر الصوت. فكّر أن ما سمعه هو صدى صرخته في المملكة البيضاء الباردة على مدى بصره، لكن اسمه تكرّر ثانية، على بعد خطوات منه، فأجفل واقفاً.

كانت حَدَّبَةٌ من الثلج، تتقشر في بطء، وكائن ما ينتصب جالساً على ركبتيه كأنما كان ساجداً تحت الطبقة الثلجية. تراجع الصبي خطوتين ليحدّد ملامح الشكل الذي يراه، وقد غشى الذّعر عينيه بستار شفيف من بخاره الرمادي.

لم يبِنْ من وجه الكائن سوى عينيه وأنفه، أوّل الأمر، لكن القناع الثلجي تفتّت قليلاً قليلاً بفعل حركة فكّيه، وشفتيه، حين همهم، ثانية: «كرزو.. اقترب»، فاقترب الصبي محدقاً، ثم ندّ عنه ما يشبه الصرخة المكتومة: «بيكاس، بيكاس!!؟»، وجثا قرب أخيه.

رفع بيكاس يديه الرخوتين إلى وجهه فمسح عنه ما علق به من الثلج. وجهه كان رخواً أيضاً، أزرق وسط لحية لا لون لها. وقد ابتسم، أو خيّل للصبي أنه ابتسم، فتمالك نفسه قليلاً، سائلاً في همس: «ماذا تفعل هنا؟»، فرد بيكاس بصوت ذابل: «وأين ينبغي أن أكون؟». «في

البيت» أجاب الصبي. «ولماذا ينبغي أن أكون في البيت؟» بادره أخوه، فلم يجد كرزو، بعد التفاتة حيرى إلى البياض المديد، سوى جواب بسيط: «ألست برداناً؟»

كرزو بردان. أسنانه تصطك، بينما يخفي يديه تحت إبطيه ليدفئهما. بيكاس لا يحيد بعينيه الذابلتين عن وجه أخيه، كأنما ينتظر حكاية يحاول الصبي إخفاءها، لكن كرزو لا يتمكن من وصل الأمور بعضها ببعض، هذا كل ما في المسألة. وقد تذكر، فجاءةً، سبب وجوده هنا، فأطلق لسانه: «كنت قاصداً بيت عَقْدي ساري لأخبره أنك مُتَّ». وإذ همّ بيكاس برفع حاجبيه استنكاراً، أردف الصبي: «قال أبي أنك مُت»، ثم ابتسم كمن حلّ لغزاً: «سنعود إلى البيت. أنت لم تمت». وبعد برهة من الصمت علا وجهَهُ تساؤل ملح: «لماذا يكذب أبي يا بيكاس؟». فمدّ بيكاس يده إلى ركبة أخيه الجالس مربتاً عليها: «أبي لا يكذب يا كرزو، بعد قليل عليك إبلاغ جدي عَقْدي ساري بذلك. لا تنسَ»، فتقلصت شفتا الصبي الزرقاوان: «وماذا أُخبر عَقْدي؟»، فرد بيكاس: «مات. قل له: بيكاس مات»، فاحتدم صوت كرزو قليلاً: «أنت تكذب مثل أبي».

أحنى بيكاس رأسه، ثم رفعه من جديد. حدّق في أخيه مبتسماً، ثم همس: «أنظر»، وفتح العباءة المبطنة بالصوف - عباءة أبيه التي ارتداها ليلة زفافه - عن صدره، فارتفعت يدا الصبي، في اللحظة ذاتها، إلى وجهه ليحميه.

كانت عاصفة من الزرازير تنطلق من تحت عباءة بيكاس، فترتطم بالصبي الذي تكوّر على نفسه من المباغتة، وإذ هدأ رفيف الأجنحة

الصاخب فتح كرزو عينيه على مهل، فلم يجد بيكاس، بل رأى، عالياً، سرباً أسود يمضي في اتجاه الشمال.

اتكأت برينا على كتف زوجها وهو يمضي بها على معبر اسمنتي ضيق وسط أشجار باحة المستشفى، بينما ظل أخو زوجها على مقربة منهما، ليسند المرأة بدوره إذا احتاج الأمر. أما الآشوري فعاد على أدراجه بسيارته ليلحق بعمله في شركة تولَّت، حديثاً، التنقيب عن النفط في حقول منطقة «رميلان». لقد شكره الملاّ طويلاً، وأقنعه أن في استطاعته تدبُّر أمره للعودة بزوجه من المستشفى، لأن الآشوري ألح على البقاء في انتظارهم بتعاطف أكيد .

كان باب مبنى المستشفى العالي جداً نصف مفتوح، في ذلك الصباح، مما اضطر الرجلين إلى دفع إحدى دفتيه بقوة، فصرّ صريراً بارداً. وإذ دخلا، والمرأة تستند عليهما معاً، لم يجدا أحداً، بل تناهى إليهما صخب غريب كأن كلبين يتشاجران. تقدّما وكل منهما ينظر إلى جهة معاكسة، حيث غرف صغيرة متقابلة، ذات أبواب مفتوحة، مخصصة للحالات الطارئة: لا أحد. أصوات رجال وحيوانات تختلط في منعطف الرواق الذي تضيئه مصابيح لا تكفي ليتبين الماشون أقدامهم. رائحة اليود والبنسلين تختلط ببرودة تنبض نبضاً في الجدران. قوارير زجاجية تتهشم في المنعطف، والملا ينظر إلى أخيه في حيرة، لكنهما يتقدمان مطوّقين المرأة، كلٌّ بساعد، وحينما يجاوزان ذلك الرواق، ويصيران في مواجهة الرواق الآخر، المتعامد، يريان المشهد المُقَهِّقه: كلبان أغبران، ينهش أحدهما الآخر في ضراوة، وهما يرتطمان بمناضد صغيرة عليها زجاجات وعقاقير، فتتناثر. ممرضان شابان،

وممرضة ذات وجه مجدور، يحملون مكانس في أيديهم للفصل بين الحيوانين، بينما تكاد أصواتهم المختنقة المُحَشْرِجةُ أن تعلو الهرير والنباح.

يتجمد الملا وأخوه في مكانهما. من يناديان؟ يقيناً لن يلتفت أحد في هذا الموقف. «روح إبليس ترفرف على هذا المستشفى» تمتم الملاّ الذي لم يسمع نفسه وسط الصخب. رفع يده عالياً ليلفت نظر الممرضة، التي تراجعت قليلاً عن دائرة عراك الكلبين، فعلا صراخها في وجهه، وهي تهز المكنسة: «ألا ترى؟». لكن الحيوانين قطعا فورة الغضب التي كادت تستبد بالملاّ، إذ ركض أحدهما داخلاً إحدى الغرف، فلحق به الآخر. آنئذ اشتعلت الجدران بأنين الأسلاك الصدئة الصادرة عن الأسرَّة، وبالخطوات والأجساد العمياء للمرضى الذين تدافعوا خارجاً مُوَلْوِلِين. ولما أيقن الممرضان الشابان أن الغرفة خلت، أوصدا الباب، ورجعا وسط المرضى المتكئين على الجدران، أو المقرفصين من بردهم في الرواق، وهما يتمتمان: «اهدأوا. أقفلنا عليهما الباب. ألا ترون؟ سنتدبر الأمر، اهدأوا». ولما حاذيا الملاّ، الواقف مع أخيه وزوجه على مبعدة من ذلك الجمع المذعور، توقفا: «ما بها؟» سأله أحدهما، فحاول الرجل إيجاد كلمة مناسبة بالعربية لحال زوجه فاستعصت الكلمة عليه. أومأ برأسه مشيراً إلى المرأة بتعبير فيه توسّل، ثم انطلق لسانه بعد حركة عصبية من يده: «تعبانة». «تعبانة» كرر الممّرض الكلمة وهو يتفحص المرأة، ومضى إثر إشارة من يده مفادها «اتبعوني»، فتبعه الرجلان اللذان تستند إليهما برينا مستعجلين.

«ما الذي حاول أخي أن يقوله؟» تساءلت خاتي وهي ترى لحية الملاّ المهتزة خارج نافذة سيارة الآشوري. لم تجد سبباً لإيماءتها التي تدل على أنها فهمت ما يقول. لقد هزّت رأسها إيجاباً لتختصر المحاورة المختلطة بضجيج محرّك السيارة، لا غير. «مات؟» رددت الكلمة: «من مات؟» رددت على نفسها. سمعت من الملاّ شيئاً ما من هذا القبيل، إضافة إلى كلمة «مخدة»، فرددت كلمة «مخدة»؟ أيضاً، ثم تراجعت لتقفل بوابة السور من خلفها.

لم تُطق خاتي البقاء في البيت، بعد ليلة الهواجس الملأى بأطفال ذوي لحى، فأفاقت فجراً بدافع الفضول. وضعت حلّة من العدس المجروش على موقد الكيروسين، ثم انتظرت، بفارغ الصبر، أول طقطقة للغطاء بفعل البخار، وإذ سمعت الطقطقة والصفير أيقظت أولادها وزوجها بصوت حاد. دلقت العدس الساخن فوق قصعة كبيرة، ودفعت إليهم بالملاعق التوتياء: «كلوا. كلوا».

اقترب الأولاد والزوج زحفاً على مؤخراتهم من فوق الفُرُش المُمَدَّة على الأرض، وهم يدعكون أجفانهم بأيديهم. أحاطوا بالقصعة شبَه نيام، وفي آلية مضحكة باتوا يغرفون بالملاعق من ذلك الحساء الخَثِر. وإذ رأت خاتي أول ملعقة تغيب في باطن القصعة نهضت من فورها. وقبل أن تصير خارجاً علت همهمات الأولاد والزوج من خلفها، فالتفتت مستغربة: «ما بكم؟». فرددوا بصوت واحد: «لم ينضج العدس بعد»، ثم ارتخت أيديهم عن الملاعق فسقطت تباعاً على القصعة، محدثة رنيناً متناغماً.

رجعت خاتي بعض الخطوات حتى صارت في مواجهتهم، ناظرة من الأعلى إلى وجوههم المُحْبَطَة الناعسة: «أأنتم أفضل من الدجاج؟ الدجاج يأكل العدس نيئاً، وما تأكلونه مسلوق في الأقل. لا، هذا كثير. هذا كثير عليكم»، واستدارت، من جديد، لتخرج، فتناهى إليها صوت زوجها حشمو: «ستتكسر أسناننا»، فالتفتت غضبى: «اطحنها يا جاروش. اطحنها يا خصية القنفذ. ولا تحرّض الأولاد». قالت ذلك وأسرعت إلى الباب ففتحته، ثم انسلّت خارجاً. وبعد برهة فتح زوجها الباب من بعد ما أوصدته، منادياً في صوت خجول: «خاتي»، فتوقفت المرأة: «ها؟»، فهمس الرجل: «لا تقولي ذلك أمام الأولاد»، فرفعت خاتي حاجبيها: «ماذا؟»، فتمتم حشمو، ثانية: «لا تقولي: خصية القنفذ». تفرست المرأة فيه قليلاً بعينين مستهزئتين، قبل أن تهمس بدورها: «وأبوك، أيضاً، خصية قنفذ». فرد حشمو الباب مستسلماً، بينما مضت خاتي عجلى. وهاهي تجلس، الآن، قرب الموقد، ومن حولها أولاد أخيها الثلاثة، منتظرة عودة الملاّ ليقول لها بشكل أوضح ما يريده من «المخدة» ومن كلمة «مات». ثم تبتسم ابتسامة خفية: «لكم يشبه أخوها أباها في عاداته».

كان أبوها حسين، ابن كُوچري، ذو القرنين، لا يحلو له قول ما يريد قوله حقاً إلاَّ حين يصير بعيداً عن الشخص الذي يحادثه، وقد تسبب ذلك في الكثير من سوء الفهم بينه وبين الآخرين، والخصام بين وبين زوجه «كَوْليَزارْ». إنه لا ينهي المحادثة عن قرب. يبتعد، ثم يلتفت صارخاً ليشرح: «كيت.. كيت» فيضطر الأشخاص إلى الصراخ بدورهم: «نعم؟ ماذا؟ ها؟». وكانت زوجه تلقى النصيب الأكبر من هذا

اللاتكافؤ في السؤال وفي الإجابة. «لا تخضّي اللبن كثيراً، أريده مع زبدته» يقولها وهو على بعد مائة متر، متجهاً إلى مضافة عمه، فتضع زوجه يدها خلف أذنها لتلتقط الصوت، صارخة: «اللبن؟ ما به؟». وإذ لا تسمع توضيحاً تكمل عملها. وفي المساء يكاد يركل الوعاء من الغضب: «قلت كذا»، فترد المرأة: «لم أسمعك»، فيضيق: «لن تسمعيني قط. أنت لا تسمعين».

من أين جاء والدها بعادته تلك؟ إنها تذكر، بشكل ضبابي، بعضاً من عادات جدها حسن بن كُوچري، الملقب بـ «حُسُّو المَيْرْسِيْني» أيضاً. كان دائم الصراخ في أرضه الجديدة بـ «عامودا»، تلك الأرض التي أصابت شيئاً من العمران بعد نزوحه إليها من «شَاهْ بَسْنَهْ» ببلاد فارس. وكان حُسُّو الميرسيني غنياً جداً، لديه صفائح ملأى بالذهب الرَّشاديّ، مدفونة تحت أرض بيته، فاشترى نصف تلك الأرض «الميري» من «مأمورية الحسكة» التي باتت محافظة في ما بعد، وكان يتباهى بالورقة الكبيرة الممهورة بختم الحكومة، لكنه لم يبخل قط على جيرانه الذين يسكنون بيوتاً متنافرة على التخوم، إذ يراهم لا يصيبون رزقاً إلاَّ من صيد القطا.

في عامين - كما سمعت خاتي آنذاك - باتت السهول القفر تلك تتفجر حنطة وشعيراً. الحبة تعطي ألفاً، والكيس مائة، فتوافدت الناس، تباعاً، إلى المكان، غير أن الوفود الأكبر كان من أناس يسمونهم «المهاجرين»، ممن نزحوا من هضبات الأناضول، وأطراف روسيا الجنوبية. وقد جاءوا متعبين، وفي حال كبيرة من الإملاق، فاستخدمهم المزارعون كحصَّادين، ورُعاةٍ، وسُقاةِ ماشية. و«المهاجرون» أولئك،

وصلوا فجأة، بنسائهم وأطفالهم، وببقايا دواب هزيلة، إذ أكلوا معظم بغالهم في طريق الهجرة الطويلة. ولم يتمكن أهل المنطقة من تأمين الكفاية من الخبز التي كانت تقتضيها حال جوعهم، فأغار الجوعى على حقول الشعير، يفركون السنابل بين راحاتهم ثم يمضغون الحَبَّ في نهم، فتغاضى عنهم المضيفون شفقةً بهم، وكان ذلك سبباً في خراب نصف المزروعات، نتيجة المداهمة الفوضوية.

لقد نسي أهل المنطقة، بعد ذلك بوقت قصير، البلاء الذي امتحنوا به، بفعل اختلاط الوافدين بهم كعاملين لديهم، وبفعل تزاوج أبناء هؤلاء وبنات أولئك، اللواتي تميزن ببياض ناصع في البشرة، وشُقْرةٍ في الشَّعر، لكنهم ظلوا يتندرون بالمهاجرين طويلاً، مطلقين على كل من يسهو عن غرض من أعراضه، أو ينسى شيئاً، لقب «مهاجر»، إذ أن نساء المهاجرين، حين وفدوا، كُنَّ كثيرات النسيان من التعب، ومشقة السفر، فكانت إحداهن تُوَلْوِلُ فجأة: «أين متاعي»؟ ويكون متاعها، بالطبع، مربوطاً إلى ظهرها.

كان ازدهار منطقة «عامودا» ونواحيها، من قرية «الدرباسية» غرباً وحتى «موزان» شرقاً، و«قولو» جنوباً، مصدر حسد كبير للعرب البداة، الذين لم يعهدوا طفرة عمران وزراعة على هذا النحو، وهم الجوّالون بأغنامهم في المسافة ما بين «نهر العين» ونهر «عاكولة». فأوفد «آل مُسْلِطْ» رسلهم إلى حُسّو الميرسيني، طالبين اقتطاع مراع من أرضه، فأبى: «لديَّ ورقة ممهورة بختم الحكومة». وقبائل «مُسْلَط» لم تكن لترضى بجواب كهذا، فأعلنت الحرب على أكراد الشمال قاطبة، وعدَّت أن كل ما يملكه هؤلاء إنما هي أسلاب يجب تحصيلها.

ولهذا سُدَّت طُرُقٌ، وفُتِحَت أخرى، وتحاشت السهول السهولَ، حتى أن طيور القطا انقسمت رفوفها، بعضها على بعض، فما عادت أسراب الشمال تعبر جنوباً، ولا أسراب الجنوب شمالاً. وذهبت الحمية ببعض رجال الجانبين إلى درجة نقر الدفوف والصفائح ليمنع عبور الغيوم إلى أرض الآخر.

لقد ترسخ تقسيم ما للمنطقة الشمالية، فكان في ذلك بعض الأمان الضمني، فطُرُق الأكراد الجديدة باتت تمر من قرب الحدود التركية، أحياناً، أو داخل الحدود التركية في أحيان أخرى. فاتقوا بذلك كمائن البدو. كما لم يعد البدو إلى رعي أغنامهم قرب تخوم أرض الأكراد المزروعة حنطة وشعيراً، مخافة السموم التي كان يستخدمها المزارعون، (وكانت السموم أشبه بحبوب الحنطة تحدديأ، لكن لها لون الصدأ الذي يصيب النحاس) هذا من جهة، ومخافةَ «المراقيع» أسلحة من الصوف المجدول لقذف الحجارة، أتقن الأكراد استخدامها للصيد أوّلاً، ومن ثم لردع البدو. وكان في مقدور الحجر المقذوف من «مرقاع» أن يهشم جمجمةً كطاسٍ من الفخار. لكن ذلك التوازن في الخوف، الذي منح الجانبين أماناً ضمنياً، لم يدم طويلاً، إذ أفاق الأكراد، في صباحات كثيرة، على ماشيتهم ودوابهم المختنقة في حظائرها، وعلى أجزاء من السهول سُوِّي الزرع فيها بالأرض، كأنما مرّت عليها مداحل حجرية. ولم يكن صعباً على القيافين أن يعرفوا السبب: أقدام البدو الحافية كانت تترك آثارها.

إذ ذاك لجأ الأكراد إلى فخاخ الثعالب، ثم غسلوا فكاكها المسنّنة الصلبة بعصيدٍ من السموم، ونصبوها في كل مكان: على تخوم القمح

والشعير، وحول الحظائر. بل ابتعدوا بها، متسللين، إلى الطرق الترابية التي يسلكها البدو بأغنامهم. ولم يكن ليمرّ يوم إلاَّ ليجدوا جثة منتفخة هنا، أو هناك، بفعل السم، وقد كُسِرَتْ ساقها. وكانوا، بعض الليالي، يسمعون دوي الفخاخ المنصوبة قرب الحظائر، مصحوبة بأنين ساحق، فإذا أفاق الأطفال سائلين عن الأمر، أجابهم الكبار في صرامة: «ناموا، باض ابن آوى بيضته الأخيرة».

كان الفرنسيون، ذوو القبعات المدورة، قد بدأوا يفدون إلى البلاد. ومع مجيئهم انتقلت البنادق بكثرة إلى الأيدي، بعدما كانت عزيزة جداً، ولا يملكها إلاَّ الأقوياء المتنفذون، فإذا بآل مُسلِّط يحولون الأكراد إلى قنائص.

لقد فهم الفرنسيون، في الحال، واقع المنطقة، بعد إنشاء ثكنتين آنذاك، إحداهما في «القامشلي» التي صارت كبرى مدن الشمال، في ما بعد، والأخرى في «عامودا» التي صارت كبرى القرى، ومن ثم «ناحية» لها شوارعها المستقيمة المرصوفة، فبادروا إلى توزيع البنادق على البدو، الذين تميزوا بسذاجة مفرطة في أخلاقهم، فلم يكونوا ليأبهوا إلا لمن يعطيهم سلطاناً، فيبايعونه. أما الأكراد فكانوا متزمتين دينياً، ويرون في الفرنسي كافراً نجساً، يأكل لحم الخنزير، ويسفّه دينهم، فاستعصوا في التعامل عليهم. وقد نسي التاريخ، الذي رُوي بعدئذ، ماذا فعل حسين آغا الشاب، بتحريضٍ من أبيه، ضد تلك الثكنات المستحدثة، قبل أن تُسدد طلقةٌ واحدةٌ إلى الإفرنسيين بوقت طويل.

كانت وطأة البنادق وطأة صلبة على أكراد الشمال، فتوزعوا على قرى بعيدة، قبل أن يجدوا منفذاً إلى استيراد البنادق التركية، عبر

المهربين، فيحصّنوا الشمال كله. وهكذا توجّه حسو الميرسيني، بعائلته إلى أرض «قولو» ذات الهضبتين العاليتين، واستقرّ هناك، لكن البدو استهدوا إلى ممرات جنوبية، فوصلوا بدورهم إلى تلك الأرض، متخذين من قرية «مَحْجَرا» معسكراً لغاراتهم بقيادة أولاد مسلط، بيد أنهم لم يصيبوا ظفراً بعدما ملك «الميرسينيون» بنادق تصيب جبهات خيولهم، فاستعانوا بقبيلة عباس الجبوري، الملقب بالذئب، وقد رفض عباس الاشتراك في هذه الحرب أول الأمر، لكنه رضخ حين سرت وشوشات تتهمه بالجبن. ومن «محجرا» ذاتها، تلك القرية التي انتشرت حولها الخيام والخيول، شن عباس، الذي تولى قيادة البدو كلهم هناك، أعنف غارة شهدها الشمال.

تحصن الأكراد بأخاديد الأرض وجدران البيوت. أما البدو فكانوا يكرون على خيلهم مكشوفين، وإذ يتساقطون تباعاً يرجعون على أعقابهم ليعيدوا الكرّ. ولقد استُهْلِكَ من البصل ما يعادل نصف هضبة من هَضَبَتَيْ «قُوْلُو»، في تلك الغارة، إذ كانت النساء الكرديات يقطعنه بالسكاكين، ويوزعنه على الرماة، فيدلك هؤلاء بالبصل سبطانات بنادقهم الساخنة لتبترد سريعاً.

دامت الغارة يومين، حين سقط عباس الجبوري ذاته صريعاً على يد حسو الميرسيني، فتشتت البدو أيّما تشتت بعد مصرع الذئب، وقد سمح الأكراد لهم، إثر ذلك، بنقل جثته، فأخذوها باكين، ولم يرجعوا ثانية.

بعد ذلك بسنين انتقل حسين، ابن حسو الميرسيني، إلى قرية «موسيسانا». وكانوا يلقبونه بذي القرنين، لأن ذؤابتين تتدليان على

جبينه فتصلان حتى خديه، من تحت حطته المرقطة. و«خاتي» تتذكر رحيل أبيها حسين من «قولو» إلى القرية الجديدة على نحو تتداخل فيه صور كثيرة متنافرة، لصغر سنها آنذاك، لكن الصورة الواضحة التي لا تفارقها هي صورة مخدتها الصغيرة، ذات التطريز المحيّر لنقش يمثل حيواناً أشبه بالقط، له لحية حول فم مبتسم، وقد احتفظت خاتي بتلك المخدة حتى غدت صبية ناضجة، فنسخت ذلك النقش، بيديها، على مخدّة ثانية أهداها والدها إلى المعلم الذي كان ينادي الرجال بلقب «رفيق»، في قريتهم، ومن ثم اختفى المعلم، فاستعادت خاتي مخدتها، لكن عيني الحيوان في النقش كانتا قد تغيرتا.

قارنت أخت الملاّ ما بين التطريز على مخدتها الصغيرة، والأخرى التي أهداها والدها إلى المعلم فاحتارت. العينان هنا لا تتطابقان والعينين هناك. كانتا مستديرتين محدقتين على المخدة الأولى، لكنهما، على المخدة الثانية، يشوبهما حَوَلٌ واضح. وخاتي لا تذكر أنها أخطأت النسخ قطّ، كما أنها تتشاءم من كل أَحْوَل، وليس في وارد يديها أن ترتكبا هذا الخطأ الفاضح.

لقد ظنت، في ما مضى، وهي في حوالى العاشرة، أن حَوَلاً أصابها على حين غرة، وكان جدّها حُسّو يصافح جدها، من جهة أمها، مصافحة طويلة دامت ساعة وسط رجال يحدقون في فضول. وكان في ملامح الرجلين الكهلين ما ينبئ بتحدٍّ ما، خفيت أسبابه عليها، فاقتربت ممسكة بجلبابيهما بيديها الصغيرتين، ناظرة إلى وجهيهما العاليين في قلق، وقد فوجئت بقطرات من الدم تطفر من تحت أظافرهما لشدة ضغط اليد على اليد، حتى أن قطرة ساخنة سقطت

على جبهتها، فانتاب عينيها ما يشبه الزّغل من الصّدمة، فصرخت: «عيناي.. عيناي».. إذ ذاك انفصل الرجلان وقد انحنيا عليها - وكانا يحبانها كثيراً - سائلين عن الذي ألمّ بها، فازداد صراخها: «أصبحت حولاء». آنئذٍ حلّ المرح محل الصرامة بينهما، فابتسما، ثم ضحكا وهما ينظران إلى عينيها، ويتجاذبانها ليحتضناها، هامِسَيْن بالتناوب: «كذابة صغيرة.. كذابة».

ترى ما الذي عناه الملاّ بكلمة «مخدة»؟ تحدّق «خاتي» في لهب المدفأة شاردة قليلاً قبل أن يرتطم بها أحد أولاد أخيها اللاهين من حولها، فتدفعه بيديها بعيداً عنها. فيغضب الولد من حركة عمته فيقذفها بالمخدة الملفوفة بالملاءة البيضاء، فترد خاتي المخدة إليه في قذف قوي، بدورها. بعدئذ، يتناهشانها معاً، كلٌّ يحاول ضرب الآخر بها. وقد راق العراك الدائر بين العمة وابن أخيها للولدين الآخرين، فتدخلا في شكلٍ مرحٍ وصاخب، حتى غدا ما يجري نوعاً من اللهو، لا عراكاً.

وتحت وطأة الأيدي الثماني انحل غطاء المخدة أولاً، ثم انفرطت عُقَدُ الخيوط فاندلق الريش من كل لون وجنس: أبيض، ومرقط، وأسود، ورمادي، وأحمر باهت، وبنفسجي، وزيتي. هذه الريشة تخص ديك العيد، وتلك تخص دجاجة حفل تطهير «زيوان».هذه لقطاة، وتلك لحجل. هذه المرقطة لديك حبشي، وتلك لإوزة مسعورة. ريش. ريش. كان بعضه يتساقط على سطح المدفأة فَيَنِشُّ نشيشاً خافتاً، ثم يسودّ ويتقلص، ليحترق بعدئذ، مرسلاً دخاناً ذا رائحة خاصة، والبعض الآخر يعلق بشعر الأولاد، وغطاء رأس خاتي الخشن، فيبدون، جميعاً، كدجاجات هاربات من قنٍّ داهمه جُرذ ضلَّ طريقه.

بحث كرزو عن وشاحه، الذي سقط أثناء الركض، فعثر عليه. كان نصفه مدفوناً في الثلج بعدما وطأه هو بنفسه. رفعه، ثم نفض عنه الثلج، قبل أن يلف به رقبته، والجزء الأسفل من وجهه حتى ما فوق الأنف، اتقاءً من اللفحة الباردة، وأكمل سيره على خط منحنٍ، جنوباً، في اتجاه أزقة الحي الغربي، لكنه كان يتوقف عند كل حدبة صغيرة من الأرض البيضاء، متوقعاً أن ينهض بيكاس من تحتها ثانية. يتفحصها في مشيه، وهو ملتفت إلى الوراء حيناً، وإلى الجهات كلها معظم ما تبقى من أحيانه الأخرى. غير أنه، حين احتوته الأزقة لم يعد يهمه إن كان بيكاس حياً، أم ميتاً. فالصِّبْيَة الذين أفاقوا مثله مبكرين، رفعوا، في الأزقة تلك، أعماقهم الصغيرة، عارية، تحت خوذة الصباح البيضاء، مشتغلين على أبراج واطئة هنا، وأبراج هناك، يهدمونها تارة، ويُعْلُونَ أسوارها تارة أخرى. الأيدي المزرّقة تكّور الثلج وترمي به، والأجساد الضئيلة الغارقة في ثياب سميكة فضفاضة - يرثها الأصغر سناً، عادةً، عن الأكبر سناً حين تضيق عليه - تتصادم. وهم يعمدون إلى التصادم إذا أخطأت كرة أحدهم وجه الآخر، كأنما الجسد امتداد للكرة الثلجية، ينقذف معها، ويرتد حين تصيب. والأكثر خسارة، في تلك المواجهات التي لا قانون فيها، من يسقط أرضاً. كثيرون سينقضون عليه في محاولة لدفنه. سيحشون فمه وعينيه أولاً، وأذنيه ثانياً، ومن ثم يهيلون عليه الثلج حتى يغدو شبحاً خارجاً من ظلال مرحهم المهشمة.

لقد وجد كرزو نفسه، فجاءةً، في الحلبة بكل ملهاتها، ولما لم يكن قادراً عليه تجنب المتواجهين - والتجنب سيجر اتفاق الصبية المتخاصمين، كلهم عليه في هذه الحال - فقد انخرط في اللعبة بشكل

عشوائي: يقذف بالثلج كل من يصادفه. يرد هذا حيناً، ويرد ذاك حيناً، فيبادله الفريقان حمايةً بحماية. ومع كل هذا التدبير الغريزي، فقد نال من اللطمات، والكرات، ما فيه الكفاية، ودون أن يتميزه أحد من الجانبين، أو يعيره اهتماماً خاصاً، سواء أأبلى مع أحدهم، أم ضده. وقد تحايل، والصبية في كرٍّ وفرٍّ، فابتعد عن الحلقة قليلاً قليلاً، حتى صار على مبعدة يقدر منها أن يولّي، فانتبه اللاعبون إليه، فنادوا عليه، ولما لم يستجب، ركضوا، جميعاً، في أثره، غير أنهم لم يدركوه، فتوقفوا، ومن ثم نسوه، عائدين إلى ممالكهم التي تضيق في لحظة، وتتسع في أخرى.

الملاّ وأخوه يراقبان وجه الطبيب الذي يشبه سريراً من أسرة المستشفى، فارغاً منبسطاً، لا تعثر العين فيه إلا على تجاعيد صغيرة في الملاءة، كأنما جلس أحدهم عليه لبرهة ثم مضى. يده تجس رسغ المرأة، ومن ثم وريدها. يهمس بأسماء غريبة إلى الممرض الشاب فيغيب لحظة، ويرجع حاملاً زجاجة صغيرة بيضاء، وحبتين خضراوين ملفوفتين بقطعة من القطن. يحقن المرأة في وريدها، بما في الزجاجة أولاً. ويناولها، بعدئذ الحبتين مع كأس من الماء. يتناول الطبيب دفتراً من جيبه، ويكتب فيه بحروف شيطانية بقية ما ينبغي على العائلة أن تعانيه، ويدفع بها إلى الممرض الذي يدفع بها، بدوره، إلى الملا.

يتجه الطبيب إلى الباب ويخرج. يلتفت الممرض إلى المرأة: «ستكون في خير. فلتتبع إرشادات الصيدلي التي سيكتبها على الأدوية الموجودة في الورقة. خذاها إلى البيت». ولما وجد بعض الحيرة

والارتباك في وجهي الأخوين، سأل: «أبيتكم بعيد؟» فأجابه مهمد: «نعم». رفع الممرض بصره إلى السقف متبرماً، كأنما عانى الكثير من ذلك مع الوافدين إلى المستشفى، ثم هزّ برأسه قَليلاً، وأشار إليهما: «انقلاها حتى الباب الخارجي، ولتأخذكم سيارة الطوارئ من هناك»، فسارع الرجلان يحيطان بالمرأة وينقلانها خارجاً. ومن هناك أخذتهم سيارة الطوارئ، بتوصية من المّمرض، معرّجة على الصيدلية الوحيدة أولاً، ومن ثم إلى الحي الغربي.

حين دخل الرجلان، وهما يسندان برينا، إلى الغرفة، كانت خاتي وأولاد أخيها يجمعون الريش المتناثر، وقد توقفوا لبرهة من المباغتة، ثم انكبوا بدأب على عملهم، متلافين أن تلتقي عيونهم بعيون الداخلين الطافحة بالتساؤل المستنكر. وبعدما تمدّدت المرأة على فراشها ذاته، وغطاها الزوج بلحاف سميك، وقف إلى جانب أخيه الذي عقد يديه خلف ظهره، سائلاً: «ما الذي يجري هنا؟»، فأتته الإجابة من ابنه الأصغر: «ضربتني عمتي بالمخدّة»، فعاجله أبوه بصوت غاضب: «وضربت عمتك بالمخدة، بالطبع، ثم أكلتموها، وتركتم لنا الريش»، والتفت إلى أخته حانقاً: «ينقصك، واللّه، أن تنصبي الفخاخ، طوال النهار، مثل كرزو، على باب قن الدجاج إذا لم تجدي ما تتصيّدينه. ها؟»، واستدرك فسألها: «أين كرزو؟ ألم يحضر عَقْدي ساري وجهور بعد؟» فوجدت خاتي في سؤال أخيها فرصة لصرف نظره عن الريش: «كرزو؟ ومن يعتمد على كرزو؟ أرّجح أنه مضى خلف زرزور إلى «نصيبين» لا إلى بيت عَقْدي..»، فقاطعها الملا: «أتظنين أن في الإمكان الاعتماد عليك؟ هاتي مخدة ثانية بحق اللّه، ولفيها، الم أقل إنها

بيكاس؟ الحمد لله على تأخر كرزو، وإلا لوجد عَقدي وجهور ريشاً بدلاً من الجثة»، فبوغتت خاتي، سائلة: «أية جثة؟»، فردّ الملاّ، رافعاً يديه كالموّبخ: «جثتك»، فتدخل مَهْمَد، عندئذ، بصوته الهادئ، مدركاً أن شيئاً ما قد فات أخته: «ألم تسمعي ما قاله الملاّ حين خرجنا؟» فردت الأخت: «كان ضجيج السيارة..»، فقاطعها الرجل بإشارة من يده: «لا بأس. سنعلن أن بيكاس قد مات ياأختي.. بيكاس هو المخدة التي ستلّفينها لتبدو كجثة طفل. بيكاس مات. لا حول ولا قوة..» وسكت بغتةً، مأخوذاً بالحيرة في عيون أولاد أخيه المصغين في فضول صارخ، فالتفت إلى الملاّ محدقاً في عينيه، كأنما يسأله لماذا سَهَوَا عن وجود هؤلاء، وكيف يتعين عليهما أن يقنعاهم؟

برينا كانت تصغي أيضاً، متمددة مغمضة العينين على ألم تراه في الظلام، متدافعاً حلقة حلقة، كدخان لفافة، أسفل أحشائها. «لماذا لا يستشيرونني؟» تسأل نفسها: «إنه ابني، وابني لم يمت. فليبحثوا عنه قليلاً. بحق الله فليبحثوا عنه». قبل سنين اختفى المعلم الذي اشتغل محاسباً لدى والد زوجها، ولم يسأل أحد عنه. رأت بقعة من الدم على ملاءة سرير من أسرّة المستشفى فتذكرت ربطة عنق المعلم ذي الشارين الرقيقين، والشعر المقصوص الملتمع. وكان الرجل إذا مرّ ببيتهم ترى برينا في عيني أمها ما يشبه التوسل ليقف سائلاً أيّ شيء، لكنه يسلّم تسليماً خافتاً ويكمل مسيره. «من لم يعجب بالمعلم، على كل حال؟». تردّد برينا في نفسها، غير أن الملاّ كان آخر شخص تفكر به برينا في أن امرأة ما قد تعجب به. لماذا تقارن بينهما الآن؟ إنها معجبة بزوجها، برغم الفارق في السن بينها وبينه، وقد اعتقدت أن هذا

الإعجاب سيترسّخ أكثر إذا أنجبت طفلاً تزاحم به أطفاله من زوجه الأخرى. ستتباهى به، سيشبه الملا بأنفه المحدّب قليلاً: هذا ما كانت تقوله لزوجها متفكهّةً. أما الآن، فها هي تسمع إعلان نعي ابنها، ولا تدري أتحزن من الأمر، أم ترى فيه مخرجاً؟. لكنها غاضبة قليلاً، لأن أحداً لم يستشرها. وترن كلمة «ابني» طويلاً في صدغيها، من الداخل، مشوبة بطعم حامض تحت لسانها. أكانت تلك المحنة، التي تدعى «بيكاس»، ابناً؟ زوجها على حق في هذا المخرج لمسألة لن تستطيع شرحها: زوجها على حق في توفير نظرات الناس التي ستذيبها، فيما لو بقي ذلك الـ«بيكاس» الذي لم تلد مثله امرأة. غير أنها حين تستعيد شبح ابنها، تكاد تصرخ: «ولم لا؟.. أنجبت رجلاً دفعةً واحدة».

على كل حال، لم يكن بيكاس على صورة ابن، تحديداً، بالنسبة لبرينا. تستثير أعماقها فلا تقع على أمومة ساخنة، بل على إعجاب ما، رقيق غريب. كانت تغمض عينيها في الساعة الأولى لولادته. فالطفل الذي جاورها بات شكلاً من أشكال الحمى، آنذاك. وكانت خائفة حتى من النظر إليه. فراشها يتمدد ويتقلص. قدماها تلتصقان بشيء بارد فتسحبهما، متكوّرة كقربة لبن صغيرة، تارة، وفي أخرى ترى نفسها ضائعة في مساحة الفراش الذي يغدو كسهل واسع، لين جداً، تتوزعه منحدرات تمسك بأنفاسها. يدا الوليد تتسلقان أعماقها. شَعَّر ينمو في ثلجٍ تحت يدها، والكلمات الأولى للكائن الذي أنجبته تهتز اهتزازات تخلع الأحشاء من جذور جذورها: «مرحباً أمي».

لم يكن الأمر حلماً لتفتح عينيها فتبدّده، ولذلك آثرت أن تغمضهما طويلاً. صمتتْ ملجومةً باستسلام، غير عابئة بالصرخات

المكتومة لأخت الملاّ وهي تتراجع زحفاً، وكان وليدها يزحف بدوره، خارجاً من تحت الغطاء، باتجاه عمته: «اهدأي»، فتنهار خاتي تماماً.

«لقد أنجبتُ رجلاً دفعة واحدة» تكرر برينا في ظلام ألمها. والملاّ حائر. لم يحضر أحد بعد. ملهاة التشييع تكاد تنتهي قبل أن تبدأ. إنه في حاجة إلى وجوه تتكلف بعض الأسى لئلا ينفجر بالقهقهة، أو بالشتائم فيخرج عن وقاره. إن أساه الراهن هو أسى الباحث عن مخرج من ورطة. ليس حزيناً على بيكاس الغائب. ليس حزيناً على المخدة التي ستكون بيكاس. لكن برينا.. ويلتفت إلى زوجه كأنما يعتذر. فالملاّ لم يفكر قط أن للمحنة حضوراً ما في وجهها. لقد ظن، طوال الوقت، أن ما يراه من إعياء وألم هما محض ما ينتاب امرأة عقب الولادة. كيف عنّ له ذلك؟ حسبه النظر إليها بعينين منكسرتين، فتبادله النظر بانكسار أشدّ.

أولاد الملاّ منهمكون في بحث عابث عن نتف الريش في ثنايا البساط. ومن خلف ظهري الرجلين الجالسين بإطراق يمدون ألسنتهم سخراً من خاتي. تراهم برينا فتكاد تبتسم.

لطالما أحبت برينا صغيرهم. ظريف في أكاذيبه التي لا تنتهي، ولا ينفك يلازمها مذ دخلت بيت الملاّ، كأنها أمه. ولم يكن حذراً منها حذر الثلاثة الآخرين. لقد سألها، في اليوم الأول لمجيئها، أن تروي له حكاية البقرة التي أكلت قرية «تُوِّبزْ»، ولما لم تكن تعرف شيئاً عن بقرة التهمت قرية، أوهمتْهُ أنها تحاول التذكر: «البقرة.. هـ. هـ»، فكان الصغير يسبقها، راوياً لها ما ينبغي أن ترويه له. وفي كل مرة يتوقف فيها، توهمه من جديد: و«ولما أكلت البيوت.. هـ. هـ.»، فيعود الصغير إلى

السرد، كأنما هو في عجلة من استعراض معرفته، ولما استكملت الحكاية منه صارت ترويها كل يوم، بالتفاصيل ذاتها، وبنبرات الصوت ذاتها التي ترتفع، وتنخفض، بحسب جسامة الأحداث، أو اقتراب وقوعها: بقرة البقرات أكلت القرية بيتاً بيتاً، فانتفخت حتى صارت في حجم هضبة «موزان».

تمد خاتي عنقها صوب النافذة: «هنالك أحد ما في الخارج». عينا الملاّ تبحثان، بغتة، عن المخدة، وإذ يراها ملفوفة ينهض مسرعاً ليمدّدها أسفل فراش زوجه برينا، هامساً: «خاتي. خذي الأولاد إلى الغرفة الأخرى». وقبل أن تخرج أخته بأولاده تعلو طرقات خفيفة على الباب. تفتح خاتي الباب وتتنحّى جانباً فيدخل عَقدي من وخلفه جَهْوَرْ. ثمت آخرون في الباب أيضاً، فتسارع أخت الملا إلى دفع الأولاد خارجاً، ليتسنى لهم الدخول. أولاد عَقدي وجهور، وزوجاهما، وبعضٌ ممن استدركت النساء فنادينهم من وراء أسوار بيوتهم، حضروا أيضاً. وكان يُسمع، في الخارج، أصوات أطفال تبعوا الكبار بدورهم.

ضاقت الغرفة بالحشد الواقف، فارتأى الملاّ، بعد ردود سريعة على التحيات والتعازي، أن ينتقل بالرجال إلى المضافة، وقد انسلوا تباعاً وسط الثلج الذي لم يزل رمادياً، إلى الغرفة التي شهدت زواج بيكاس.

تكلف الرجال مراسيم احترام صارم في الباب: «تفضل. لا. تفضل أنت. أنت. لا ...»، ودخل عَقدي أولاً، ثم تبعه الملاّ، الذي ارتفع قلبه إلى عينيه فصارتا تنبضان نبضاً مؤلماً: كانت سينم ما تزال جالسة قرب

الموقد الذي ينبعث من صفيحه وهج بارد، إذ كان قد انطفأ منذ زمن، على الأرجح، مادة يديها وقدميها في اتجاهه، كمن يتدفأ.

صورة من الرعب المنسي أوقفت الملاّ في الباب للحظات، ثم استدرك فتنحّى ليدخل الآخرون، سائلاً وهو يخفي رعشة صوته: «ماذا تفعلين هنا يا سينم؟»، فنظرت البلهاء المبتسمة إليه نظرة توهّمها الملاّ سخرية من لعبته كلها، فأشاح بوجهه متشاغلاً: «تفضلوا. تفضلوا»، وأردف دون أن يلتفت: «هيا يا سينم إلى غرفة الأولاد». وإذ مرت به من خلف ظهره أحسها محدثة إلى أعماقه، والقهقهة تتطاول حتى ليكاد الثلج كله أن يتسلق فضاء روحه بخطاطيف من حفيف ثوبها. «هيا» كررها ثانية في دفاعه الخفي عن حاضره، ثم ارتفع صوته، ثالثةً: «هيا» بنبرة صارخة، لكن سينم كانت قد توارت، مما حدا بالرجال إلى التمعن فيه ببعض التساؤل.

كان كرزو واقفاً كحارس أمام باب غرفة أمه، يرد الأولاد الذين تبعوا أمهاتهم. وبين الحين والآخر يتناول كرة من الثلج ويقذفهم بها، فيدب فيهم هرجٌ صاخب. ولما التقت عيناه بعيني البلهاء القادمة في اتجاهه، حدّق كل منهما ملياً في الآخر. كانت سينم مشدودة إلى حركاته فتقذف بالهأهأة من فمها على دفعات، وكان كرزو يزنها بقدر هائل من حقد صبي يرى فيها سخرية من أمر لم يجده إلاّ طريفاً في جدّيته، وكان حرياً بالأمر ذاك، إذا استمر، أن ينخرط كرزو فيه بكل أعماقه. فبيكاس هو محض لعبة، محض سؤال مرح؛ محض فضول طفولي منبعث من أعماقه وأعماق إخوته. وإذ رأى البلهاء واقفة على حالها رماها بكرة كبيرة من الثلج ممزوجة بالطين، صارخاً بالأولاد

الواقفين في الساحة: «هيا»، مشيراً بيده إلى الطريدة التي ارتفعت قهقهتها وهي تمسح عن جبينها وكتفها بقايا الكرة. حينذاك ركضت سينم من جهة إلى أخرى، والأولاد يلحقون بها. دارت مراراً حول شجيرة الزيتون الوحيدة. دخلت غرفة التنور وخرجت. التجأت إلى الزوايا الأربع للسور. اصطدمت بولد هنا، وبولد هناك. قذفتهم بمثل ما يقذفونها به. ولولت قليلاً، وقهقهت كثيراً. كانت تكتئب إذ تُحاصر، ويعاودها المرح حين تنجو. وأخيراً دخلت الزريبة. احتمت بالخراف المذعورة، لكن المطاردين أحاطوا بها، فانطوت على نفسها في إحدى الزوايا وهي تحمي رأسها بيديها. ضربها الأولاد بكراتهم حتى تعبوا، ومن ثم انفضوا من حولها راجعين إلى مكانهم في الساحة، كأنما غالبهم بعض الإشفاق عليها. حين ذاك باغتها كرزو، مستفرداً بها كمن يتهيأ لسلخ الطريدة.

كان رأس البلهاء، من شدّة تكورّها، قد اختفى بين فخذيها، فأراد كرزو أن يرفع وجهها إليه قليلاً ليعاجلها بكرته، لكنها لم تتزحزح، كأنما تحجرت في الزاوية، فباغتها: «رأيت بيكاس» على أمل أن تتحرك، فإذا بها تتحرك حقاً، وسط كومة الثلج المسوّد ممّا علق به من التبن والروث. كم رماها الأولاد بكل شيء، بالثلج وبغيره، حتى كادت تختفي في الركام. وإذ فتحت عينيها ناظرة إلى كرزو، الذي توقع أن تستفسر منه عما رأى، بادرته: «أنا جوعانة»، بابتسامة عابقة بالتوسل، فانقض عليها الصبي، دافعاً بكرته الثلجية في فمها: «كُلي هذا». ثم انحنى يجمع كرة ثانية مما تقع عليه يداه من الروث والطين، فباغته صوت من باب الزريبة: «كفى أيها الحيوان».

كانت خاتي قد رأت من النافذة آخر فصل من مطاردة البلهاء، فخرجت على عجل. وهاهي تتدارك الأمر بالكثير من الشفقة المُرَّة وبإحساس عارم بالذنب: «كيف نسيناها طوال هذا الوقت؟». وقد انحنت على سينم فنفضت عنها ما علق بها، ثم أخذت بيدها خارجة من الزريبة، مُلقية إلى كرزو نظرة وعيد كصاعقة: «يا سليل الشيطان». فلم يُرد الصبي أن تمر المسألة هكذا. وبإحساس غامض يدفع به إلى إثارة فجيعةٍ، أو كسر جليد اللعبة التي أحكمت العائلة نسجها، صرخ من خلف عمته: «رأيت بيكاس»، فبوغتت خاتي قليلاً. توقفت دون أن تلتفت، كأنما تبعد شبحاً يجرُّها إلى الحمى، ثم أسرعت الخطا نحو باب غرفة الأم وهي تدفع البلهاء أمامها دفعاً. فتحت الباب وتوارت في الداخل كهارب.

لم يتساءل أحد من الرجال عن وجود تلك البلهاء في غرفة المضافة. كانوا يُبدون القليل من الهمّ جبراً بخاطر الملاّ، ولكنهم يتوزّعون أحاديث شتى بينهم. من يأسى، على كل حال، لفقد وليد عمره يوم، أو أكثر بقليل؟ هذا هو المرعيُّ عادة، ولربما استكثروا، في نفوسهم، على الملاّ إطراقه وهمّه. يُعَوَّض. الأطفال يُعوَّضون. «ستكون لك، بعون الله، ذرية كبيرة» يقولون للملاّ، فيرفع رأسه ملمحاً بابتسامة ممتنةً. لكن الأكثر إغراقاً في عزلته كان «مهمد» والد سينم، فلقد آساه أن يرى ابنته تمر به بهأهأة خارجة لا من فمها، بل من مدى وحشته وعُريه. كانت غريبة في رقعة لم يكن حرياً بها أن تكون غريبة فيها. عروس أُعفيتْ من بَرَكَة عُرسِها. هِبَةٌ من ظلام، عذراء كمحنةٍ. لن يعرف أحد لماذا كانت هناك، فاردة أمام الصفيح البارد مشاغل

عمرها الهيِّنة كلفافة في فمٍ نهمٍ. «مهمد ... لماذا لم تأخذها بيدها إلى الغرفة الأخرى كما يليق بأب أن يبجّل ابنته العروس؟» يسأل الرجل نفسه، ومن ثم يواسيها: «ما همّ.. هذا بيت أخي. بيتها»، ويشعل لفافة من جمرة أخرى، كأنما لم يقتنع بما قدَّم من عذر. «لا. كم كانت وحيدة مهملة» همهم في أعماقه. لقد تتبعها بعينيه، إذ تخلف عن صف الرجال ليكون آخر الداخلين، فتتبَّعَ انكساره هو، تلوَ خطاها. وكان آخر ما رآه، قبل أن يدلف إلى الغرفة، تلك الكسرة الثلجية الممتزجة بالطين تتهشم على رأسها الذي ارتد إلى الوراء من الصدمة، فارتد رأسه، بدوره، إلى الوراء. نثار بارد غطى رئتيه، وشظايا انحدرت مع الدم إلى بُطَيِّن ما من قلبه. لم يعد يرى الأولاد المتحلقين أمام باب الغرفة الأخرى إلاَّ بنات آوى تتناهش رأس كرزو. آه كرزو. الغرفة تنهار. حقول تنبسط، ورجال ينهالون بخيزرانات طويلة، من فوق ظهور الجياد، على كل شيء. ورق نباتات اليقطين المتناثر يختلط بأنينِ الحيوانات السارقة في فجرٍ ما. «اضرب.. اضرب بالخيزرانة بين العينين. اضرب سفح الهضبة كلها، نزولاً إلى آخر تخوم البطيخ الأحمر. اضرب الهضبة ومقابرها. اضرب الثلج المبتسم، وشجرة الزيتون التي لن تكبر قط. كرزو»، وأغلق مَهْمَد الباب من ورائه حتى لا يسترسل في غضبه. لقد كان آخر الداخلين، لكن عينيه ظلتا هناك، وكذلك قلبه المتقاذف كجُندب سكران. ويصحو قليلاً فيرفع لفافته إلى فمه فإذا بها رماد، فيشعل أخرى كان قد عقدها سلفاً.

نهض الملاّ وفتح الباب، إثر طرقات تناهت إليه، فألفى خاتي سائلة: «ألا ينبغي أن تخرجوا للدفن الآن؟ العربة جاهزة»، فأومأ

أخوها كمن يحثها على الانصراف ثم التفت إلى الرجال: «العربة جاهزة»، وكان في هذا الإيجاز إيحاؤه الكافي لينهض الجميع، متلمّسين أحذيتهم للخروج.

النساء اللواتي كنّ في غرفة الأم خرجن تباعاً، ثم تحلقن أمام الباب وقد انضم إليهن أولادهن. وبعد برهة خرجت خاتي، حاملة لفافة بيضاء على ساعديها، واخترقتِ الجمع إلى بوابة السور، وهناك مدّدت المخدة ـ الجثة على العربة المستطيلة ذات العجلتين، والتي سيجرها رجل لقاء أجر معلوم. وعلى سطح العربة المنبسط كان ثمت رفش أيضاً، ومعول التصق بحديده طين رطب. وإذ رأى الرجل المعروق، المتدثر بمعطف فضفاض ثقيل، والممسك بمقبضين خشبيين ليحفظ توازن عربته على عجلتيها، أن عليه أن يمضي، زفر زفرة قوية وتقدّم، فتبعه الرجال وحدهم، بينما بقيت النساء حيث هنّ، يتلمسن رؤوس الأولاد فيدفنَّها في خواصرهن، كأنما يحمينهم من شؤم، أو عين.

ثلاثة عشر رجلاً، كانوا يتبعون العربة على الطريق الإسفلتي المتجه من المدينة إلى قرية الهلالية. وهذا الطريق هو وحده الذي يصل، على كل حال، مدن الشمال الصغيرة بعضها ببعض. ضيق قليلاً، لكنه يفي بما عليه، وتتناثر من حوله، بعد اجتياز الحي الغربي بالطبع، بعض البيوت، وحقول منبسطة من الجهتين بيضاء في فرائها الثلجي، على مدى البصر، لكن يتخلل الجهة الشمالية منه دغل يتصل بالهضبة التي تستقر عليها القرية التي ينشدها المشيّعون.

دخان التبغ يمتزج ببخار الأفواه. الرجال يعقدون اللفافات في يُسرٍ وهم سائرون. أصواتهم خفيضة لكنها متصلة. عباءات مبطنة

بالفرو تخفق خفقاً خفيفاً من خلف الأحذية، وعجلتا العربة تنزلقان بعض الآناء، فيدور الرجل إلى اليمين، أو إلى الشمال، بحسب انتقال الثقل يميناً أو شمالاً، ثم يستعيد توازنه، ويخبط بقدمه على الإسفلت مندفعاً.

ثمت علوٌّ يعترض العربة قبل الوصول إلى ناحية المقابر، لذلك اجتمع بعض الرجال يدفعون بها من وراء حتى جاوزوا بها إلى سطحٍ منبسط، ثم سلكوا في الثلج، مبتعدين عن الشارع الإسفلتي جنوباً، إلى حيث تستقر المقبرة على مبعدة مائتي متر في التقريب.

المقبرة بيضاء تماماً، والقبور مستوية بالأرض لا يميزها غير أحجار تدل على مواضع الرؤوس، وأخرى على مواضع الأقدام. بضع شواهد تنبثق هنا أو هناك فتوحي بوجود مقبرة، ولولاها لما عرف أحد أن في هذا المدى المترامي ترقد مئات الموتى. فمسلمو الشمال لا يستحبون بناء أنصاب على القبور، لذلك تمحّي الكتل الترابية بعد زمن قليل، فتبقى أحجار متناثرة، ورقائق من آجُرٍّ يُغطى بها التراب.

في الصيف فقط تدل المقبرة على نفسها، بعدما تحصد الريح ما يخلّفه الربيع من عشب يابس. قرب كل قبر وكر لضبع تخرج منه العظام، تباعاً إلى العراء. لكن، وسط هذا الثلج الذي يُسوّي القبور ببياضه، والموتى بالأفق الرمادي، لا يسع الرجال إلاَّ أن يستعينوا بخرائطهم الخفية. وهاهم يتقدمون الآن من وراء العربة التي تغوص عجلتاها فتكاد تتفجر أوردة الرجل الذي يجرها.

«هيا. هيا» لكن العربة تقف بعد كل مترين. الرجل يكاد يهوي، وإذ يراه الملاّ في حاله تلك، يقترح أن يحمل جثة وليده بنفسه، وأن يحمل

صاحب العربة آلات الحفر، فذلك أسهل من المضي على هذا النحو. همهمات تعلو. كلٌ يتبرع بحمل الجثة، لكن الملاّ يختطفها قبل أن تصل إليها يد. هه، كان صائباً في حيطته، فالجثة خفيفة إلى درجة تبعث الريبة في النفس. «لماذا لم تضع خاتي شيئاً ثقيلاً في اللفافة؟»، ويلتفت شمالاً، حيث تستقر المدينة في المنخفض البعيد، كأنما يوبّخ أخته على سهوها.

«هنا» يشير مَهْمَد على الرجل حامل الرفش، «ارفع الثلج عن هنا»، وينحني الرجل وهو يكشط برفشه طبقة الثلج ليتبين الأرض من تحتها، وليتأكد أنه لن يحفر في مساحة تخص قبراً قديماً. وإذ يجد الرقعة مستوية وصلبة، يلقي بالرفش جانباً ويتناول المعول: «بسم الله»، وتتلقى الأرض ضربتها الأولى.

يمضي الحفر بطيئاً بسبب الطين الذي يعلق بالرفش، فيضطر الرجل إلى تنظيفه بين برهة وأخرى. والحفر لا يمضي عميقاً على كل حال، فوليد صغير تكفيه حفرة ضحلة. وعندما يغادرها الحفّار ينزل الملاّ بالجثة في خفّة، مبادراً قبل أن يتبرع غيره بتسجيتها في القاع الطيني، بل في جيب يتخلل جدار الحفرة، يسدونه ببعض الحجارة أولاً، لئلا يقع شيء من التراب على الجثة مباشرة آن إهالته على القبر. وحين ينتهي الملاّ من ذلك يمد يده إلى يد أحدهم، وبقفزة يصير خارجاً.

يجلس الرجال القرفصاء على مقربة من القبر، محكمين عباءاتهم السميكة حول أجسادهم، بينما ينحني الحفار على ردم الحفرة. كل اثنين يتجاذبان حديثاً ما، مبدّدِينَ بذلك الملل الظاهر في عيونهم المستعجلة. يُخرج الملاّ علبته الفضية، واقفاً، ويعقد لفافة سميكة، ثم

يجيل عينيه في المدى من حوله، قبل أن تستقرا على شاهدة عريضة من حجر أصفر، يعلو قمتها خيط من الثلج. كانت بعيدة بعض الشيء، وقد استرعى ناظريه شيء أسود يلوح في جانب منها ثم يختفي. حدق قليلاً فزغل بصره من الوهج الأبيض للثلج. لم يبد عليه فضول كبير، لكنه حين عدّ الرجال - وفي ظنه أن أحدهم قد انتحى هناك - ووجد العدد كاملاً، عاد فنظر إلى الثلج لعله يجد أثر أقدام يفضي إلى الشاهدة، غير أن المسافة كانت منبسطة خالية حتى من أثر الطيور. ظلل عينيه بيده على اللاتعيين، وحدق في الشاهدة من جديد. كان الشيء الأسود، الشبيه بطرف عباءة، يتحرك حركة خفيفة دون أن يختفي. نظر إلى الرجال فوجدهم غافلين إلاَّ عن أحاديثهم. استدار ومشى.

لم يعر الرجال ابتعاد الملاّ عنهم غير نظرة لا تساؤل فيها. مهموم ربما، وينتحي ليخفي انفعاله كما ينبغي على رجل صلب أن يفعل. هكذا فكروا لبرهة ونسوه. بينما تقدم الملاّ حتى قارب الشاهدة، دون أن تفارق عيناه ذلك الشيء الأسود، الذي كان طرف عباءة، حقاً. ودار نصف دورة ليصير في مواجهة الكائن المختبئ فصُعق. كاد يصرخ، لكنه أحس ارتخاء في مفاصله، وطعماً لاذعاً امتد من تحت لسانه إلى ما تحت جلد وجهه. طعم لاذع في الجفنين وعلى أطراف الشفتين. تهالك في بطء، جالساً على الثلج، عارياً في مدى العينين اللتين تنظران إليه في هدوء ثقيل.

وجه أبيض تتدلى خصل بنفسجية عليه من الجانبين. عينان على شيء من صفرة فاقعة. لحية رمادية، والرأس لا شكل له تحت العباءة

التي انسدلت من قمته على باقي الجسد المتكور، والمستند بظهره إلى الشاهدة. «بيـ يـ يـ كاس!» تمتم الملاّ من بين أسنانه المصطكة. لقد تغير الوجه كثيراً عليه، لكنه فيه شيئاً ما لا ينساه. أهو السخرية البادية من أطراف العينين؟ أم الحاجبان المتصلان بانحدار فوق قاعدة الأنف؟ أم هو الأنف المحدب كالذي يحمله الملاّ في وجهه؟. كلها معاً. إنه وجه الأب نفسه برغم القناع اللّوني.

«إلهي»، تمتم الملاّ، ثم مال في جلسته لينظر إلى الجمع البعيد من وراء الشاهدة، فأبصرهم قائمين، كأنما انتهى الردم. ازدرد لعابه قائلاً: «أين كنت؟» وانتظر أن يجيبه بيكاس، غير أن الأخير رد بابتسامة غريبة. تمتم الملاّ ثانية: «ماذا أقول لهم؟ كيف أشرح اللعبة؟»، ولم ينتظر جواباً هذه المرة، بل نهض من فوره، هامساً: «ابق هنا بالله عليك. ابق متخفياً»، وأسرع الخطا في اتجاه الرجال، الذين بدا واضحاً أنهم ينتظرونه ليمضوا. ولما صار على بعد خطوات منهم توقف مطرقاً لبرهة، ثم رفع عينيه إليهم، مستقراً بهما على عَقْدي ساري تحديداً: «أتمانعون في أن أبقى قليلاً، وألحق بكم فيما بعد؟»، فهز عَقْدي رأسه: «كما تشاء. لكن لا تتأخر»، واستدار مبتعداً بالرجال.

بقي الملاّ في وقفته تلك حتى غاب الجمع في المنحدر الإسفلتي، فدار على عقبيه عائداً إلى الشاهدة على عجل.

كان بيكاس ما يزال على جلسته ذاتها، فجلس الملاّ قباله، محدّقاً دون أن ينبس ببنت شفة. أخرج علبة تبغه وعقد لفافة استعصت، لأول

مرة، عليه. أصابعه الباردة لم تكن تطاوعه بمهارتها المعهودة. وقد بوغت بكلمات ابنه فكادت العلبة تسقط من يده: «لُفَّ لي واحدة يا أبي»، فلفَّ اثنتين، قدم إحداهما لابنه، ثم قرّب ولاعته الكيروسين فأشعلها له، ومن بعد أشعل لفافته هو، ناظراً إلى فم بيكاس وهو ينفث الدخان كما يفعل مبتدئ باللفافات.

تنحنح الملاّ بارتباك، سائلاً: «أين كنت؟»، فرد بيكاس: «معهم. كنت معهم». ارتعش فك الملا السفلي من البرد المشوب بنفاذ الصبر: «مع مَنْ؟» فرفع بيكاس حاجبيه متصنعاً الدَّهَش، كأنما على والده أن يعرف قصده، فرفع الملاّ حاجبيه بدوره، عسى أن يظفر بشرح ما، غير أن بيكاس بادره: «وماذا تفعل هنا ياأبي؟». «هنا؟» همس الملاّ مُغْضباً، ورفع صوته: «ذاك هو قبرك. جئنا لدفنك، دفنا المخدّة وانتهينا. لهذا أنا هنا». فبادره ابنه بهدوئه المعتاد: «أنا حي.. أما المخدة.. لم أفهم». «أووووه» ولول الملاّ بصوت فيه نبرة نشيج: «أصبح الشرح مستحيلاً، فرأينا أن ندفن المخدة التي هي أنت»، وصمت قبل أن يسترسل في هدوء من يقنع شخصاً يستعصي إقناعه: «اسمع. لن أتراجع عن المخرج الذي وجدته لهذه المهزلة. بيكاس مات. أطفال كثيرون يموتون في يومهم الأول. لكنك تستطيع الرجوع معي إلى البيت بصفتك شخصاً آخر. فلتكن، مثلاً، ابن أخي. ابن أختي. لا أنت أكبر من أن تكون ابن أحد. أنت كهل مثلي. فلتكن قريباً من الأقرباء الراجعين من تركيا. نعم. هذا مقنع. ألا تعتقد ذلك؟ سنحفظ الحقيقة سراً بين العائلة. بيني وبين برينا وخاتي. الأولاد لن يعرفوك»، ولعق شفته اليابسة منتظراً كلمة ما من ابنه، الذي أطرق قليلاً، ثم رفع رأسه

مبتسماً: «وسينم؟ نسيتها؟». «سينم.. سينم..» ردّد الملاّ مضيفاً: «آه، سينم. كيف سأشرك أباها مهمد في اللعبة ثانية؟. سنجد مخرجاً. لا تهتم»، قال ذلك بصوت واثق، فعاجله ابنه قبل أن يكتمل له انتصاره الصغير على الأسئلة: «لكنني مشغول الآن يا أبي»، «مشغول بماذا؟» صرخ الأب في توسل، فرد بيكاس: «بدفترك. هاك» وأخرج من تحت عباءته دفتر الأب الأزرق.

غامت عينا الملاّ قليلاً، كأنما تلقى سخرية جارحة، ثم مدّ يده يتقرى الدفتر: «والله إنه دفتري» قالها غير مصدِّق، وأردف متطلعاً في عيني ابنه الغريبتين: «متى أخذته؟ كان معي حتى الصباح..»، فتجاهل بيكاس سؤال أبيه، فاتحاً ما بين الدفتين الزرقاوين، قائلاً: «أنظر يا أبي»، وهو يمرر إصبعه على بعض الأرقام: «إنني أدّقق في الصفحة هنا»، فانحنى الملاّ بجذعه على الدفتر، متتبعاً إشارات ابنه: «تدقّق فيمَ؟» سأله، فرد بيكاس: «يتغير عدد أكياس القمح التي كنت تبذرها في المسافة بين قرية كيْستَكْ وقرية تلّ حَمّيس»، فرفع الأب كتفيه: «وماذا في ذلك؟»، فاسترسل الابن: «كنت تزرع المسافة كلها قمحاً، أليس كذلك؟» فأومأ الأب: «نعم». فسأله بيكاس: «ولماذا، إذاً يتناقص عدد أكياس البذار؟» فأجابه الملا: «تلك مسألة عادية. إذا باعدت بين البذار زرعت، في المساحة نفسها، أقل عدد من الأكياس». «اووه» تمتم الابن، كأنما لم يكن راضياً عن الطريقة التي يحاول بها أن يقول ما يريد قوله لأبيه: «انظر هنا. إلى الأجور التي دفعتها لأصحاب آلات البذار. إنها تتناقص»، فهز الأب كتفيه: «هذا بسيط، تزداد سرعتهم سنة بعد سنة. يختصرون الأيام. ونحن ندفع مياومة».

تنفس بيكاس عميقاً، وطوى الدفتر، هامساً: «لا يا أبي. المسألة أن المسافة ضاقت ما بين القريتين»، فابتسم الأب: «لم أسمع أن أحداً بنى بيتاً واحداً في أيٍّ من القريتين، فكيف تضيق المسافة؟» «تقترب القريتان، إحداهما من الأخرى» رد بيكاس، وأضاف: «سأباعد بينهما لتعود المسافة إلى حالها الأولى»، فتجهم وجه الأب قائلاً: «وماذا ينفعني ذلك الآن؟»، وأكمل بصوت خفيض يحمل بعض السخرية: «حتى إذا استطعت أن تباعد ما بينهما». غير أن بيكاس تجاهل تلك النبرة، مردفاً بثقة: «يلزم الأمر أن أعيد كتابة نصف هذا الدفتر من جديد، بافتراض ما كان ينبغي أن تكون الأرقام عليه» ورفع عينيه إلى وجه أبيه متفحصاً: «أعني النصف الذي يخصك، لأن النصف الآخر كان لجدي». «لا أطلقها الأب بذعر. «لا»، لتبق الأرقام على حالها، ولتذهب حياتي، والمسافة ما بين كيِّسْتَكْ وتلّ حَمِيس إلى جهنم»، قالها مربّداً، وهم بانتزاع الدفتر من ابنه، لكن بيكاس سارع إلى رد أبيه بيديه في رفق: «تمهل.. تهمل» تمتم، ثم أضاف بعد برهة من التحديق أحدهما إلى الآخر: «سأستعيره لا أكثر. عليّ إعادة ترتيب تلك المسافة مسترشداً بالأرقام المدونة هنا. سأجعلها تتسع لنا دون استناد إلى تقدير خاطئ لما جرى فيها. كل شيء سيكون واضحاً: كم سنبلة نَمَتْ. كم من الرجال وطأها. كم سرحت فيها من قطعان الغنم. كم قطاةً تتسعُ. ناهيك بالنبات، والوقت الذي ستستغرقه عاصفة ترابية لتجتازها. كذلك الزوابع، نعم، علي قياس علوّها ودوراتها. ستكون الأمور واضحة حين نستقر هناك».

كان الملاّ يصغي، غير أنه لم يلتقط من كلام ابنه إلاّ كلمة «لنا. تتسع لنا». فارتفع صوته: «لنا.. لنا.. من تقصد بـ «لنا»؟»، فرد بيكاس:

«نحن. أنا والذين معي». «أوضِح بالله عليك» صرخ الملاّ وقد استوى جاثياً على ركبتيه: «من معك؟» فرد الابن من جديد: «هُمّ يا أبي.. هم».

ارتد الملاّ بمؤخرته على الثلج في استسلام، وإذ تكلم كان في صوته ما يشبه النشيج: «أعد الدفتر فقط إليّ. لا أريد منك شيئاً آخر. اختف. اذهبْ. افعل ما تشاء أنت و«هم»، وكرر كلمة «هم» في مرارة، ثم أطرقَ منتظراً.

لمس بيكاس ركبة أبيه فرفع الأخير وجهَه المتعب إليه. كان بيكاس يبتسم فاستبشر الملا قليلاً. لقد توقع أن يعيد ابنه الدفتر إليه، أو أن يقول شيئاً من قبيل «فلنفكر بمخرج للعودة إلى البيت»، لكنه بوغت بسؤال غريب: «وماذا نفعل ببنات آوى؟». استوى الملاّ بعدما كان منحنياً: «أية بنات آوى؟»، فرد ابنه: «المسافة، تلك، ملأى بهن، أنت تعرف». استجمع الأب هدوءه بجهد بالغ مبلغه: «تقصد المسافة بين القريتين؟. ما من مكان في السهول كلها يخلو من بنات آوى، على كل حال»، فانحنى بيكاس إلى أمام إلى درجة أن الأب رأى صورته في حدقتي ابنه الصفراوين. وقد سارع الملاّ، كأنما فهم ما سيتبع الانحناءة من سؤال، قائلاً: «برغم كل هذا الحديث الذي يثير ذهولي وضجري سأجيبك إلى ما ينبغي أن تفعله. ألم تخطر الفخاخ ببالك؟ نعم، الفخاخ. تصيّدها يا بني. كنا نحن نفعل ذلك، أو نداهم الحقول في ساعات الفجر على الجياد، ونهوي بعصينا عليها. ابن آوى جبان، لكنك حين تقترب منه يرتد من يأسه على عنق جوادك الراكض. اضربْه وهو في الهواء. لا تخطئه حين يقفز، لأنك إن أخطأته جمح جوادك فأهلكك».

كان الملاّ مسترسلاً في شرحه قبل أن تفاجئه حركة من رأس ابنه تدل على عدم اقتناعه، توقف، بغتة، ثم دمدم: «إذن لِمَ تسألني أيها الـ..»، فسارع بيكاس: «لم أقصد الإساءة إلى قَدْر أجابتك، لكنك تستغفلني». «أأستغفلك؟»، همس الملا عاقداً حاجبيه، وكرَّر في أسى: «أأستغفلك!؟ في أي شيء أستغفلك؟»، فاتخذ بيكاس هيأة مستنطق يعرف أن الآخر يملك جواباً على تساؤله: «هيه يا أبي. أنت تعرف نوع بنات آوى هناك». «نوع؟؟» تمتم الأب متسائلاً فأردف الابن: «المجنّحة. المجنّحة» مردّداً الكلمة بتأكيد.

مرّر الملاّ يده اليمنى على لحيته، مبتسماً ابتسامة استخفاف من الأمر كله، ثم نظر يميناً، إلى المدى الأبيض، هامساً دون أن ينظر إلى ابنه: «ها أنت تستغفلني»، وأطرق مضيفاً: «لن ينقضي الأمر حتى تجعلني أضحوكة»، فأتاه صوت بيكاس واثقاً في هدوئه: «أووه يا أبي، ما من سبب يدعوك إلى هذا الإشفاق على نفسك. كنتم تحتفظون بواحد في البيت، فلماذا تخفي ما عرفه؟». إذ ذاك رفع الملاّ عينين منكسرتين إلى ابنه: «بواحد من ماذا؟» سأله مستفسراً، فرد بيكاس: «بابن آوى مجنّح. تصيده أبوك، ولم تكن صغيراً لتدّعي النسيان».

تراخى الملاّ حتى بدت عباءته أكبر بكثير من مقاسات جسده أخرج علبة تبغه بتكاسل وعقد لفافة ثم أشعلها، متمتماً والدخان يتداعى من بين شفتيه: «كنا نملك واحداً!! نعم كنا نملك واحداً. يا للجناحين. ماذا كنا نطعمه؟. آه، الحرشوف الطري واليابس. لقد طرّزت أمي صورته على مخدة وهبتها لخاتي. آه. أضافت أمي لحية إلى وجه الحيوان. لماذا اللحية؟ سألناها، فأجابت أن الحيوان هو

صورة روح شريرة، وقد أضفتُ اللحية لأجعلها روحاً أنيسة»، وارتفعت قهقهة عالية من فمه، مسترسلاً: «إنني أستغفلك الآن. لم نملك أي حيوان من هذا النوع». ثم نهض واقفاً: «يا ابن الشيطان». أطلقها ملء العراء: «أعطني الدفتر»، فنهض الابن، بدوره، متثاقلاً: «اتبعني، سأعطيكه في المنحدر هناك»، وأشار إلى الجهة الجنوبية، حيث ينحدر المرتفع الذي تقع عليه المقبرة، حتى يلتقي بمجرى فرع من نهر «جغجغ»، ثم مشى.

ظل الأب واقفاً في مكانه كأنما أُسقط في يده، متتبعاً ابنه المبتعد بعينيه اليائستين. «لماذا لا يعطيني الدفتر هنا؟» همس لنفسه. وعلى لا توقُّعٍ حتى منه خرج صوته مدوياً: «بيكاس.. تعمَّدْتُ الخطأ في الحسابات. تعمَّدت ذلك، أتفهمني؟ فصّلتُ الخسارة لنفسي تفصيلاً أيها الحمار. خذ الدفتر. كل شيء محفوظ هنا» وأشار بإصبعه إلى رأسه. «هنا. هنا»، واستدار غاضباً، متجهاً صوب الطريق الإسفلتي. غير أنه توقف بعد عدة خطوات، ثم التفت إلى الوراء فلم يجد غير آثار خطى ابنه المتجهة إلى المنحدر. استدار مهرولاً أول الأمر، بعد ذلك اتسعت خطواته حتى صارت الهرولة ركضاً. وفي أسفل المنحدر أدرك الأب ابنه. التقط أنفاسه وهو يمشي على بعد أمتار منه. «بيكاس»، هتف الملاّ بصوت مختنق، وأردف: «المخدة.. مخدة خاتي». وصمت إذ رأى ابنه يتوقف، ثم يلتفت إليه بعينين ازدادت صفرتهما، وعلاهما شيء من الحَوَل. توقف الملاّ بدوره، وسرَّح بصره في الثلج: «لم يكن وجه ابن آوى، على مخدة خاتي، إلاَّ...»، قال ذلك مشيراً إلى بيكاس الذي قاطعه: «وجهي.. صورتي أنا. نعم. أرأيت أبي أنك بدأت تتدارك

ما حاولتم إقصاءه من العائلة؟»، واستدار على عقبيه ليمضي، فسأله الملاّ: «والدفتر؟»، فرد بيكاس: «كل شيء فيه صحيح. لكن علينا أن نتعمد تزوير الحسابات تحسُّباً»، فاقترب الأب خطوتين، سائلاً من جديد: «تحسباً ممَّن؟»، «منهم يا أبي» رد بيكاس.

هزّ الملاّ رأسه، متمتماً: «منهم! هه، منهم». وأردف: «سنفعلها معاً، أنا آتٍ معك».

انفرط عقد الرجال في طريق عودتهم من المقبرة، بقي عَڤدي ومهمد وحدهما، بينما انسل الآخرون، صامتين، كلٌّ في اتجاه بيته. وإذ وصلا منزل الملاّ كان الوقت عصراً. خاتي وبرينا والأولاد، معاً، أفسحوا لهما مكاناً قرب الموقد، ثم جلسوا حين جلسا. نهضت خاتي وجاءت بطبق كبير من القش. وضعته خلفهما على الأرض، ورجعت لتجيء بقصعة فيها طعام، وضعتها، بدورها، فوق الطبق، متمتمة: «تأخر الوقت، ولم تأكلا شيئاً»، غير أن عَڤدي ارتأى أن ينتظرا انضمام الملاّ إليهما، فغُطيت قصعة الطعام بغطاء حتى لا يبرد.

حل الظلام سريعاً في ساحة البيت، لكن أحداً لم يكلف نفسه عناء إشعال السراج. كانوا صامتين ومنتظرين. عيونهم تتبع علبتَيِّ التبغ الفضيتين وهما تتنقلان بين يدي مهمد وعَڤدي. كانتا واضحتين من أثر انعكاس أشيب للسماء المزدادة بياضاً خلف النافذة الواسعة، التي وقف أمامها كرزو مترصداً تلك الكتل السوداء الصغيرة على السلك الممتد فوق الساحة. الزرازير لم تبارح مكانها إذاً، لكنها ستختفي بعد قليل. نُدَفٌ رخيَّة صغيرة من الثلج تتهاوى، ثم تتبعها نُدَفٌ أكثر عجلة. آلات حَلّجٍ خفية يرتفع ضجيجها الصامت من مساء

المخلوقات، وما من أثر للملاّ. «كُلاَ باللّه عليكما» تقول خاتي للرجلين، وتردف «الأرض لا تبتلع الأحياء، وأخي لن يختفي بهذه السهولة»، مضيفة بعض المرح الثقيل على كلماتها، فانحنى الرجلان، آنذاك، بملعقتيهما على القصعة الباردة بغير شهية واضحة. تمتمت خاتي ثانية: «أهو بارد؟ أستطيع أن أسخنه من جديد إذا أردتما»، فأشارا إشارة شكر وهما يمضغان لقمتيهما.

كانت أخت الملاّ قد أشعلت السراج توّاً لتهتدي يدا الرجلين إلى ما يأكلان. وكان واضحاً أنها تهمّ بقول شيء ما لَمُهَمَدٍ، من جرّاء نظراتها الملحاحة إلى وجهه، لكنها تكتم كلماتها في حضور عَقدي، الذي يلتفت بين الحين والآخر إلى ابنته برينا مواسياً، أو ممسداً رأس أحد أولاد الملاّ. وفي ثنايا الكلام الخافت، ذي الخشخشة الشبيهة بمرور الملعقتين على قاع القصعة، تناهت، مراراً، توسلات صغيرة من برينا إلى أبيها: «عد إلى البيت، كل شيء سيكون على ما يرام»، وردود من عَقدي إلى ابنته: «بعد قليل. لا بأس. نصف ساعة أخرى». وفعلاً، بعد لفافة، إثر الانتهاء من تناول الطعام، نهض عَقدي، قائلاً، وهو يخفّف من إحراجه في مغادرة العائلة المستوحشة: «إذا تأخر الملاّ أكثر أبلغوني باللّه عليكم، وكذلك إذا احتجتم أي شيء. سأزوركم صباحاً»، وأردف متوجهاً بكلامه إلى مهمد: «أأنت باق؟»، فأومأ مهمد برأسه: «قليلاً». آنذاك انسلّ عَقدي من الباب إلى شبكة الثلج العظيمة، وقد غطى رأسه بعباءته.

لم يدم صمت الباقين، الجالسين حول الموقد، إثر خروج عَقدي. بادر مهمد سائلاً: «أرجعت سينم إلى البيت؟»، فردت خاتي على

عجل: «ذلك ما كنا نريد مباحثتك فيه. إنها لم تزل هنا». حدق مهمد فيها: «عمّ نتباحث؟ لا مبرر لبقائها هنا»، والتفت إلى برينا: «أين هي؟» فردت المرأة في انكسار: «في المضافة»، ثم تمتمت مطرقة: «ارتأينا أن نبقيها هنا لنستشيرك». إذ ذاك هزّ الرجل رأسه: «لا أعرف إذا كانت المسألة كلها مهزلة أم لا، لكنها انتهت، على كل حال. أبلغوا الملاّ حين يرجع أنني أخذتها معي»، ونهض واقفاً، وقد رفع عباءته إلى قمة رأسه يغطيه، ثم همّ بالخروج، فسارعت خاتي قائلة: «ابق هنا. أنا سآتي بسينم» واندفعت خارجاً وفي يدها قطعة من الخيش لتغطي بها رأس البلهاء حال خروجها. وقبل أن يكمل مهمد جملة توجه بها إلى برينا، مفادها استعداده لإجابتهم في أي طلب، كانت خاتي قد رجعت مهرولة، وعلى غطاء رأسها وكتفيها نُدَفٌ كبيرة بيضاء لم تَذُب بعد. «إنها وراء الباب» قالتها لمهمد، فاندفع الرجل خارجاً، ممسكاً يد ابنته البلهاء ليزفَّها، كما ينبغي لأب أن يمسك بيد ابنته حين يزفها، لا إلى بعلٍ، بل إلى حقل الظلام المتخبط في شباك العراء.

سكون موحش كبَّل العائلة، ولم يقطعه غير تأوهّات خفيضة للأولاد يلكز بعضهم بعضاً بالمرافق. برينا كانت مطرقة بانحناءة، أما خاتي فقد انجرفت مع اللهب المتراقص في الكوة الزجاجية للموقد. كان في ودّها أن تعتذر وتمضي، لكن قلقاً مُرَّاً حط بثقله عليها فلم تجرؤ على القيام. ولربما عَنَّ لبرينا نفسها أن تدفع خاتي إلى الذهاب لتفقد أولادها الذين غادرتهم منذ الصباح، غير أنها أجفلت، خِفْيَةً، من السكون الذي سيسود أكثر، ومن أسئلة أولاد الملا التي سترتفع بعد حين، في أغلب الظن، ولن يعينها على الرد عليها إلاَّ خاتي. إنها

تتوجس شيئاً ما من تأخر زوجها غير المبرر. بل لن ينقطع توجسها المقلق منذ انزلاقة الوليد من أحشائها، مصطحباً مع حبل السرّة مهزلة لا يعرفون أين يخفونها؛ في الوسادة المدفونة، أم في بلاهة سينم؟ في صمت مهمد الرجولي، أم في حيرة خاتي؟.. والأولاد؟.. هيه. سينسون. إنها حكاية من مخيلتهم، لا من رحمها هي. رحم برينا ابنة عَقدي ساري.

«ما العمل؟» تدحرج صوت خاتي ثقيلاً. رفعت برينا يديها في تساؤل صامت: «ما العمل؟». كان في كلمتها الهامسة رنَّةُ نشيج محتبس. قالت أخت الملا من جديد: «أعلينا أن نستعين بأحدٍ ما؟»، فردت المرأة الأخرى وهي تنقل بصرها في وجوه الأولاد الواجمين: «لا أعرف. أكان على الملاّ أن يتأخر على الرجال؟» قالتها في عتب، وأردفت: «ثم.. أين نبدأ البحث عنه؟ في المقبرة؟ وما الذي يشغله في المقبرة ليظل هناك؟ في الطريق إلى البيت؟ في بيوت الناس الذين نعرفهم؟ غريب.. لكن علينا أن نبلّغ أبي». وكأنما كانت خاتي تنتظر كلمة حول مهمة التبليغ فانتصبت واقفة بطولها: «سأكلف حشمو»، وقد استحسنت برينا ذلك، فتكليف حشمو ينطوي على رغبة لا تُخفى من خاتي لتفقّد أطفالها في الأقل.

استعارت أخت الملاّ كيساً من أكياس الخيش الفارغة لتقي نفسها من الثلج، وخرجت.

هطول كثيف للثلج يسد على خاتي رؤية أي شيء في ذلك الظلام الأرقط. بيتها غير بعيد عن بيت أخيها، في الجهة الجنوبية من الحي

الغربي. ولبلوغه عليها الالتفات من الشرق، لأن ما من زقاق يخترق صف البيوت المتراصة الواقعة في الوسط بين بيتها وبيت أخيها. غير أن ثمت منفذاً آخر، مختصراً، يمر في حفل «ساكو» السرياني، المكشوف إلى أقصى الجنوب. وهي تسلكه في الربيع والصيف عادة، أما في الخريف والشتاء فهو وعر بسبب طينه الأحمر الذي يلتصق بالأحذية التصاقاً شديداً، ويترك آثاراً لا تُمحى على العتبات. وقد يممت وجهها صوبه، فسماكة الثلج، في هذا الوقت، ستمنع ما تخشاه في المطر.

الحقل المكشوف وضّاء أكثر من الأزقة وسط البيوت. خاتي ترى ما بين خطواتها، ولو توّقف الثلج لرأت أبعد مما يمكن أن تراه في ليلة عادية. والحقل موحش، لا يبين في مسافته المنبسطة إلاَّ شبح هضبة ترابية صغيرة تتوسطها رافعة للمياه. البعيد، عادة، في ظلام كهذا، يكشف عن أشكاله قليلاً، أما القريب فيخفيها، وخاتي تهتدي بالبعيد، وبلهفة ملحاحة إلى رؤية أولادها وزوجها قبل أن يعمدوا إلى النوم مبكرين كعادتهم، غير أن صورة حشمو أكثر إلحاحاً على نفسها. هذا البسيط المطيع، المضحك بسذاجته، يستثيرها على غير توقّع. شفقة ممتزجة بحنان ما تحيط بالصورة. لسنين لم تبد إلاَّ استخفافها به، متفكهة بكل شيء فيه حتى القهقهة. أتُراه طبعها المرح هو الذي ساقها إلى الزواج من رجل يستدرُّ المرح؟ لقد حملت الأمور، أبداً، محمل الخِفَّة، وكان زواجها جزءاً من ذلك. قالوا: «أتتزوجين حشمو؟» فردت: «أتزوجه وأتزوج أباه»، وإذ حاولوا التأكد من تصريحها هذا، أردفت: «الرجال متشابهون. يقتلون نساءهم بتجفيفهن أمام التنور من كثرة طلب الخبز الساخن، وحشمو سيقتلني من الضحك على الأقل».

إنها تزمع، في هذا المدى المسيج بظلام رمادي يتدلّى كعرانيس الذُّرة، أن تعتذر إلى حمشو عن وصفه بـ «خصية القنفذ». هكذا، ستعتذر دفعة واحدة، ولن تُسْمِعَهُ ما يهينه بعد الآن. ثم تبتسم عى أثر قرارها ابتسامة لا تُرى: «بماذا سأصفه إذاً؟» ستبحث في سيرها على وصف خفيف لا تجريح فيه لبعلها: «فليكن: الدلو المثقوب»، وتهز برأسها غير مستحسنة: «فليكن جاروش البعر. لا. الأفضل: جاروش الملح»، وتردُّ على نفسها: «ولماذا الجاروش؟ إنه مزراب أخبار المدينة، سأدعوه: المزراب. نعم، هذا أفضل».

كان حشمو يشتغل سائقاً لحصادة القمح عند الملاّ قبل أن يبيعها الأخير في أيام ضيقه، وهاهو يشتغل عند أناس آخرين. عمله عمل موسمي، ثم يقبع في داره تسعة أشهر. غير أنه لا يتوانى عن تقديم أي عون لقاء أجر صغير في أيام البطالة الطويلة. يدهن البيوت بالجير مقابل نصف ما قد يناله عامل آخر. يذبح الخراف والأبقار التي تحفظ الناس لحومها للشتاء، مقابل جلودها وأحشائها. يسوّي بمدحلته الحجرية سطوح المنازل إذا اشتكى سكان بيت ما من الدّلف. يملّط بِمِسْحَجِه الجدران اللبنيّة إذا تقشرت. إنه، اختصاراً، مستعد لكل شيء، بصبر يعادل صبر شجرة الكينا في ساحة دارهم. مدبّر تعتمد خاتي عليه برغم خفّته، وهاهي بتدبيره هذا، تتمكن من إرسال ولدين من أولادها إلى المدرسة الابتدائية.

على عجل تحاول خاتي اجتياز الحقل، لكنها تغوص حتى منتصف ساقيها في كل خطوة. يقيناً أن ما يتساقط من الأعلى، الآن، ليس ثلجاً، بل وسائد ولُحفٌ بيضاء؛ أطباق وقبعات من فرو سماء

منهارة برمتها من ضربة ذعر أبيض. ووسط كل ذلك سكون يهتز كرئة كلما زفرت خاتي: «لا بأس يا حشّمو، سأصل، فلدي الكثير مما أرويه وأنت ترتدي حذاءك لتبلّغ عَقْدي ساري»، وتصل، فعلاً، إلى تخوم الحقول الشرقية، المتصلة بأسوار المنازل هناك. وبعد اجتياز سورين، تماماً، تنعطف في اتجاه ممر ضيق بين منزلين، لا يكاد يتسع إلاَّ لمرور شخص واحد، تدلف منه إلى زريبة خربة سقط أحد جدرانها، وظل بابها، غير الموصد، مفتوحاً على الجهة الأخرى، حيث بوابة سور بيتها الواطئ. تدفع البوابة الثّقيلة دفعاً، وحين تدخل توصدها بعمود خشبي.

ضوء خافت يلوح لبصرها من نافذة المنزل. «إنهم نائمون» تقول لنفسها. يجعلون الضوء خافتاً حين ينامون: «لا بأس يا حشمو. سأحدثك وأنت نصف نائم. سأسندك حتى ترتدي حذاءك، فنومك ثقيل، والهواء، خارجاً كفيل بإيقاظك».

كانت خاتي تتعمد أن تحدث خشخشة كبيرة في الثلج بقدميها، ثم لم تسمع شيئاً بعد ذلك. المفاجأة والألم حبسا، معاً، حتى الصرخة التي كان يمكن أن تطلقها المرأة المنصتة إلى وقع حذائها. هوت بطولها كحزمة من الخرنوب. انتفضت لثانية واحدة حين عبرة ومضة بهية ركناً من أركان أعماقها. بعد ذلك استسلمت للنعاس الشبيه بفرخة دجاج وديعة، ذات زغب أصفر، تلتقط بين أناملها فتاتَ الخبز اليابس.

على كل حال، لن تبقى خاتي مرمية طويلاً هناك. قلق سيستبدُّ ببرينا حتى الفجر: «ماذا دهى خاتي وحشمو؟» ثم ستوقظ كرزو: «هيا يا ولدي. أبوك لم يرجع، وأكل الشيطان زوج خاتي. اذهب وقل لعمتك

أننا لا نزال ننتظر أن يأتي حشمو بعقدي. هيا باللّه عليك، ولا تكن كسولاً». وحين سيكتشف الولد عمته النائمة في ساحة دارها سيجتمع خلق كثير هناك. حتى الزرازير التي لا تبارح السلك فوق ساحة بيت الملاّ ستنتقل إلى أغصان شجرة الكينا العالية في ساحة بيت خاتي. فالذي جرى لم يكن قضاءً وقدراً. لا. ثمت من نصب فخاً ضخماً من فخاخ الذئاب وسط الساحة، مربوطاً إلى سلسلة حديدية ذات وتد دُقَّ في الأرض بأكمله ليلجم الفريسة.

الشرطة ستأتي بدورها في معاطف سميكة مرفوعة الياقات حتى الآذان. وبرغم كل جهد عَقدي، الذي سيحاول إظهار الأمر كنوع من انزلاقة قدم أو كخطأ في التقدير، إلاّ أن استنطاقاً صغيراً سيشمل حشمو وأولاده، الذين سيسردون الحكاية كاملة، متبارين في إضافة التفاصيل: «والدنا نصب الفخ. أمُّنا تسميه خصية قنفذ. قالت له أنت خصية قنفذ قبل ذهابها في الصباح فنصب والدنا الفخ. قال لنا: أمكم دجاجة. سترون كيف ستتخبط. ساعدناه في دق الوتد. بعد الظهر. لا. نعم. بعد الظهر. ها؟ عصراً. نعم. بعد أذان العصر. انتظرنا نراقب من النافذة طويلاً فتأخرت أمُّنا»، وسيستفيضون في الكلام أمام الرجال ذوي القبعات، برغم تبرُّم هؤلاء: «فهمنا يا أولاد. فهمنا. ابتعدوا».

سيلتفت عَقدي إلى حشمو مذهولاً: «لماذا يا حشمو؟» وسيرد الرجل المحاط بشرطيين يهمّان بإصعاده إلى السيارة المقفلة كصندوق: «الفخ كان ظاهراً، ولو لم تتأخر خاتي لتلافته. أنا لا أحب دخول هذا الحشد إلى ساحة داري، ولست خصية قنفذ. سأنصب فخين في المرة

التالية». وحين سيصير داخل السيارة، سيُبعِدُ أحد رجال الشرطة، مطلاً من وراء منكبيه برأسه، صارخاً: «يا أولاد، يا أولاد، لا تعبثوا بصندوق آلات النجارة. لم أستعملها بعد».

كان فخاً ضخماً ذلك الذي أطبق على ساق خاتي فهشمه بفكيه المُسنَّنين. نزفت قليلاً وهي غائبة عن الوعي، ثم خدّرها الثلج فنامت. وكان في إمكانها بعد تلك الغفوة، أن تتفقد بيديها الطليقتين جدران الحفرة التي استقرت فيها، في مقبرة الهلالية، ومن ثم أن تفتح ثغرة في أحدها لتقع على حفرة ثانية، تجاورها تماماً، فيها مخدّة ملفوفة بغطاء أبيض. ضحكت طويلاً، ثم اكتأبت وهي تسأل نفسها: «تأخر الملاّ كثيراً. علي أن أوقظ حشمو.. خصية القنفذ».

الفصل الرابع

خيام من الغبار تنتصب على جانبي الطريق حين يأتي هؤلاء الرجل على درجاتهم النارية السوداء. كانوا يأتون ثلاثة ثلاثة في أغلب الأحيان. اثنان منهم لا يتحدثان إلى أحد، بل يجري الكلام فيما بينهما همساً، بلغة غريبة، والثالث دليلهما، وهما يختارانه بتوصية من مخافر النواحي، التي تلتزم، بدورها، بتوصية من مدراء المحافظات.

كان عددهم يرتفع شهراً بعد آخر. وهم يصلون من بلاد نائية إلى العاصمة، على الأرجح، ثم يتوزّعون منها بسيارات بيك آب محمّلة بدراجات نارية على المدن لينطلقوا منها إلى القرى المنثورة كخرز رمادي في عراء الشمال. دليلهم ينادي على الناس في الساحات فيجتمعون ليتم البيع والشراء وسط ابتساماتهم وفضولهم.

ولم يقدِّر أحد من سكان القرى هذه الحمى التي انتابت هؤلاء الشُقر القادمين من ظلمات ما وراء المياه، حيث تعيش الأبقار والخنازير متجاورة، والنساء يسبحن مثل الرجال في سراويل قصيرة، بحسب ما يقال. ولم يخطر ببال أحد، إذ يرونهم يجمعون الخرز والحجارة مقابل أثمان تُسيل اللعاب، إلاَّ أنهم أسرى بطر وضجر من مُتَع الغرب المبذولة، حتى لأنّ الرجل فيهم لا يعرف أية خليلةٍ يختارُ لليلته. وهم، فوق هذا كله، يتبولون، واقفين، كالكلاب، من قلة الحياء. لا بأس، فليشتروا.

كانت الهضبات تتفجر تحت معاول أهل القرى خرزاً من كل لون، ورقائق خزفية منقوشة، وجراراً صغيرة لا تخلو، بعض الأحيان، من قطع معدنية مصكوكة علا نحاسها صدأ أخضر. إنهم لم يكونوا يتقصَّدون التنقيب قط ليجمعوا هذا المتاع المدفون جمعاً نفيساً، بل

يعمدون إلى ذلك بين حين وآخر مصادفةً، إذ يحفرون قبراً فيقعون على المتاع، أو يتعمدون البحث عن قطعة تصلح رقيةً وتعويذةً. كثير من الخرز الأزرق الكبير كان يتدلى على غُرَرِ الأطفال وقد أُلصق بشمع العسل إلى الشعر، وخُرِمَتْ رقائق خزف كثيرة، أيضاً، لتتدلى فوق الأبواب. كل شيء يقعون عليه، عدا الذهب الإبريز، لا يأبهون له، وهم يبتسمون، في سرّهم، إذ يبيعونه إلى هؤلاء المضحكين في بناطيلهم التي تشبه بناطيل الدرك الجوالة على الخيول، الضيقة عند الساق، والواسعة عند الفخذ من جهة الخارج، وبوجوههم المغبّرة، التي تتوسطها نظارات كبيرة، ذات حواف مطاطية تحيط بالعيون إحاطة محكمة تحت قبعاتهم الـ «كُوْلْبَكْ».

قرية «موزان»، الواقعة على منتصف الطريق بين القامشلي وعامودا، كانت الأوفر حظاً من زيارات هؤلاء، فهضبتها العالية تتفتق جيباً جيباً عن عظام، وأشباح ينتقلون من سفح إلى سفح بقناديل يراها أهل القرية، وعن جرار صغيرة ملآى بخرز منقوش. وكان «باران» بن ساري، جد عَقْدي ساري، يلتقط الكثير من ذلك المتاع في أدنى السفح الغربي للهضبة، حيث تجرف سيول الشتاء التراب من حواف القمة إلى كرمه المنتشر على رقعة كبيرة من السفح والسهل معاً، حتى لتبدو الشجيرات، من بعيد، كمخالب تتشبث بالهضبة الهاربة. وما كان يجرفه السيل إلى كرمه المتميز بشجراته الصغيرة، ذات العناقيد التي لا تجاوز حبات عنبها حجم عين الدجاجة، فهو ملكه. وقد جمع «باران»، ببيعه الخرز إلى أولئك الشُّقر، مالاً وفيراً، فأجّر الكرم إلى أخيه «جُوْمَرْدْ»، مقابل نصف حصة مما يبيعه في الموسم في

أسواق القامشلي، ذات الثكنة الفرنسية، ويمَّم بعائلته صوب «عامودا» ليشتري أرضاً تتاخم أرض «حسو المرسيني»، ثم اضطر، إثر القلاقل التي زرع البدو بها تخومهم إلى النزوح صوب «موسيسانا». وحين حطَّ حسين، ابن حسو الميرسيني، الملقب بذي القرنين، في القرية تلك، كان «باران» في أرذل العمر، يتولى إعاشته في داره الكبيرة ابنه «عبد الصمد بن ساري»، فتصادقا حتى ماتا، ومن بعدهما تصادق ابناهما عَقْدي وبيناف، وكان الأول يكبر الثاني ببضع سنين. وقد تجافيا قليلاً حين صارا شابين، إذ توجه بيناف إلى مجالس من يدعونهم بالفقهاء، بينما انصرف عَقْدي إلى الجاه، يلمّه من عرق البغال المحمَّلة بالتبغ بين تركيا والشمال السوري، جامعاً من حوله أفّاقين لا يرجعون إلى صديق إذا أصيب إلاَّ لسرقة بندقيته. لكن عَقْدي يكن للملاّ بيناف ـ وقد صار مُلاّ بعد حفظ مائة حديث، إضافة إلى حفظ القرآن عن ظهر قلب ـ احتراماً لا تبدّده المجافاة ذات الطابع التقيّ.

كان عَقْدي ساري أكبر أخوته، وأوَّل الراحلين بزوجه وابنته برينا ذات الأعوام العشرة صوب مدينة القامشلي، فتبعه، من بعد، نصف سكان القرية إلى هناك، رعاةً ومزارعين، حتى أن الملاّ، الذي كان قد تزوج توّاً بزوجه الأولى، نزح بدوره مع عروسه وأخته «خاتي» التي تعهد هو برعايتها، علّه يجد في المدينة مسجداً يؤمُّ فيه الناس، أو تلاميذ يعلمهم حفظ القرآن. ومن ثم لحق به إخوته، وذلك، تحديداً، إثر اختفاء المعلم ذي ربطة العنق الحمراء، الذي عمل محاسباً لدى أبيهم. وكانوا ميسورين، بعامَّة، إذ خصهم الأب من ماله ما يجعلهم يخوضون به معترك الأرض. وبرغم أن الملاّ لم يلتفت إلى الزراعة أولاً، بل إلى

رسالته التعليمية، غير أنه انصرف، إلى مجاراة إخوته في الزراعة، فأصاب غنى ومكانةً.

كان الفاصل بين بيت عَقْدي وبيت الملاّ بضعة زقاقات وأرضٌ خلاءٌ مديدة، في الجهة الغربية من المدينة، حيث الأفق الطيني الذي يصل سطوح البيوت بالتلة البعيدة لقرى الهلالية. ومن ثم ضاقت الأرض الخلاء، إذ بنى فيها رجال عَقْدي بيوتهم ليجاوروا «سيد التبغ»، غير أن أمراً ما ظل ينغّص على هؤلاء دخولهم إلى بيت ابن ساري، وخروجهم منه، دون أن يُبْدُوا للرجل تذمُّرهم مدى عشر سنين، بل دون أن يسأله أحدٌ في الأمر إلاَّ مرةً واحدة، حين دخل «سطامو حجي عباس» على عَقْدي، ذات مساء، لاهثاً: «بحق النّعمة، ما الذي يسكن الصندوق المُهْمل قرب الزريبة؟» فردّ عليه عَقْدي باحتداد لم يفهمه غير زوجه وأولاده: «إذا سألني أحد عن هذا الصندوق مرة ثانية فليرجع من الباب الذي دخل منه». وانتهت الأسئلة عن محتوى الصندوق فعلاً.

بتأكيدٍ، ثمت زريبة في كل بيت من بيوت الشمال، تتفاوت أحجامها بين ميسور ومعسور. وككل بيت، أيضاً، كان في باحة دار عَقْدي زريبة تضم بضعة خراف وبقرتين تتدلى ضروعهما من ثقل الحليب. وفي الزاوية التي يتصل فيها جدار الزريبة بالسور انتصب صندوق ضخم رُقِّع من قدَمه بألواح ذات ألوان مختلفة، بعضها من صناديق البندورة، وأخرى من خزائن رثَّة أُعيِّدَ استخدام خشبها للترقيع.

كان صندوقاً لافتاً للنظر على كل حال، لكنَّ تتالي المطر والشمس، والرَّشَاشُ الطيني الذي يَنْتَثِرُ من الميازيب القريبة منه،

أحالاه إلى جزء من الجدار، حتى أن الأعشاب ذاتها نمت على الأرض الغنية ببقايا الروث قُرّبه، نمت في شقوق ألواحه أيضاً، كأنما هو وصلةٌ تصل التراب بالتراب، والأرواح الهيِّنة لأعشاب الزوايا الداكنة بأعشاب الجدران الأكثر نضارة.

أولاد عَقدي، وحدهم، كانوا يلقون بنظرات مرحة إلى ذلك الصندوق، وقد يعمدون أحياناً إلى قرعه قرعاً خفيفاً من غير أن يراهم الأبوان، ومن ثم ينصتون بوضع آذانهم على خشبهِ لتتناهى إليهم نحنحة كأنها تخرج من أساس الحائط الطيني، أو من جذور النبات المعرّش. ولربما تمتموا بعد ذلك: «شُدَّ الحزام وسطك.. السيل سيجرف الحمار». بيد أنهم لم يعلنوا لأحد قط خفايا صندوقهم، كأنّ هو جزء من عفة العائلة أو شرفها، إذا أُعلن أهين. وأولاد عَقدي الذين تتفاوت أعمارهم بين طفولة ورُشد، يتّسمون بتعفُّف يمازجه استعلاء ألقى به الأب إليهم بإشراكهم في مجالس الكبار: «عاشروا الرجال تكونوا رجالاً»، فتملَّكتهم، حقاً، صرامةٌ لم تتناسب وأعمارهم، فكانوا يستخفون بما يذهب إليه من هم في جيلهم من لهو صبياني، بل يُقسمون كالكبار، إذا أقسموا، بشرفهم، كأنّما لا محيد عمّا سيتخذونه بقَسَمِهم هذا. وقد صار في مُكْنَتهم، بعد ذلك، أن يطردوا شخصاً من مجلس الأب إذا لم يَرُقهم، وسط فخر خفيٍّ للأب ذاته بقرار أولاده «الرجال»، ووسط نظراته التي تواكب لفافات التبغ التي ينفثون دخانها، من صغيرهم حتى كبيرهم: «التدخين شارةُ رجولةٍ» يردّد عَقدي، وإذا انتحى بأولاده نصحهم: «فليخرج الدخان من الفم والمنخرين معاً».

لقد بقي الصندوق ذاك في مكانه حتى ما بعد مقتل «باقي جواني» على يد «مجيدو»، أكبر أولاد عَقدي، بما يقارب سنة، أي: إلى حين استقرت ابنته برينا، وأولاد الملاّ بيناف في كنفه، بعد اختفاء الملاّ تماماً؛ ولم يمكِّن الحظّ هؤلاء الأولاد أن يستقرئوا ما في الصندوق. ففي الأيام الأولى لحلولهم في دار عَقدي، وقبل أن يجرهم الفضول إلى تلك الأخشاب التي حال لونها، خرجت جثة من وسط الحشائش المتسلقة إلى مقبرة الهلالية، في صمت مطبق، ومن ثم اختفى الصندوق فأُسدل الستار على عشر سنين من أسئلة مختنقة.

لم يُعِرْ أولاد بيناف ذلك الوجوم الذي أحاط بوجوه العائلة انتباهاً، لكنهم لحظوا أن جاذباً ما يستوقف عَقدي وزوجه، وأولاده جميعاً، أمام الزاوية الفارغة التي يحصرها جدارا الزريبة والسور، حيث كان الصندوق الضخم. وكانوا، على حداثة عهدهم بالعائلة التي استضافتهم، يستحون من أن يسألوا. لقد ألحّ عَقدي على أعمامهم، حين اختفى الأب ولم يعد، أن هؤلاء الأولاد أضحوا جزءاً من مسؤوليته: «يحبون ابنتي كأمٍّ، وتحبهم ابنتي التي هي زوج أبيهم، فلا تفصموا ما كان ينبغي أن يكون»، وإذ ألحت برينا، بدورها، على إخوة زوجها أن تنتقل بالأولاد إلى كنف أبيها لم يمانعوا: «عَقدي من العائلة. وأنت أختنا. لا يهمُّ المكان، بل ما ترتضيه القلوب». وهكذا أفرد عَقدي غرفتين من بيته الواسع للوافدين: برينا وابن الملاّ الصغير المتعلّق بها في غرفة، والثلاثة الصِّبيةُ في غرفة أخرى. وقد جرى التعامل معهم بتأنٍ وأناةٍ، حتى ركنوا، حقاً، إلى الرَّحم الجديدة التي أظلَّتهم كورقة الهندباء.

أيام مرَّت قبل أن تندَّ عن برينا آهة صغيرة مخفورة بكلمة «جدي». وقد سألها الصغير الذي يواكبها كظل: «أين جدي يا أمي؟» فردت: «جدي كان في الصندوق يا بوزو»، وإذ لاحظت حيرة الصغير الذي لم يكن ابن رحمها، أردفت: «كان لي جدّ، مثلما كان لك جد. أتعرف من هو الجد؟» فأجاب بوزو: «جدي هو جدي!» فتمتمت المرأة: «نعم. جدي هو جدي. جدي عاش في صندوق». فظل الصغير يردّد: «جدي عاش في صندوق»، وقد التقطتها إخوته فصاروا يرددون: «جدي عاش في صندوق»، من دون أن يعرفوا مغزى لما يقولون، حتى صرخت بهم برينا ذات مرة: «لا أريد أن أسمع ذلك. أأنتم تتفكهون بي؟»، فاتسعت عيونهم حيرةً، ثم اعتذروا قائلين إن الصغير يرددها، وهم يردّدونها تفكُّهاً به، لا أكثر، ففاجأتهم في هدوء: «جدي كان في ذلك الصندوق يا أولاد».

حين حلّ عَقْدي بعائلته في أرض المدينة كان يصطحب والد زوجه، المسمى بابن زاري، أيضاً. نُسي الاسم وظلَّ اللقب: «ابن زاي». كان وحيداً بعد موت زوجه، ولم يخلّف غير ابنة واحدة تزوجها عَقْدي، فأعال والد زوجه، بدوره، لضيق حاله، وكبره. وإذ نزح من موسيسانا نزح به أيضاً، فأفرد في داره التي بناها هناك غرفة للكهل وأكرمه. غير أن الرجل اعتكف في غرفته، بغتة، ولم يعد يفتح الباب إلاَّ لبرينا التي تحمل إليه الطعام.

كان ضيِّق النَّفس منذ البداية، يشكو إلى ابنته سعة الغرفة التي هو فيها: «انظري بحق الله، لا أكاد أرى الجدار من مكاني هنا. أتعتقدون أنني دجاجة لتتركوني في هذا الحقل؟» ، فترد ابنته حائرة:

«وما الذي يقلقك في غرفة واسعة؟ أكرمك زوجي فأفرد لك أكبر غرف بيته لئلا تضيق أنت بها يا أبي». ويسكت الأب الذي جمع كل ما لديه من أوانٍ نحاسية، وصحاف، وثياب، إضافة إلى فراشه وسجادة الصلاة، في زاوية، وترك ما تبقّى خلاءً، ناظراً إلى الزوايا الثلاث الأخرى في ريبة واضحة. لكن، حين باتت حفيدته برينا، وحدها، تتردد عليه في اعتصامه الغامض، انقلب إلى ثرثار، دون أن تفارقه الشكوى. كان يستبقيها طوال تناوله لوجباته: «يا سراجي يا برينا.. يا خبز جدِّك وعينيه، ألا ترين ما يفعلون بي؟»، فتطوق برينا عنقه في ودٍّ من وراء ظهره: «أنت تبالغ يا جدي»، فيكمل الشيخ مقاطعاً وهو يزدرد اللقمة: «كان الجدار الشمالي هنا» وينحني راسماً بإصبعه خطاً وهمياً على الأرض: «حدوده كانت هنا. إنني أضع إبريق الوضوء لصقه أبداً، وها أنت ترين كم من شبر بينهما الآن»، فتنحني برينا عليها بدورها، لتنظر في عينيه معاتبة: «جدي.. لم يبتعد الحائط، ولم يقترب. إذا كنت تريد استبدال هذه الغرفة بأخرى فلا تختلق أوهاماً كهذه. قُلها وأبي سينفِّذ»، فيهز الجدّ رأسه تبرّماً: «والجدار الجنوبي؟ كنت أبلغه بسبع خطوات، والآن تقتضي المسافة ثلاث عشرة خطوة. ها؟ كنت أرى من نافذة الجدار الشرقي، وأنا جالس هنا، الأوراق في ذروة شجرة الكينا، والآن لا أرى إلاَّ منتصف ساقها الباهت. أعتقد أنني لن أرى ذات يوم سوى جدران البيوت الأخرى وقد سدَّت النافذة. ها؟ ماذا تعتقدين؟ سيحولون هذه الغرفة إلى حقل لدجاجاتهم ودجاجات الجيران. من يدري، فلربما جاء أولاد الحيّ أيضاً إلى هنا ليلعبوا. لا. أنت لا ترين شيئاً». وتحاول برينا تهدئة خاطره قليلاً بمجاراته في ما

يذهب إليه: «فلنقس الغرفة يا جدي. تعال، وسنرى إن ابتعدت الجدران غداً. هات حزامك. سنقيس الأرض بحزامك»، فينهض الجدّ باحتداد: «أنت تمزحين؟ القياس لا يفيد شيئاً»، فترد برينا مستغربةً: «ألا تريد برهاناً؟». «لا» ينفثها الجدُّ نفثاً، ويضيف: «من يضمن أن الجدار الغربي، مثلاً، سيظل في جهة الغرب حتى الغد؟» فترخي الفتاة كتفيها كمن عيل صبره: «لن تقول الآن إن هناك من يغير اتجاه الغرفة أيضاً» ، وإذ لا تسمع رداً، بل تلمح الرجل يحدق ساخراً من تحت حاجبيه الكثّين، تُردف: «اخرج بنفسك، وحدِّد الجهات»، فيصفق الشيخ بمرح: «ها .. عرفت ما ستقولين.. أنت أيضاً تريدنني أن أخرج»، ويعتدل في جلسته بعد ذلك: «كل هذا من أجل أن أخرج؛ من أجل أن أضيع. توسّعون الغرفة لأضيع، والآن الخارجُ. هاها. بماذا استدل للرجوع إلى البيت إذا صرت خارجاً؟»

وفي مساء أحد الأيام التالية انتقل الشيخ بثيابه، وإبريقه إلى الزريبة، حيث وجدته ابنته في الصباح، وهي قادمة لحلب البقرتين. سألته عما يفعل هنا، فرد أنه يستحسن الإقامة في الزريبة. حاولت، جاهدة، أن تثنيه عن رغبته الغريبة، لكنه أصر بما لا يدع مكاناً لإلحاح: «ستراقبكم الحيوانات. هنا لن تستطيعوا تغيير المسافة بين الجدران. كنت أنام هناك فتستغفلونني، أما هنا فلدي شركاء في الأقل، وهم يقظون»، وإذ حاولت ابنته إفهامه أن شركاءه، هؤلاء، لن يفيدوه في أي شيء سوى جلب البراغيث، رد بحزم: «سأبقى هنا. أيضرّكم أن أكون بقرة؟» وقد أسرفت الابنة في أخذه باللِّين: «جدِّي، أنت لست بقرة، فلماذا تحرجنا؟» لكنه احتدم أكثر: «أتحرجكم

أبقاركم؟ لا أريد منكم سوى هذه الزاوية. لن أخيف الأغنام. لن أخيف البقرتين. هاتي فراشي فقط، فالمكان واسع هنا».

لأكثر من شهرين كانت برينا تمدُّ جدها بطعامه في الزريبة، ويوماً بعد يوم كانت شكوى الجدّ تزداد كثافة، وثقلاً، كرائحة الروث، من جديد: «لا يتركونني أهدأ قط. أمك تدخل وتخرج كل صباح وكل مساء. الدجاج يتسلل إلى هنا. هذه الحيوانات الناعسة لا تراقب شيئاً سوى مذاودها. يباعدون بين الجدران حتى أنني لم أعد أشمُّ رائحة الروث. ابتعدت البقرتان والأغنام كثيراً.. ها؟ أنت ترين يا برينا، يا خبزَ جدك، أنت ترين. كانت بين قوائم هذه الحيوانات وسجادتي بضع خطوات، والآن ثمت سهل يفصل بينهما. كنت أردّها، من قبل، حتى لا تدلق إبريق الوضوء هذا الذي أضعه لصقي، والآن.. ها.. الآن يا سندَ سقفي أنادي الأغنام لتقترب فلا تسمعني. وأمك، نعم، أمك لم تعد تراني لأني صرت بعيداً لا يُرى. إلى أين سأتجه في صلاتي؟ كانت مذاود الحيوانات في جهة الشمال، وها أنت ترين أنها في الجهة الشرقية. يخلطونها عليّ. اسمعي...»، فيرتفع صوت حفيدته مقاطعاً: «جدي.. أين تريد أن تسكن حقاً؟ ستكون إهانة لأبي إذا عرف أحد أن جدّ أولاده يعيش في زريبة. أبي سيموت من الغيظ». «أوووه» يتمتم الجدّ، مستخفّاً بما تقوله، ثم يمسك بيدها: «برينا، يا بيدرَ جدّك، ألا تستطيعين جرّ الخزانة المرمية هناك؟»، ويشير بيده إلى خزانة مهملة كانت العائلة تستخدمها لحفظ العدس المجروش، والسكر، وأوعية الجبن المملح. وعائلة عَقْدي، وحدها، ممن نزحوا إلى المدينة، استخدمت خزانة كهذه، «ليبدو البيت لائقاً بوجودنا كمدنيِّين الآن»،

كما كان يردد والد برينا. فالبيوت الأخرى تحتفظ بمُؤنها على أرض الغرف، أأكياساً كانت أم صفائح مغلقة، حتى أنها لتستحيل إلى مرتع للدجاج تقتات بسَقْطِ العدس والبرغل. ولكي لا يبدو عَقْدي أقل شأناً من المدنيِّين ـ كما جرت تسمية أهل المدينة على ألسنة الأكراد ـ جعل مؤونة البيت في خزانة خشبية ضخمة، صنعها له الصوفي محمود من عوارض السقف المتبقية بعد بناء بيت عَقْدي نفسه، كما يفعل أهل المدينة تماماً. لكن الخزانة لم تصمد طويلاً، دون دهان وغراء مما يقي الخشب من الدويبات القارضة، فانتفخت الأبواب من الرطوبة، واتسعت الشقوق، وانبثقت ثقوب في الحواف كلها، فألقت العائلة بها خارجاً بعد أشهر قليلة لتغدو مرصداً للديكة تشرف منه على شؤون نوعها، وترفع الأذان الأنيس عليها، برغم السور الذي يجعل النهار أقلَّ سُلْطةً، بأوقاته، مما يقتضيه النهار في العراء المديد عادة.

«الخزانة» رددت برينا، «وبمَ تَنفعُكَ؟» فتمتم الجد: «سترين»، وأردف في سرّه: «لن يستطيعوا التوسيع ما بين جدرانها. سأسمع صرير المسامير المخلَّعة في الأقل». ثم نظر في عيني حفيدته بما ينمُّ عن شطارة معلنة: «سأضع حداً لهذا الهراء يا كحل عيني. سترين». فألوت برينا بشفتها السفلى: «ليكن. أتساعدني في جرّها؟» فارتد رأس الجد إلى الوراء قليلاً: «تريدنني أن أخرج؟.. هاها. يا للعبة». فاحتدت الحفيدة: «والله لا يهمني إن بقيت هنا إلى أبد الآبدين. لكنني لا أستطيع زحزتها وحدي. ألا ترى؟» فتفرَّس فيها الجدُّ قليلاً، ثم أغضى: «ليلاً، ليلاً يا برينا. سنجرُّها حين ينامون».

وفي تلك الليلة، انتقلت الخزانة الخشبية، في صمت لم يقلق حتى

الدجاجات، إلى الزاوية التي يشكل ضلعيها جدارا الزريبة والسور. ومُدِّدتْ على الأرض بطولها الذي يسع رجلاً طويلاً إذا أراد أن ينام، ويكفي ارتفاعها لشخص جالس دون انحناء. دفَّتا الباب إلى الأعلى، وفي وسع أحدهم أن يدخلها برفع دفّة واحدة. والقفل، بالطبع، صار إلى الداخل في الصباح.

لم يعد أحدٌ، حتى برينا، يحفل بالأمر بعد ذلك. شبح الجد يتسلَّل كل ليلة، وحده، وينقل الزاد الذي يبقون حصته له منه في غرفته القديمة التي استحالت إلى بيت للمؤونة والطبخ معاً. لعبة أشبه بتجاهل الناس لأنثى الأرنب حين تختفي عشرين يوماً في جحر آن تكون حبلى، ولا تخرج إلاَّ ليلاً لتقتات ثم ترجع إلى الظلام العابق بانتظار سلالتها، وقد تبقى أياماً، بعد أن تلد، على النحو ذاته، خارجةً ليلاً بصغارها، مختبئةً نهاراً.

أشياء كثيرة اختفت منذ انتقل الشيخ إلى «المَسْكَن» الذي لن يتمدّد قط: صحون وأباريق. مناديل زوج عَقْدي، ومخداتها المطرّزة. حفنات كبيرة من كل كيس من أكياس التبغ الكبيرة، وكانت تظهر، من ثم، مرمية حول الصندوق الخشبي.

ما كان على العائلة غير أن تلمَّ، في الصباحات، بعض الفائض الذي يضيق به «مسكن» الجد، ومن ثم تنسى كل أمر آخر. إنه لا يُقلق أحداً. شبح خفيف كقطرات الماء التي تدلف من السقف لا أكثر. سرٌّ، وأقل من سرٍّ لأنه يُنْسى، لذلك لم يُشر إليه فردٌ من عائلة عَقْدي، ولم يكلِّم عنه، فالمنسيّ منسيّ، إلاَّ مرة واحدة جُنَّ فيها جنون عَقْدي: «أين منديلي الأخضر؟»، وظل يصرخ نصف نهاره: «سأحرق الصندوق»،

فأمسكت به زوجه وابنته: «أي منديل أخضر؟ وما الداعي إلى كل هذا إذا اختفى منديل؟ عندك ألف منها». وقد هدأ الرجل على مضض لأنه لم يهتد إلى شرح مقنع يعادل غضبه باختفاء منديل. لكن برينا كتمت شبه صرخة في اليوم الثاني، إذ وجدت المنديل قرب «مسكن» جدها. كان منديلاً مهترئاً، أو يكاد، ملفوفاً على قطع صغيرة داكنة، يابسة، تشبه أصابع الآدمي. حملت المنديل إلى أبيها الذي يهم بمغادرة البيت، معولة عويلاً خفيفاً في اشمئزاز: «ما هذا يا أبي؟» فتسمّرت عينا الأب على ما بين يديها، متمتماً: «منديلي»، ثم سارع فاختطفه منها: «أين وجدته؟» فلم يلق جواباً، بل نظرة متسائلة في عيني ابنته يشوبها ذعر خفيّ.

لفّ الرجل المنديل على القطع اليابسة، ثم عقد أطرافه عقداً محكماً، وحمله حتى التنور البارد الذي يقع في زاوية السور المقابلة للخزانة الخشبية: «لِمَ احتفظت به طويلاً؟» تمتم وهو يرمي به إلى رماد القاع، والتفت إلى ابنته: «متى ستخبز أمك؟» فردت الفتاة: «بعد ساعة، ربما»، فهز الأب برأسه هزّاً لا معنى له، واتجه إلى بوابة السور ماضياً إلى ما ينتظره.

سألت برينا أمها، مراراً، عما كان في المنديل. وفي كل مرة كانت أمها تنهرها: «متى ستخرسين؟ منديل، منديل»، فتلحُّ الفتاة: «ولماذا جُنَّ أبي حين اختفى؟ وهذه القطعة اليابسة.. أمي»، فتمسك الأم بإحدى جديلتيها حتى ليكاد رأس برينا أن يلامس كتفها: «ماذا تفعلين بشخص يتكلم على عرضك؟»

كان سؤال أمها مدخلاً إلى ما فاتها من قبل، وقد أجابت وهي تخفض بصرها: «اقطع لسانه»، فبادرتها الأم: «وإذا كتب شيئاً بالقلم يمس بعرضك؟» فردت الفتاة: «أقطع أصابعه..». «نعم» همست الأم: «أصابعه». فتملك برينا بعض الذهول وهي تستعيد صورة القطع اليابسة في المنديل، ثم نظرت في عيني أمها: «كانت...»، ولم تدعها لتكمل: «نعم، كانت أصابع الـ...»، وسكتت.

من يكتب ما يستأهل قطع أصابعه غير من يسمونهم «متعلمين»؟ هكذا عنَّ لبرينا أن تسأل نفسها بعدما أرخت أمها يدها عن إحدى جديلتيها. ولما لم يكن قد مضى على مجيئهم إلى المدينة ما يجاوز السنة، أعياها فكرها في استحضار من قد تكون الأصابع المقطوعة أصابعه. لم يختلط بهم أحد يجر شبهة كهذه، ولم تختف أصابع أحد: «لمن هي يا أمي؟» ألحّت برينا على أمها في ضراعه، فلانت المرأة: «المعلِّم.. المعلِّم».

عصف دوارٌ صغير بالمرأة لبرهة: «المعلم». نعم. إنها تذكر المعلم الذي اختفى، بعدما عمل محاسباً لدى حسين بن كُوچري. المعلم ذو ربطة العنق الحمراء. كيف اختفى ولم يسأل أحد عنه؟ حتى أمّها التي كانت عيناها تتدحرجان وراء خطى الشاب لم تنبس بما يشير إلى تساؤل حول اختفائه.

ماذا كان على برينا أن تستعيد في ذهولها؟ ملامح المعلم، أم التواطؤ الصامت لبيوت القرية جميعها؟.. والأصابع؟ آه. ثم مدت يدها فأمسكت بِرُدّنِ أمها: «لماذا يحتفظ أبي بأصابعه؟» وقبل أن يصلها جواب، تدحرج سؤال آخر من سماء أسئلتها: «ما شأننا بالمعلم يا أمي؟».

سحبت الأم ردن ثوبها من يد برينا في هدوء، ثم أطرقت: «أتذكرين ابن علي مشكي؟ تذكرينه على ما أعتقد. كان يعرف القراءة، وكان المعلم يسلمه رسائل إلى أصدقائه كلما نزل ابن مشكي إلى مدينة القامشلي على دراجته. ينزل مرة كل شهر إلى المدينة ليستطلع أحوال سوق الماشية لأبيه، ويرجع في اليوم التالي، بعدما يبيت ليلته عند أقارب أمه، هناك. وبالطبع كان يضع رسائل المعلم في صندوق البريد إلى جهة لا يعلمها إلاَّ ربنا. وبحسب ما قال ابن مشكي فإنه اطّلع مراراً على الرسائل التي نقلها. أحس قلبه أن الكلب مستهتر زنديق، لذلك كان يفتح رسائله، وقد تأكد فعلاً مما ذهب إليه قلبه»، وصمتت لبرهة قبل أن ترفع عينيها الصارمتين إلى برينا: «يا ابنتي.. كان ابن حرام. أكرمناه فبال على الصحن»، لكن برينا فاجأت أمها بسؤال آخر، بدل استيضاحها مضمون رسائل المعلم: «ولماذا كان ابن مشكي يفتحها؟». «الرسائل تعنين؟» همست الأم، فأومأت الفتاة برأسها. «الرسائل.. إيه» استرسلت الأم من جديد: «شرب حليباً حلالاً، لذلك أحس قلبه بريبة، والده تقيٌّ. علي مشكي حمل قيداً محمى على النار بيديه، حين داهم الدرك الجوّالة على خيلهم موسيسانا بحثاً عن تبغ مهرَّب. كان قرب زوجه التي تخبز على الصَّاج حين جاء الدرك، فنادوه ليقترب فقال لهم أن ينزلوا، هم، عن خيولهم ويقتربوا فرماه أحدهم بقيد حديدي على وجهه، صارخاً: سآخذك مخفوراً بهذا على قلة أدبك. فلم يكن من علي إلاَّ أن قلب الصاج عن الجمر ورمى القيد فيه، وإذ حَمِيَ رفعه إلى الدرك: ضعوه في يديَّ إذا استطعتم، فولّوا مذهولين».

لم تخف برينا دهشها من الرواية: «واوو»، لكنها عادت إلى سؤالها: «ولماذا يفتح ابن علي مشكي رسائل المعلم؟» فجذبتها الأم من

كمها جذباً مالت كتف الفتاة معه: «أأنت مع المعلم أم معنا؟» فرفعت الفتاة حاجبيها: «لم تكملي حكاية رسائله يا أمي!» فدفعت الأم بذراع ابنتها إلى الخلف في عصبية: «كان يكتب عن القرية كلاماً.. يا اللّه، ويكتب عني...»، والتفتت حتى صارت في مواجهة ابنتها المتسائلة تماماً: «عني. عني. كنت أكرمه فبالغ في التفسير. قال عن الرجال أنهم بغال ذوو لحى، وعن النساء أنهن دجاجات. وعني..» ثم ازدردت زبد غضبها: «قال عني أنني أكفي عشرة رجال في يوم واحد»، وبصقت إلى ناحية الشمال.

عشر سنوات، كبر فيها من كبر، ووُلد مَنْ وُلد ومات مَنْ مات. عشر سنوات والنباتات تنمو على «مسكن» الجد الخشبي وشبحه، ومن ثم تتسلق السور فاردة أوراقها للجهات الطليقة في ما وراء السور. عشر سنوات والجدُّ يضيِّق المساحة الضيِّقة للصندوق من الداخل. إنه يكره ما يفيض عن جسده. لا لزوم للمسافات مادام الجسد رافلاً في سلام حدوده. لا لزوم إلا لشق في خشب الخزانة يرى منه تعاقبات النهار، والخيط المفضي إلى طعام يقتنصه فلا يتكلَّف شُكر أحدٍ، حتى نفسه.

كان أكثر ما يضايق الجَدَّ في مكمنه الهادئ أن تقف الدجاجات أحياناً أمام الشق الذي ينظر منه إلى الساحة، وهي تميل برؤوسها في حركة متدرجة كمن يدير مفتاحاً في قفل، ناظرة إليه بعيونها المستديرة الصفراء من انعكاس النهار عليها: «ابتعدي» يومئ بيده فتزداد ريبة. «هش، هش» يهمس فتهتز أعرافها القصيرة دون أن تبارح مكانها، فيتوعّدها: «سترين أيتها المتلصّصات». وفي كل صباح، حقاً كان ريش

مّا يتناثر حول الصندوق أيضاً، فتكنِّسه برينا من غير أن يعتمل في داخلها إلاَّ سؤال صغير: «أيأكلها نيئّة؟»

على كل حال، خرجت جثة الجد من الصندوق في صمت محكم، وسط تساؤلات أولاد الملاّ بيناف، التي بدَّدتها، من ثمَّ، زوج أبيهم برينا، لكن دهشهم ظل على حاله: «كيف اتّسع المسكن الخشبي لكل هذا؟» حين أفرغته عائلة عَقدي مما يحوي: ثياب ومؤن تكفي ستة أشهر، من البرغل، والعدس المجروش، واللحم القديد، والتبغ، والعظام.. نعم، العظام. لِمَ احتفظ بعظام الدجاج في مسكنه؟ كانت مبريَّة كأنما سيجعل منها مكاحل للنساء. وقد حلا لهؤلاء الأولاد، بعدئذ، أن يجعلوا من الصندوق مسرحاً لألعابهم، وسط النظرات المستنكرة لأولاد عَقدي المترفعين، قبل أن يختفي تماماً.

باتت رقعة الثلج تنحسر رويداً رويداً. شموس متلاحقة دفعته إلى الزوايا الظليلة حيث استحال إلى تماثيل صلبة تحت أنامل رياح الشمال المتدحرجة من قمم جبال طوروس. أما الأرض فكانت تميع قليلاً في الظهيرات فتنزلق عليها الأقدام في الأزقة، وتتجمد فيما تبقى من أوقات اليوم، ثانيةً، فتنزلق الأقدام على زجاجها من جديد. وكان للخطوات عليها، إذ تتجمد، وقعٌ أنيس، يبشّر بمجيء امرئ أو برواحه: ذلك ما يصغي إليه أولاد الملاّ عادة، وهم متحلقون حول المدفأة في غرفتهم ليلاً، فما دام الكبار يقظين ففي ذلك سلام للصغار. ومضافة عَقدي سلام على كل حال، وهي لا تبدأ شؤون يقظتها إلاَّ مع حلول الظلام، فيسأل أولاد الملاّ زوج أبيهم برينا: «لماذا يحمل الضيوف،

دائماً صُرَراً ملفوفة يا برينا؟» فترد المرأة: «هذه شؤون الكبار يا ملائكتي اللصوص، وحريٌّ بكم أن تلتفوا إلى شؤونكم»، وتسترسل لتصرفهم عن سؤالهم: «سيشتري أبي لزيوان قلم حبر غداً». فيدب الصخب فيهم، بين معترض وفرحان، بينما يكتفي كرزو بنظرة حسد إلى أخيه الذي يصغره.

لقد نسوا أمر الصررُ من تعوّدهم الطويل على رؤيتها في الأيدي، وهي «شأن من شؤون الكبار». ذلك ما اهتدوا إليه دون محاججات أخرى، على كل حال. وإذ وقعوا، مصادفةً، فيما بعد، على ما تحويه، لم يعنهم الأمر كثيراً: تبغ.. عينات من التبغ يبسطها الداخلون بين يدي عَقدي، ومن ثم يخرجون مخفورين بتوجيهات مقتضبة. لكن الأولاد استشعروا، ذات ليلة، حركة أكثر ثقلاً مما تعوّدوا في لياليهم من قبل. حتى أن برينا، التي كانت تسارِرُهم حتى يناموا، خرجت إلى الظلام ولم تعد، فبادر كرزو إلى التسلل مستطلعاً، بعدما ألقى في أخوته كلمة تحذير لا يستهان بها: «إذا لحق بي أحدكم فسأرميه في البئر».

كان جميع من في مضافة عَقدي واقفين، يتبادلون عناقاً حاراً مع شاب لم يستطع كرزو تبيُّن ملامحه من خلل الباب الذي نسي الداخلون أن يوصدوه. وكان في الجمع برينا وأمها، ممسكتين بكتفي الشاب كأنما تحاصرانه خشية عليه من فرار محتمل. وإذ استدار الضائع بين القبلات ألقى عليه السراج شيئاً من ضوئه، فتكشف شعر قصير، متصل بلحية خفيفة حول الوجه، يتوسطها شاربان كثان انحدرا فوق الفم، كما تكشَّفت حطّة سميكة منسلتةٌ حول الرقبة في فوضى، كأنما كان يتقنَّع بها آن دخوله. وفي برهة من برهات ذلك

المهرجان الصغير وقعت عينا الشاب على الصبي المتسلل إلى الداخل بنصف جذعه فقط، فابتسم له، مومئاً برأسه إيماءة ذات ودٍّ، وإذ انتبهت الأم وابنتها برينا إلى حركته، التفتتا صوب الباب، ثم لوّحتا للصبي تلويحة خفيفة تنمّ عن استنكارهما لدخوله المتطفّل، وتهيبان به، بالتلويحة تلك، أن ينصرف، لكن الشاب استوقفه قبل أن يمتثل فيخرج: «هيه.. تعال يا يربوع»، فتردد الصبي بين نداء الشاب واستياء زوجة أبيه؛ أيدخل أم يخرج؟، بيد أن جَهْوَرْ بن ساري حسم اللحظة: «ادخل يا كرزو. سلّم على خالك». «خالي؟» همسها الصبي لنفسه. لا عهد له بأخوال يرتادون بيت عَقْدي. ومع ذلك تقدم في اتجاه الشاب الذي كان جهور يبادره شارحاً: «أنه من أولاد الملاّ بيناف، وهم يسكنون هنا، الآن»، فهز الشاب برأسه: «عرفت الحكاية. اكرموهم»، واستدرك فخاطب عمه جهور بصوت خفيض: «ماذا جرى لأولاد خاتي؟» فرد عمه: «إنهم عند مهمد بن كُوچري، وأبوك يهتم، بنفسه، بأمر حشمو في السجن». وفي غمرة حواراتهم الهامسة تلك، تضع برينا يدها على كتف كرزو، مبدّدة حيرة الصبي: «هذا الشاب هو أخي مجيدو».

بعد ما يربو على سنة عاد مجيدو من «ديار بكر» التركية، متلثّماً، وهاهو، الآن، يلقي النكات في الجالسين: «بغل عَرِيْبُوْ لم يكن ليتزحزح من مكانه أبداً. توقف بعد خروجنا من نصيبين، على تخوم الدغل. البغال الأخرى كانت محمّلة بما يكفي، ولم يكن ممكناً توزيع أحماله عليها لنتركه خلفنا. قلنا لابن مَيِّسيِّ عليك به، فلك طرائق تزحزح نصيبين بأكملها، فما كان منه إلاّ أن أخرج كيس النشادر من تحت عباءته، ودس حفنة منه في مؤخرة الحيوان»، وطارت القهقهة حتى

ارتعش اللهب في الموقد. «حفنة كاملة»، فتلوى الرجال من الضحك. «ما يكفي ليصعد نهر جفجغ مجراه إلى أضَنَهْ..»، فافترت شفتا كرزو عن هأهأة مكتومة وهو ينظر إلى الجالسين الذين يهتزون ككرات.

«و.. هات يا بغل» دمدم مجيدو. «طار. طار. كتمنا أنفاسنا ونحن نرى عريبو يختفي، راكضاً، وراء بغله»، ومسح دموعه التي انسلت من كثرة الضحك: «قلنا بدأت الورطة. سيفيق عسكر الحدود من دجلة إلى درباسية على النهق والعزيق، فكلَّفنا أسرعنا ركضاً: عُمَركَسْبُوْ»، ومد يده إلى علبة عمه جهور، عاقداً منها لفافة: «قلنا: عمر، الحق به بحق اللّه. خسارة بغلٍ، ولا خسارة ابن آدم. فلحق به الرجل. شجاعٌ وابن شجاع عمرُ هذا. لقّم بندقيته وركض»، ثم توقف مجيدو عن السرد، ناظراً إلى الوجوه من حوله، كأنما يستحثهم أن يسألوه عما جرى في ما بعد وإذ وصل إلى كرزو مطّ عنقه: «أتعرف ما جرى؟» فغارت رقبة الصبي بين كتفيه خجلاً من تخصيصه بالسؤال، ثم دارى خجله ملتفتاً إلى برينا، هارباً من نظرات مجيدو الذي استرسل: «لم يعد عمر كسبو تلك الليلة. انتظرناه حتى الفجر، ثم أكملنا طريقنا إلى الدغل حيث سلّمنا البضاعة إلى المنتظرين. بالطبع لم نستطع الرجوع بعد أن فضح النهار المنطقة كلها، وآثرنا البقاء بين الأشجار حتى المساء. جعلنا ساتراً من الثلج حولنا، ولم يدخل بلاعيمنا، واللّه، غير دخان التبغ. وإذ هممنا بالعودة، بعد الغروب، وقعنا على شبح متكوّمٍ في المكان الذي هرب منه البغل. تحاشيناه بحذر بليغ، لكن صوته الهادئ جمدنا: «يا جراء إبليس، الأفضل لكم أن تركضوا»، فهتفنا به:

«عمر أين اختفيت؟» وتقدّمنا منه فألفيناه مخفياً رأسه تحت عباءته، مخافة أن يبين جمر لفافته التي يدخنها في هدوء غريب. ولما أحطنا به، أزاح العباءة عن رأسه، نافخاً في غضب: «أي حمار جئتم به؟» وأزبد قبل أن نسأل، بدورنا، أيُّ حمار يقصد: «أتعرفون إلى أين اتجها البغل؟.. إلى المخفر التركي مباشرة. أإشتريتموه من المخفر؟ وحقّ النعمة لو دللتكم في الليل على المخفر لتُهْتُم عنه، لكن ابن الكلب، هذا البغل، قصد المخفر. بغل. ماذا تقول لبغل؟ إنما هذا الأحمق عريبو.. عريبو»، وأفقنا، حقاً، على سؤال غاب عنا: «أين عريبو؟»، فوضع رأسه بين يديه كأنما يتأسف على حياته كلها: «عريبو من سلالة البغل. سأشق قميصي إذا لم يكن من سلالة البغل نفسه. لقد دخل المخفر وراء البغل. شدهت فاستلقيت في حفرة على بعد مائتي خطوة من المخفر، كاتماً أنفاسي، منتظراً طلقة تأخذ بحياة الأحمق، غير أني لم أسمع إلا عويلاً ونباحاً، وصخباً ظننت معه أن القيامة قامت، فنفذت بجلدي دون النظر إلى الوراء. والله لو صوّب دركي بندقيته إلى ظهري لما استلقيت بعد سماعي ذلك العويل. جُنَّتِ الجنُّ، هكذا ظننت». ولما رأى مجيدو مبلغ الجدّ الذي أصاب السامعين بعد الهزل المقهقِه، اختصر الحكاية على نحو مفاجئ: «في تلك الليلة لحق بنا عريبو ببغله»، فقاطعه الجالسون بدَهشٍ: «عريبو؟»، فردّ: «نعم. عريبو وبغله المحمَّل تبغاً. لحقنا بنا سليمين كراحة يدي»، ورفع يده المبسوطة تحت انعكاس اللهب في الموقد، مديراً بها على كل اتجاه: «أترون؟ لا خدش»، وأضاف: «صُعقنا، ثم توجّسنا خوفاً: كيف نفذت يا عريبو؟ فأجابنا في

هدوء زاد من صعقنا: هربوا. كانوا نياماً، وإذ دخل البغل، ودخلت من خلفه إلى وسط المخفر، هربوا. لو كان لدي بغل آخر لجلبت بناقدهم. قلت لنفسي، هناك، لا مفر. بوغتوا، لكنهم سيطوقون المخفر بعد دقائق، فجلست إلى صحن عدس ساخن. ازدردته كله، ودخنت عشرين لفافة دون أن يظهر أثر لدركي، فأخذت برسن البغل وعدت. ضللت الطريق، ولهذا تأخرت عليكم»، فانفجر الجالسون بقهقهة تشقق الجليد من رنينها في الخارج، حتى أن كرزو اتكأ برأسه إلى كتف برينا وهو يهتز اهتزازاً يرج المرأة في مكانها.

كان عَقْدي الذي يبتسم دون ضحك، على خلاف الجالسين، يختلس بين البرهة والأخرى نظرات أبوية إلى ابنته برينا، التي كانت تكتفي بالابتسام، بدورها محتفية بأخيها لا بما يرويه. ففي وسع الأب أن يلتقط خلجات صغيرة للأسى تحت أهدابها، وأن يعتصره إشفاق يجهد في إخفائه، وهو ليس في حاجة إلى إخفائه، أو تمويهه، على كل حال، فلحيته الكثة التي تسلقت خديه، أيضاً، كفيلة بذلك. لكن عينيه لا تثبتان على شيء، كأنما تحاولان مباغتةَ الجهة التي سيطفر منها قلق مقبل كالعصارة البيضاء التي تطفر من نبتة الخرنوب إذا تقصَّف سُوَيْقُها. إنه يشق لحظته بين غبطته بابنه العائد، وأساه على ابنته العائدة، ويبقى حيران في وسط الشرخ. يحاول التوفيق بحكمة الكهولة فيستعصي عليه كبده. «السيد يلجمُ بحيلة سيادته أن يتوزَّعَ، وأنت سيدٌ عَقْدي». لكن موعد عَقْدي مع وجهي ولديه موعدٌ كجرّة أصابها حجر. وقبل أن يتدحرج كبده كمدحلة الأسطحة إلى هنا وهناك، ينهض ابنه: «أنا عائد يا أبي. وَصِّني»، فيجفل الأب: كيف ضاع كل هذا

الوقت ولم يظفر بشيء. أين كنت عَقْدي؟ ويتمتم الرجل في وقار لا توسل فيه: «ألا تريد أن تبقى وقتاً آخر؟»، فيهز الشاب رأسه: «الكلام دلوٌ يا أبي. ستمتلئ الحارة بالخبر إذا بقيت»، ويوافقه الأب بإحناءة من رقبته، وهو يمسّد على لحيته الكثة بيده.

يخرج الشاب على عجل، غير مودِّع، على عكس ما دخل. إنه يختصر، لكنه لا ينسى أن يلقي نظرة على «كرزو» وهو يغمز بعينه للصبي كأنما يوطّد مودة لم يسعفه الوقت إليها. وفي الحال ينهض الأب وابنته برينا مواكبين، فيسارع كرزو، بدوره، إلى اللحاق بهم في خفة الهرة. وأمام بوابة السور، خارجاً، حيث ترتجف أربعة بغال حاقدة من انتظارها في ذلك البرد، تمتم عَقْدي إلى ابنه بضع كلمات تحثّه على الحذر، وأحاطت الأُخت بعنق أخيها في عناق صامت. أما الأم، التي خرجت متمهلة، فقد استندت بيدها إلى كتف كرزو، على مبعدة مترين من المشهد، دون أن تتفوه بشيء، مقتنعة بالظلام الذي لن يفضح قلبها الصاعد إلى عينيها. وفي اللحظة التي همّ فيها مجيدو أن يمتطي أحد البغال، بعدما اتخذ ثلاثة من رفاقه مجالسهم على ظهور البغال الأخرى، استدرك شيئاً فاته، فالتفت إلى أبيه: «ثمت أمر غريب يجري، في المكان ذاته، دائماً، بين الدغل الممتد من «الهلالية» إلى «نصيبين» يا أبي»، ومسَّد بيده على عنق البغل، ناظراً، دون تحديد، إلى الظلام فوق رأس أبيه: «كأنما ألمح أناساً مضيئين مع بغال مضيئة، ضاربة بلونها إلى شيء من البنفسجي. غريب. دائماً أحاول تحديد ما أرى فتزوغ عيناي. وثمت.. نعم، ثمت من يومئ في مقدمتهم بشيء ما في يده، أقول لنفسي أنني واهم. كل هذا وهم. ما من أحد من رفاقي رأى ما رأيت، لذلك لم أحدث أحداً بالأمر. غريب.. أجَرى ذلك لأحدٍ

من رجالك أنت؟»فردّ عقدي دون أن يتبين ابنه ملامحه في الظلام: «أحاولت أن تطلق النار عليهم؟» «لا» قالها مجيدو، وأردف: «لا أريد إيقاظ الدرك يا أبي». فهمهم الأب: «لا تهتم ما داموا بعيدين عنك. والدغل، على كل حال، مليء بأرواح كهذه. لا تنظر إليها. الأرواح خجولة، وهي تستثار إذ تعرف أنك تنظر إليها. من يدري، ربما تكون أرواح خير. تفاءل يا بني». فلم يعقّب مجيدو على كلام أبيه، بل وضع يديه كلتيهما على ظهر البغل ثم قفز متسلقاً الحيوان بصدره أولاً - لأنْ ما من ركاب للسرج يضع فيه قدمه - ومن ثم استوى فوقه. وإذ تمَّ له ذلك استدار بالحيوان شمالاً، ومضى تتعقبه بغال رفاقه.

مذ قتل مجيدو بمسدسه باقي جواني لم يعد إلى البيت. اختار البقاء في الجانب الآخر من الحدود السورية، قائماً على تنظيم القوافل وبضائعها، وعلى اختيار الرجال لعبور الحدود، حتى اجتمع له رهط أشبه بفرقة إعدام، وكان المضطلعون بالأمر، من قبل، رجال يؤثرون الدهاء على المصادمات القاتلة مع درك الحدود، أو المنافسين الذين ينبثقون هنا، وهناك، حيناً بعد آخر. وقد ظل مجيدو، على كل حال، ضمير الظلام وقصاصه المقضيَّ، لأشهُرٍ بعد ذلك. لا يرفع الواشون إليه اسماً غير مرضيٍّ عنه حتى يدبِّر القدر كيداً لصاحب الاسم، هكذا، في هدوء تتواطأ جدران البيوت، والقرى، على تسجيل أسراره، ثم، وبضربة أحكمتها الغابة، في الخط الوهمي الفاصل بين شجيرات الكينا والصفصاف، تحديداً (بل فوق طبقة الطمي الرقيقة للجدول الذي يتفلّت بصعوبة من شبكة العلّيق، آتياً من المسافة المكشوفة للحدود، غير الآمنة قط، بسبب وجود مراصد فردية ليست غير حفر تحوطها حجارة على غير انتظام، يتلصص من فوقها حرس

لا يأبهون إن كانت قبعاتهم ظاهرة أم مخفيّة). نعم، هناك، في الخط الوهمي المنخفض قليلاً عن مستوى ركام الأوراق، سقط مجيدو بكامل قامته فوق طمي الجدول، وقد حفرت يداه، في محاولتهما الأخيرة أن تحميا الجسم من ثقل السقطة، أخاديد لينة انسربت منها المياه إلى كُمَّي سترته، فبللت قميصه الداخلي حتى المرفقين، وجزءاً مما يستر صدره، بعصارة تميل إلى السواد، أما وجهه فغاص في الماء، على هيئة سدٍّ صغير يقطع الانسياب الرَّخيَّ للمجرى الضحل، ويولِّد الفقاعات الزبديَّة من حوله.

لم يكن في جسم مجيدو أي أثر لضربة، حين قلَّبه أصحابه وتفحصُّوه وَجلِيْنَ. لقد انفصل عنهم، ذلك الفجر، على حين غرة، وهو يتمتم: «ألن يتعب ابن الكلب من مناداتي؟» وإذ سأله أحد رفاقه على اللا تعيين: «من يناديك؟» ردّ وقد ألوى عنق بغله: «سأتبوّل»، وأردف كأنما اشتدّ بَرَمُهُ بحال لا تعني أحداً سواه: «لا يعجبني هذا المزاح المختلط بكلمة «خالي»». ثم غاب طويلاً حتى عثر عليه رفاقه منكبّاً على الجدول يسدّه في حنق غير منظور. ولما حملوه، وسط ذهولهم على بغله، فرّ البغل بالجثة. فرّ سليل الشيطان متجهاً إلى دغل العليق والشربين المتاخم لأسلاك الحدود تماماً. لعبة مُرَّة قصد البغل منها أن يسدل الستار على حقيقة موت ابن عَقْدي، فبات كل شيء نهباً للأخيلة بعد بحث دام ستة أيام، ولم يبن أثر للجثة.

كان عَقْدي حانقاً تلك الظهيرة كدبّور. دخل ساحة داره في ما يشبه الهرولة، هارباً من حكاية «حشمو» كلها: «تعبت.. تعبت من ذبابة عقله». وما كاد يلقي بنفسه على الأريكة الرقيقة داخل مضافته، حتى

اجتمع حوله أولاد الملاّ، وابنته، وزوجه، وبعض أولاده متسائلين، فاختصر المسألة دون أن يرفع رأسه المتكئ على مخدة عالية في يأس واضح: كلما أقنعنا القاضي بشيء خرج حشمو بشيء آخر. استئناف وراء استئناف. مجنون.. لا أحمق.. لا .. حمار.. لا.. نريد تسوية الأمر على أيّ نحو كان، لكن حشمو هذا يدوس على أمعائنا. نقول له: حشمو، قل إنك نصبت الفخ للعصافير وليس لزوجك خاتي، فيرد: أأنا أبله؟ هذا فخ مصنوع للكائنات الكبيرة. فنلكزه: نعرف ذلك، لكن عليك الإدلاء بما يدل على أنك أبله قليلاً ليكون الاستئناف في محله، فيرد ابن الجرو: أأنا أبله لأكون أبله؟» ويستوي عَقدي جالساً، وهو يعقد لفافة ثخينة من علبته الفضية، قائلاً في أسى: «نقول له: أنت لست أبله. غيّر في الحكاية قليلاً لننتهي من هذه المهزلة، فيرد علينا: «وماذا عليّ أن أفعل؟».. آه. نعم. ماذا عليه أن يفعل. افعل أي شيء يا حشمو. نقول له: أخبر القاضي أنك نصبت الفخ للذئاب، للملائكة، لليل، للثلج، لروح أمك يا حشمو. قل أي شيء ولا تتّهم أولادك».

لقد حاول عَقدي، طوال الربيع، الذي تلا حماقة الثلج الكبيرة في ذلك العام، أن يجنّب أولاد خاتي بؤساً يزداد كثافة كدخان الروث الرطب في تنوّر. وبإلحاح من نجمة قلبه برينا، برغم مَلاَلته الواضحة من المسألة كلها، أقسم - ورجل مثله لا يحنث بقسم - أن يناصر يتامى أخت الملاّ. ثم بحث عن مدخل لنصرة حشمو فلم يجد - كما أسرَّ إليه الأذكياء - غير اتهامه بالبلاهة، عسى يخفّف ذلك من الجرم، فَيُفْتَدَى الجاني بالمال من «الحق العام» الذي هو قصاص الدولة وحدها ما دام لم يرفع أحد ضد حشمو دعوى «حق خاص». وحشمو أبله وبسيط في

زعم عَقدي ويقينه، فالأمر، إذاً، أمر تدبير لبق. وقد توصل، فعلاً، إلى حصر المسألة كلها في تغيير شهادة الجاني. نعم. «فليغير شهادته. ليقل، مثلاً، إن الفخ كان منصوباً لذبابة، لحمار، لذئب، للص» قال القاضي لعقدي، وأردف: «انا مقتنع ببساطة الرجل، وسندوّن الجرم كحاصل عن غير قصد. كقضاء وقدر»، ثم أمر القاضي باحتجاز حشمو رهن التحقيق، لا أكثر، مماطلاً بذلك في إصدار حكم جزائي. وقد حاول عَقدي، لأشهر، دفع زوج القتيلة إلى ترداد شيء آخر غير الذي يردده كالببغاء فأخفق. إن حشمو يصر على ما يقول بانفعال واضح، من وراء قضبان غرفة التوقيف: «لست أنا من نصب الفخ يا سيد عَقدي، أقسم بتراب أمي»، فيرد عَقدي مهدئاً: حشمو.. حشمو.. لا يهم من نصب الفخ. نريد تسوية الأمر كقضاء وقدر. ألا تحب العودة إلى أولادك؟» ويطأطئ السجين متأمّلاً: «كنت المقصود يا سيد عَقدي. كيف أقنعك؟ كانوا يلحون عليّ بالخروج، تلك الليلة، إلى الساحة، بحجة أنهم يسمعون حركات مريبة. هاها، شممت الحيلة، أتشمم حِيَلَهم دائماً. والله لو خرجت لوقعت أنا في الفخ»، وهنا يعض عَقدي على كم سترته الرقيقة، محاولاً ألا يخرج عن وقاره: «حشمو.. حشمو.. يا ابن النعجة، أنت تدفع بي إلى الهرب»، وقد هرب فعلاً، حينما استوى حشمو واقفاً من وراء القضبان، محتمياً بها: «لا تَدْعُني بابن النعجة يا سيد عَقدي». نعم. هب عَقدي الذي كان يجلس القرفصاء - ككل من يقابل المسجونين - واقفاً، بدوره، بعد كلمات السجين تلك. التفت من حوله كأنما يبحث عن شيء يسدد به ضربة قاتلة، ربما، أو ليتلافى أن يسمع أحد ماسيقوله: «لماذا لم يقع ابن جرو

مثلك في الفخ؟ وحقَّ اللّه على عبادهِ سأشتري مائة إبريق للمسجد إذا حوكمت بخمس سنين، ومائتي إبريق إذا حوكمت بعشر».

كان لا يزال ملقياً برأسه إلى الوراء حين انتهى من آخر كلمة بللت زاويتي فمه ببعض اللعاب الدبق. رفع طرف حطته ومسح فمه، ثم استوى جالساً، فلم يجد في الوجوه أثراً من تأييد لما فعل. دار على الواقفين من حوله وجهاً وجهاً: «ما الذي يَنبغي أن أفعل يا ملائكة عمري؟» قال ذلك في سخرية ترشح مرارة.

«حاول من جديد يا أبي» ارتفع صوت برينا. «مستحيل» غمغم الأب. عندئذ تناهى صوت كرزو: «أولاد عمتي خاتي أبالسة»، فدفعه أحد أولاد عَقدي من الخلف هامساً: «صوتك مزعج»، فرد الصبي غاضباً وهو يستدير مواجهاً ابن عَقدي: «وأنت تنطح كتيس». وهنا تدخل عَقدي بين الصبيين اللذين تأهبا للخصام: «هذا ما ينقصنا إذاً. خذا سكينين واقتتلا خارجاً»، فطأطأ كرزو، بينما خرج الصبي الآخر مقطباً كرجل أُهين.

«حاول لمرة أخيرة» رددت برينا في توسل خفي، فوضع الأب رأسه بين يديه، لاجماً إجابته الغاضبة، ثم رفعه من أثر الجلبة التي تناهت من ساحة الدار، ممتزجة بعويل رجولي: «مات مجيدو».

لم ينتظر الرسولان مواجهة الأب بالأمر، ولم يتصنّعا المداورة الواجبة، عادةً، في إطلاق خبر صاعق كهذا. لقد أعولا مذ توسطا الساحة، وصرخا معاً: «مات مجيدو»، كأنما يخبران الزريبة، والسور، والبئر، والعشب المتمايل على حواف الأسطحة. ثم شد كل منهما حطته على رأسه كدليل على فداحة المصاب، وتراخى كفزاعة

عصافير، منتظراً رد فعل مَنْ في البيت. ولم يَطُلْ الصمت إلاَّ لثوان: هصرت الأجساد الأجسادَ وهي تخرج من المضافة. الأفواه مفتوحة وخرساء من الصدمة، والعيون وحدها تستفسر. غير أن مشهد الرسولين خيَّبَ أيَّ أملٍ في خطأ محتمل.

كان عَقدي آخر من خرج بوجهه الذي خلا من أي لون. اتّكأ على عارضة الباب بظهره، ورفع إحدى يديه في صمت إلى صدره، معتصراً ثوبه، فوق القلب تماماً.

عويل العائلة خافت في الساحة، كأنما تمتص الرئات أكثره إلى الداخل. الدجاجات مطت أعناقها وقد توقفت، كلٌّ واحدة حيث هي، عن بلاهتها المحمومة. يد برينا، وحدها، عَلَت الجمع المنحني، في اتجاه الفراغ العالي، متضرعةً، أو محاولةً الإمساك بالمغزل الأبدي الذي يبرم الخيوط ثخينة أو رقيقة بحسب اللعبة وأصولها. وكان ثمة في الأعلى، فوق الساحة تماماً، على نحو يسدّ السماء، جاروش كبير تتناثر من حول رَحَيَيْهِ فتافيت عدس أحمر.

قالت زوج عَقدي إنها ستطبخ عدساً للأولاد بشحم النعاج، وأدارت المقبض الخشبي المثبت عمودياً في الحجر المستدير. كررررر. كر.. ررر. رَحَيان من البازلت الأسود تدور إحداهما فوق الأخرى. اليد الحرة لزوج عَقدي تلقِّم الثقب الواسع في الرَّحى العليا للجاروش بحفنات من العدس. كررررر.. صوت أنيس في ذلك الظل الصباحي للربع الأخير من ربيع العام. فراخ الدجاج، التي نما الريش على أجنحتها دون أجسامها العارية، تقترب في ذلٍّ واضح من الجاروش. تقف منصتة إلى الصوت وقد حسرت رقابها الرفيعة إلى داخل أقفاص

صدورها، قبل أن تتلقّم، بخفّة السارق، فلقة عدس سقطت هنا أو هناك. أم برينا تهشّ بيدها، بين برهة وأخرى، على اللصوص الجسورة فينفرط عقدها الحيواني. لكن الدائرة تلتئم من جديد: فراخ في الأسبوع الثاني من ولادتها. جلود زرقاء أو بنفسجية. ريش على الفخذين والجناحين، والجزء العلوي من الرقبة. لقد تعرّت من زغبها أولاً، ثم اكتست، شيئاً فشيئاً، ذلك النسيج الذي يدلُّ على نوعها. لا خطأ قط. ما من فرخة نما على جلدها الرقيق شعر أو وبر، وما من فرخة اتخذت مزاجاً غير الذي للدجاج، إذ لم يقل أحد أن إحدى هذه الفراخ عفّت عن النخالة، أو الحنطة، أو العدس، أو الخبز الفَتيِّت، لتطالب بالشواء، أو بالثريد، أو ببقول مُبتلَّةٍ هكذا، ارتأت، منذ وقتَ لا ندريه، أن تدور من حول الجاروش لتختلس من المرأة الرحيمة ما تستطيع نيله من مكان آخر، دون اختلاس.

كان ثمت تواطؤ خفي بين زوج عَقْدي وفراخ دجاجها: لا تنظر إليها حين تسرق العدس، ولا تسرق الفراخ العدس حين تنظر المرأة إليها. لكن، كان واضحاً أن الفراخ تلتزم لعبتها العادية، دون أن تلفت نظر المرأة إلى شيء غريب يختلط بالعشب المائل إلى الجفاف في الزاوية التي يؤلّفها تعامُدُ السور والحظيرة. ولما طالت المناوشة بين المرأة وفراخ دجاجها من حول الجاروش - هي تهش بيدها، وهنَّ ينتكسن قليلاً ثم يتقدّمن - حزمت الحيوانات الصغيرة تلك أمرها على دفع الملهاة، التي لن تنتهي بطعمها الشبيه بطعم العدس، في اتجاه لم يرسمه ذلك الصباح لدورته العادية. فلقد انفضَّت عن الجاروش، جميعاً، باتفاق أخرس، ومضت إلى الركن ذاك، حيث العشب الكثيف

الجاف في الزاوية التي يؤلّفها تعامد السور والحظيرة. أخفضت أعناقها لبرهة ثم رفعتها لتتمايل الأعراف الحمراء كمروحة من فوق رؤوسها المذعورة.

أكانت مذعورة، أم تعمدت صخبها الفاضح؟ ما من شبح يخفى عليه قصد تلك الكائنات المضحكة بريشها غير المكتمل، لكن كان على ساحة بيت عَقْدي أن تشهد كمالَها الربيعيَّ قبل هبوب الصيف بزيزانه الماجنة، لذلك التفتت المرأة إلى الزاوية التي تطايرت منها الفراخ كأنما قذفت بها الأرض قذفاً. وقد خطر ببالها، للوهلة الأولى، أن ثمت أفعى، أو عقرباً أجفلهن، فقامت تتفقد العشب. ولم يطل بها بحثها، إذ نكصت مجفلة بدورها، صارخة وقد عمدت أن تحمي رأسها بذراعيها.

دأبت زوج عَقْدي، منذ طفولتها، إلى الحركة ذاتها إذْ تُفَاجأ: ترفع ذراعيها على نحو يتساوى فيه العضدان مع مستوى الكتفين تماماً، بينما ينحني الساعدان انحناءة يشكّل فيها كل منهما زاوية حادة في المرفق، أي: تتجه الكفان إلى الرأس من الجانبين، في محاولة لحمايته من شيء، أو لتطويق ما يعتمل فيه من صدمة. لكنها، في اليوم الذي نعى الرسولان ابنها «مجيدو» لم تعمد إلى ذلك. تهدّل كتفاها حتى ليظنُّ الناظر أنها نسيت ذراعيها في الغرفة آن خروجها، وغشي لسانها طعم حرِّيفٌ يشبه الوخز. وكادت أن تتداعى فطوّقها بعضهم مُسْنَدين. «مجيدو، أهذه هديتك لنا؟» أطلقتها على غير تبصُّر فيما تقول، ثم التفتتْ يميناً، لتسأل دون تخصيص أحد بسؤالها: «ماذا جرى لعريسي أنا؟»

أقسم «ميرڤان»، وكرر: «والله يا سيد عَڤدي
يتعب ابن الكلب من مناداتي»، سألته: من يناد
رد الغريب ـ سأتبوّل. من يذهب ليتبول يا سيدي
اً هكذا، بل يبدو عجولاً. نعم. حين يحتقن أح
م، أما أن يتمتم: «لا تعجبني كلمة خالي فهذا ..
يرد الحرّ عن عنقه: «هذا شيء مضحك». فار
» الذي دخل معه إلى الساحة حين نعيا مجي
قاله يا ميرڤان. كان يردد مراراً، على نحو ماز
ردد، بدورنا، إذ يقول ذلك: كن خال الهواء إذا
ة، والغابة، والحدود كلها. نعم. فترتسم على و
ة، ويرد: أنا خال هذا الحارس، ويشير بيده
ن الغابة». وأردف: «في الليل، يا سيد عَڤدي،
شفافية من كل ما هنالك، وفي النهار تبدو دا
يتحرك حركة ثقيلة. دائماً .. نعم يا سيد عَڤد
نقلب إلى شيء جاد. مجيدو يبدأ المزاح، كلّما
لبقعة، ومجيدو يقطع المزاح، حتى كدنا نظن أنه

يا سيد عَقدي. نتف الأوراق كانت جديدة كأنما مزقها أحد لتوه، ونثرها هناك»، وتوقف ليرى أثر كلامه في الوجوه، فعاجل ميرڤان سكوت زميله: «أنت نسيت يا رشو ما كان يقوله منذ أن ذاب الثلج. أتتذكر ـ ها ـ: أنا خاله؟ خال من نسأله، فيرد: خال الذي أنا خاله. نعم يا سيد عَقدي. كان يردد الكلمة في مرح، فماذا جرى ذلك اليوم ليبدو متأففاً ضيق النفس من أن يكون «خالاً»؟ اللّه أعلم».

«أليس هذا صوت أمي؟» سألت برينا أولاد الملاّ بيناڤ، وهي متأكدة أنه صوت أمها. كان سؤالاً أخرق على كل حال، لكن في إطلاقه، بصوت مسموع، بعض المراوغة في أمر مؤكد دون ريب: الصوت صوت أمها، فلماذا تسأل برينا هؤلاء الأولاد إذاً؟ لقد توقف الجاروش عن الطحن، ثم علت الصرخة بعد قليل. ولم يلحظ أحد، بالطبع، تلك البرهة الصامتة الفاصلة بين الطحن والصرخة، إذ التقدير أن يفطن إلى ذلك من يراقب الحدث، لا من يغفل عنه. وكانت الفراخ وحدها، بحسب هذا التقدير، قد فطنت إلى الأمر أولاً، لكنها كانت مشغولة بتدبير حيلتها، فَسَهَتْ عمداً عن سكوت الجاروش لتتهيأ للعويل المختنق بطعم الذعر.

ماذا كانت تقول برينا للأولاد في تلك اللحظة؟ لا يهم بالتأكيد ما كانت تقوله وهي تحك بإصبعها، من تحت منديل الرأس، شحمة أذنها، أما الأولاد فبدوا غير عابئين بكلام المرأة إلا قليلاً، مُلْتَمّينَ على طائِرَيْ حَجَلٍ ينقران بجسارة كل إصبع تمتد إلى قفصهما.

هكذا كان المشهد بعامة، حين صرخت زوج عَقدي، لكن مَنْ يُؤْثرُ التمادي في الإحاطة بما احتوت الساحة، آنئذٍ، فسيقع على شؤون

صغيرة لا تقدّم ولا تؤخر في الرواية إذا روتها امرأة من الحيِّ الغربي مثلاً، وهذا ما لم يقع بعناية الوجهاء الطِّيِّفيّين ممن تنفع شفاعاتهم المخبأة في الشعاعات.. نعم: الشعاعات.

كل بيت له شعاعه، والأبواب، والشبابيك، عادة، هي مرتع هذه الشعاعات، غير أن بعضها يدلف من السقوف أيضاً. وللتفصيل يمكن الإشارة إلى ما يلي: الأبواب الخشبية ملآى بمراكز داكنة صلبة تتمايز عما حولها، وهي، ببساطة، عبارة عن طفرات كانت تشكل غصوناً، في ما مضى، في جذع الشجرة الأم. وحين يسوي النجّارون لوائح الخشب بمناشيرهم، تبدو الأمكنة التي انبثقت منها الغصون في الجذع على شكل مراكز لولبية، وهي غير ثابتة بعامة، يمكن دفعها بإصبع اليد لتسقط من الجهة الأخرى، ويبدو مكانُ كل واحدة ثقباً، كأنما لم تلتحم الغصون في الأساس، بمحيطها. إنها مسألة مرسومة على كل حال، فلقد حاول الغصن في انبثاقته أن يستقل عن الجذع فاستعصى عليه الأمر، بحكم أنه لا يملك، إضافة إلى إراداته الخفية في استقلاله، ما يمكّنه من ذلك: أي: أن يركض وحده إلى تربة أخرى، ويحفر حفرة يودعها جذوره، ثم يردم التراب عليها، لينصرف إلى تأملاته ـ كعادة النبات ـ في الحكمة من أن تكون الفاكهة سبباً للحروب.

هذا بعض مما أُشيِرَ إليه في أمر الشعاعات، والأمر الآخر أن النوافذ تترك في ثناياها مسارب أيضاً. فالنوافذ محض كوى كبيرة، ذات إطارات خشبية تضم رقائق من الزجاج، يسدل عليها، من الداخل، ستارٌ ذو قسمين، ومن الفاصل بينهما ينحدر شعاع ما. أما السقوف فذلك أمر متروك لما يولّده الدَّلَفُ الشتائيُّ، والربيعيُّ، من

ثقوب لا تراها العين في أول الأمر، ومن ثم توسّعها اليعاسيب صيفاً، فتقتحمها الشمس بفضولها ومكرها. غير أن الأمر قد ينسحب على كل جهات البيت: أي: الجدران أيضاً، على النحو ذاته الذي يجري للسقوف. لكن يبقى الأكثر مثاراً للتأويل ما يتخلل أرض الغرف نحو الأعلى، تلك الأرض الكتيمة عادة، المجبولة بآلاف الزوابع من التراب الأعمى، المرصوصة بالمداخل الحجرية، والأرجل، وقهقهات جبَّالي الطين، الذين ابتلَّت لفافاتهم، حتى منتصفها، باللُّعاب، وهم لا يبعدونها عن شفاههم دون أن يبلغ الجمر مبلغاً يحرقها عن قرب: هكذا، نعم، تبقى اللفافات مشتعلة إلى أعقابها وهم سادرون في حركتهم الخرقاء كاللقالق؛ تنزل ساق وترتفع ساق في العجينة الداكنة، السمراء، التي ستغطي جدران البيوت، وأرضياتها.

من الأرض، إذاً، في اتجاه الأعلى. أيُّ شعاع شيطاني ينتفض تلك الانتفاضة من وسط الظلام السحيق في مجاهل الطين؟ من الأرض في اتجاه الأعلى الأبكم، إذاً. من الأرض؛ من الجبلَّة الأكثر فوضى كَرُدْني ثوب زوج الملاّ في فزعها، ينبث الشعاع الذي يُلَجِمُ لِسَانَ الراوي.

هكذا، إذاً، كان المشهد الذي يحوي، بعامَّة، شؤوناً صغيرة لا تقدِّم ولا تؤخر في الرواية على كل حال، وهي، بحسب ما يمكن أن يُسْمَعَ أو يُرى، في الساحة، لا تجاوز الخوار الغريب للبقرة في الزريبة؛ واهتزاز الدلو المعلّق بالعتلة فوق البئر، كأنما هزّت الحبل يدٌ من القاع؛ ومرور فراشة مستعجلة؛ وشتيمة من داخل غرفة أولاد الملاّ، حيث يبقى الأصغران وحدهما بعد أن يذهب الأكبران إلى المدرسة؛ ورنين قطعة معدنية على شيء صلب، ولم يكن ذلك الرنين إلاَّ من أثر سقوط قرط

من أقراط المرأة، إذ قامت لتستطلع الأمر، فوق حافة الجاروش الحجري. وقد تطلعت زوج الملاّ، حين سماعها الصوت، إلى الأسفل، بعدما كان نظرها مثبتاً على الزاوية التي أجْفَلَتِ الدجاجات، فرأت قرطها غائصاً حتى منتصف حلقته في العدس المطحون. لكنها ارتأت التقاطه في ما بعد. وهكذا تقدمت صوب الزاوية ذات العشب، وأطلقت صرختها، وهي تحمي رأسها بذراعيها كأنما يحاصرها كربٌ مخيف.

كانت برينا ما تزال تسأل نفسها، على نحو كاللَّمح، السؤال ذاته: «إنه صوت أمي، فلم أسأل الأولاد لمن يكون؟» إنها برهة مضحكة بين سؤالها الأبله وخروجها من الباب. وقتٌ يشبه طرطقة اللَّبان في الفم. وإذ أدركت أمَّها قرب الزاوية التي كان يشغلها صندوق جدّها، في ما مضى، أمسكت بردنها تهدِّئها، بينما ظل وجهها منصرفاً صوب ما علمت أنه مصدر الفزع، ومن ثم تركت الرُّدن مأخوذة بما تراه من خلل العشب المائل إلى الجفاف، وتقدَّمت قليلاً لتتأكد عن كثب، فارتدّت مثلما ارتدّت زوج عَقْدي من قبل، وهي ترفع يديها إلى وجهها لتقيه من هبوب المشهد: كانت الزاوية ملأى بأصابع منبثقة من التراب، داكنة الجلد قليلاً، وتتحرك حركة بطيئة كأنما تومئ إلى أحد.

لن تقارن برينا في ذاكرتها المستديرة كفوهة البئر، يقيناً، هذا الحقل من الأصابع إلاَّ بالبذور الأولى التي رأتها في المنديل حول مسكن جدها، ذلك المنديل الذي أثار جنون أبيها، وجنون الماضي الذي استثاره ابن علي مشكي باطّلاعه على رسائل المعلم المغلقة، في الغابر القريب. وبعد برهة الدَّهش الأول، الممتزج بطعم يصعد مما وراء الطعم، قائم بذاته، متصلٍ بمفاجأة غير الأليف وطفراته، خطر ببال

برينا، وهي تدفع بأمها لتستدير عن المشهد، أن تنظّف الزاوية من ذلك الزرع الغريب. وبعدما قادتها، في سرعة، إلى إحدى غرف المنزل، عادت ثانية بمعزق كانوا ينكشون به التراب من حول الشجيرات، عادةً، وأهوت على الأرض، مغمضة العينين، بضربات أودعتها الكثير من الفزع والاشمئزاز معاً، حتى غطتها زوبعة صغيرة من التراب المتناثر، والعشب وما يحتويه.

لو مرّ محراث تجرّه عشرة ثيران على أرض الزاوية تلك لما عدَلَ فعلُهُ فعلَ برينا. والثيران، بتقدير بسيط، لن تصطدم بالجدارين اللذين يِشكلان الزاوية على كل حال، وهذا ما فعلته زوج الملاّ. فآثار المعزق جاوزت الأرض إلى جدار الزريبة وجدار السور، كأنما حاولت المرأة أن تمحو الركن كلّه؛ أن تمحو ماضي هذه الزاوية وحاضرها. وقد حالفها قصدها يوماً واحداً، لا غير. ففي اليوم الثاني، وفيما حاولت برينا وأمها، معاً، طيَّ ذعرهما، وإدراج ما رأتا في عقَدِ ما تحفظان من أسرار خاصة، علت صرخات أولاد الملاّ كمثل صرخَاتَ الفراخ في اليوم الذي سبق. وعلى النحو ذاته الذي حمت زوج عَقْدي رأسها بذراعيها، حمى عَقْدي رأسه بذراعيه، لكن دون رفعهما عالياً إلى مستوى الجبهة والعينين، لما يعني ذلك، دون قصد، من انتفاص لجسارته.

لقد رأى عَقْدي، أيضاً حقلاً صغيراً من الأصابع، في الزاوية التي لم يعرف أن ابنته حرثتها حرثاً من قبل، بعدما لفت ناظريه أولاد الملاّ بصراخهم، وإجفالتهم.

تقول زوج عَقْدي لابنتها برينا أنها لم تشهد - ولم يحدّثها أحد أنه شهد - تسارعاً في النمو كهذا. وتضرب الفُطْرَ مثلاً، كاستثناء، دون أن

تجد إلى غيره سبيلاً: «الفطر ينمو بتسارع. الفطر، نعم يا ابنتي. اغسليه بماء بارد، وادلقي الماء حيث تريدين، وسينمو الفطر بعد أربعة أيام على الأقل. أربعة أيام.. وليس، كهذه الأصابع، بعد يوم واحد».

كان مَثَلُ الفطر أمراً عادياً: يعلق به طلعُ كثير، فإذا غسل نما في المكان الذي يجرف الماء الطَّلْعَ إليه، في مدة لا تجاوز خمسة أيام من أيام الربيع بالطبع. لكن، كان في ودّ برينا أن تذكّر أمّها أن مقارنة النبات بالأصابع لا تعنيها. «فلينمُ الفطرُ في يوم واحد. فلينمُ في ساعة واحدة» تقول برينا في قرارها، وتنظر إلى أبيها في أسى، مضيفة، في قرارها أيضاً: «إن ما نتحدث عنه هو أصابع آدمية يا أمي.. أصابع آدمية».

من سيعيد ترتيب البيت؟ زلزلة صغيرة ضربت عائلة عَقدي بعد انصرافه إلى مترين مربعين لا يتعداهما بمشاغله، في الزاوية التي شغلها، من قبل، صندوق أبي امرأته. لكن تقدير العائلة بأن في مُكْنَةِ جهور ـ أخي عَقدي ـ مثلاً، أن يعوّض على العائلة حضور رجل على قَدْرِها، وفي أن ما تملكه من جاه لا يحوجها إلى سؤال أحد، لم يكن في الحجم الذي تقتضيه المأساة: لقد خلط «جهور» الأمور، فأقعد الحي الغربي وأقامه، واقتضت حال عَقدي أن يتم تبذير الجاه في شراء الألسنة عن إشاعة ما يجري، حتى لقد جرى الكَرَمُ، في ذلك الزقاق، جَرْيَ السيول الصغيرة في الشتاء: لكل بيت مؤونة من القمح تزيد عن خمسة أكياس، وما يكفي ستة أشهر من التبغ، فلم ينطق أحد، بعد ذلك، باسم عَقدي إلاّ شاكراً. غير أن عَقدي كان منصرفاً إلى شؤونه، تاركاً لأخيه الجَهْمِ إصلاح الظاهر في الأعين الفضولية، أمّا الخفي الذي يحجبه السور فذلكَ أمرٌ على خللٍ لن تُصلِحهُ آلهة الشمال.

دون إسراف في التقديم أو التأخير، نصب عَقدي خيمة فوق المثلث الذي شغله صندوق ما ذات يوم، وزوّدها بسرير وبإبريق للوضوء، ومن ثم قبع في داخلها لا يخرج قط. ولم يكن من شيء يدل على وجوده إلاّ صرخته بين حين وآخر، طالباً تزويده بمقص أكبر، من تلك المقصات التي يشذّبون بها غصون الشجر، ويجزّون الصوف، أو طالباً فؤوساً ومعازق جديدة. ويقيناً لو جرى حساب ما دخل الخيمة من مقصات وفؤوس ومعازق، لانصرف الظن إلى أن جيلاً من البستانيين يهيئ العدة، داخل ظلام الخيمة، لاقتحام المسافة ما بين نهر «جغجغ» والخابور.

هكذا، ببساطة كانت صرخة الأب تعلو فيأتي ما هو مطلوب على الفور، فيُلْقَى أمام باب الخيمة إلى أن يأخذه عَقدي تحت ستار الظلام، ومن ثم تتكوّم، صباحاً، مئات من الأصابع، كقرون البازلاء، خارج باب الخيمة أيضاً، فيأتي من يأتي، في ما يشبه الواجب اليومي، ليجمعها بمنكاش صغير في حفرة أُعدَّت، خصيصاً، لإحراقها.

كل يوم يرتفع النشيش الذي يُحدثه احتراق لحم نيئ، باكراً، قبل ذهاب أولاد الملاّ وأولاد عَقدي إلى مدارسهم. وكانت برينا وأمها تتناوبان المهمة دون سؤال عن انتهائها. تفكّرتا في الأمر لأكثر من أسبوع ثم توقفتا. بذور لا تنتهي. قطافٌ في الصباح ونماءٌ في الليل. تعاقبٌ شيطاني يغري بالاستسلام لا بالسؤال. وحال المرأتين هي حال عَقدي تماماً. فقد استبدّ به غضب أخرق بعد يومين من الذهول، واستحال الغضب، من ثم، إلى شأن لا يتعدى مهمة أسندها أحدهم إلى عَقدي، فاستغرقته.

نعم. ذُهل حين رأى الأصابع أول مرقة فقطفها، فنمت في اليوم الثاني، فقطفها. ولما أدرك السخرية التي تلوّح بها الزاوية بين الجدارين مثل ورقة من أوراق المُلْكيَّة الميريّة، استشاط غضباً، فحفر الأرض، وردمها، ورش عليها الكيروسين، وخبأ تحت السور بضع ترقوات من ترقوات الأغنام كُتبت عليها آية الكرسي، وبال هناك، بل ترك البقرة تبول بدورها، من دون فائدة، فاستسلم. جمع بضعة مقصات، ومناكيش، ونصب خيمة فوق مثلث الزاوية. ثم ألِفَ ما كان يجري في الداخل المظلم كأسئلته فلم يعد يخرج من الخيمة.

كانت العائلة، تسمع، في فترات متقاربة من أيام ذلك الاعتكاف، جدلاً تتصاعد وتائره نبرة بعد نبرة. فالجُمَلُ المتقطّعة، أول الأمر، باتت تتسع وتسترسل، والصوت المضطرب، الخفي، بات أكثر ثقة ومناورة: «لا يهم. لا يهم. أعرف حدودي» تلك كانت الكلمات الأثيرة في الجدال المحتدم داخل الخيمة، بل تلك كانت لازمة كل انتصار يمكن استشفافه من صوت عَقْدي الواثق. ولما همّ جهور، مرة، أن يداهم الخيمة ليرى جليس أخيه، اصطدم بستار خشبي ارتفع، خلف القماش الخشن، بإحكام: لقد سوَّر عَقْدي حدود ظلامه كما ينبغي. بعد ذلك نهت العائلة جهور عن اقتحام «المقام المستور»، مضيفة على خلوة الأب، في رهبة، ما يليق بها من قدسية السرّ: «جهور» همست زوج عَقْدي إلى أخي زوجها، ولما مال بعنقه صوبها، دون أن ينظر إليها بعينيه، كما يفعل الرجال أمام المحارم بتعفّف ظاهر، أضافت: «احترم أخاك». فهز الرجل الجهم برأسه موافقاً، غير أنه خلط الأمور، فأقعد الحيّ الغربي وأقامه.

«أنت السبب». كل مساء ترتفع الكلمات نفسها: «أنت السبب»، حتى لتكاد الخيمة أن تنفجر مللاً. «أنت لا تفهمنا». عَقدي يسترسل دون أن يترك لجليسه الخفيِّ فرصة للكلام: «أنت لا تفهمنا»، ويدمدم: «لا تعبر دغل الشربين. نحن نفهم ما الذي يخطر ببالك. أخذت أكثر من كفايتك، حتى أنك لن تترك لنا إلاَّ حدود هذه الأسوار الضيقة.. اسمع»، وتطرطق الألواح الخشبية داخل الخيمة وقد تباعدت في عبور عَقدي، ثم يخشخش قماش الخيمة المنسدل على الألواح الخشبية، لافظاً جسد الرجل إلى الظلام.. نعم. فيما يشبه الهبوب المفاجئ يخرج عَقدي من الخيمة ليلاً، بعد إطلاق كلمة «اسمع»، وهو لا يضيف شيئاً إليها، كأنما يريدها وعيداً صرفاً.

ما من أحد يرى عَقدي تلك الساعة التي تشغل المكان ذاته في كل ليلة: إنها ساعة جدل لا أكثر؛ ساعة ظلام تصغي العائلة إليها في إهمال بعدما كانت تصغي إليها في جدٍّ صارم. الخيمة وحدها تعيد ترتيب الظلام، واللغة، والصوت. الخيمة الملولة تودّ أن تضيف إلى الحوار شيئاً آخر، إنها ترصد ساحة المنزل نهاراً بكل ذلك العبور المضحك لكائناتها: بشر يتهامسون، أو يتشاتمون، والصِّبية منهم يتجاورون ناظرين شزراً بعضهم إلى بعض. النساء مشغولات بشد الأحزمة على الخصور في قسوة لتبدو ضامرة، والدجاجات تتغامز قبل أن تلتقط النحل في المساحة الرطبة حول البئر، حين يأتي شارباً ما ينسل من الدلو المثقوب. وللظلال شؤونها أيضاً في الساحة، فهي ترسم حدوداً واضحة من حول أشكالها وحجومها، بلون ضارب إلى صفرة فاتحة، كأنما تحذّر كائنات الضوء من الاقتراب.

الخيمة ترى هذا نهاراً، وفي الليل تتململ من الحوار المُرِّبك، بل تهمُّ أن تنكمش فتعلق أطرافها بالسياج الخشبي المرتفع في الداخل، لصق حدود القماش السميك تماماً. «آه عَقْدي. توقّف قليلاً عن ترداد هذه الكلمة المملة» تهمس الخيمة لنفسها، أمّا آخر من يستسلم للنوم من العائلة، ويكون شاهداً بأذنيه على الحوار المترجرج في الظلام، فليس في وسعه إلاَّ الشتم: «أعندك غير كلمة «اسمع»؟ لو تختنق بها.. لو يحتبس بولك..». غير أن الضجر يأخذ منتهى شكله، متمدّداً برهة بعد أخرى، ويوماً بعد يوم، حتى يقر جهور أن يملأ كفّتي ميزان الحي المتذبذبتين بحكمته الثقيلة كصيف الشمال.

«أنت السبب» صرخ جهور وهو يدور على نفسه قرب الخيمة، ويرفع يديه في ضراعة غاضبة صوب الفراغ: «من السبب يا عَقْدي؟» شبعنا مِنْ «أنت السبب». والله لولا أسئلة الناس لأقمت حول الخيمة سوراً يرتفع مائة متر. من معك؟ جننت أنت فما ذنبنا؟ دفعنا الكثير لإسكات الناس»، فقاطعته امرأة عَقْدي: «اتكلنا عليك لتصون سمعتنا يا جهور»، فتوقف الرجل المزبد وقد اتكأ بيديه على حافة الجدار الدائري للبئر، ناظراً إلى الماء البعيد في القاع، حيث انعكست صورة رأسه على نحو غير واضح.

ما من سبب لينفجر على هذا النحو، وما يتلفظ به لا يعدو ترهات تليق بصبي طائش. إنه يدرك هذا تماماً، ويلوم نفسه، في قراره، على تردده إلى بيت أخيه كل يوم: «ألأ طمئن؟ إنهم في خير، وهم يستطيعون الحضور إليّ إذا اقتضت الضرورة». آه جهور. ثمت شيء آخر غير هذا كله يدفع بك إلى المرور بساحة بيت أخيك قبل إكمال

طريقك إلى بيتك. فضول كالشهوة؛ فضولك جهور، وأنت لا تخفيه، حتى أنك لتود أن تغلق عيني زوج أخيك بحفنتين من الطين لتصرفها عن هذا التعرف الواضح على صورة أعماقك. لا يُخفى عليها، ولن يُخفى على أحد ما تعتمله نظرتك إلى الخيمة. أتودّ أن تحرقها؟ أم تُخرج أخاك إلى الضوء، صارخاً به «أفق. الساحة ما تزال هي الساحة نفسها يا عَقْدي؟» لكنك منصرف إلى رغبة ليست هي إحراق الخيمة أو إخراج أخيك.

«أريد أن أقول كلمتين بحق اللّه» يهتف جهور وهو يمسك بتلابيب ثوبه كأنما سيمزقه. ويُردف: «لي الحق في قول كلمتين»، مشيراً بإصبعه إلى الخيمة، بينما انصرف بوجهه كله ناحية زوج أخيه وابنتها برينا. وعلى نحو مضحك تقتحم ابنة جهور، ذات الأعوام الخمسة، الساحة صوب أبيها، متقطعة الأنفاس، يصحب صراخها نشيج مرير: «بااا با»، فيتلقَّفُها الرجل ملء ذراعيه، ناسياً ما به: «اهدأي.. ماذا..»، فتتلفَّظ البنت باختناق: «ستخنقني الجن». فيربت جهور على ظهرها: «أيُّ جن يا ابنتي؟ أنا لن أسمح لجن بإخافتك». لكن الطفلة تزداد تشبثاً بثوب أبيها، وقد دفنت وجهها بين ساقيه: «إنها في الزقاق يا أبي»، تقول ذلك بإلحاح من يرى شيئاً ظاهراً تلمسه اليد.

«من تعتقدين أن عَقْدي يخاطب بكل هذه الثرثرة؟» سأل جهور زوج أخيه قبل برهة من نفاد صبره ذاك، فالتفت صوب الخيمة وقد صالبت يديها على صدرها: «لا أعرف. إنه يقتسم أرض موسيسانا بينه وبين شخص آخر لا يوافقه على كل شيء، لذلك يغضب عَقْدي»، وأضافت متسائلة: «من أعطاه الدفتر؟» فرفع جهور حاجبيه: «أي

دفتر؟» «ذلك الذي يسجل عليه» ردت المرأة، فاسترسل جهور «يسجل ماذا؟» فردت المرأة ثانية: «ما يسجله التجار. أنت تعرف ما يسجله التجار يا جهور. أنا لا أعرف القراءة»، فحاول الرجل الجهم قَدْر ما يستطيع استجماع معرفته بأخيه فأخفق: «أكان يقرأ ويكتب؟» ساءل نفسه، ولم يكن قد ساءلها من قبل قط، ثم تفرَّس في وجه زوج أخيه: «أين الدفتر؟» فردّت: «الدفتر معه. أعتقد أنه معه. لم نر غير صفحات ممزقة خارج الخيمة»، فسأل جهور: «وأين هي؟» «لا أعرف أإحتفظ بها الأولاد أم لا؟ أريناها لهم ولم نستعدها»، ثم ضيقت ما بين جفونها: «أهي مهمة؟» سألت الرجل الجهم، الذي رفع كتفيه: «وكيف لي أن أعرف؟ حاولي أن تجديها». وقد دخلت المرأة إحدى الغرف، فعلاً، وغابت لتعود، من ثم، بقصاصة صغيرة جداً: «لم أجد غير هذه. أتعتقد أنها من الدفتر؟» فرفع جهور القصاصة إلى مستوى عينيه. دَوَّرها بين أنامله كأنما لا يعرف من أين يبدأ. والظاهر، حقاً، أنه لا يعرف من أين يبدأ. أيعرف جهور القراءة؟ حين حمل جهور القصاصة إلى مستوى عينيه لم يسأل نفسه قط إن كان يعرف القراءة. «لماذا تغيب عني الأمور اليوم؟» يسأل الرجل الجهم أعماقه، بينما تستمر القصاصة منقلبة بين الأنامل الخشنة، تعلو حدودُها وتُسْفِلُ.

لم يكن يميز جهور استقامة الأرقام تلك اللحظة. ولم يكن يميز وضعها الصحيح أمام العين إذا أرادت أن تقرأها، لكن لم يخْفَ عليه اللون الحائل لقلم الرصاص الذي خطّها. «أليست قديمة هذه القصاصة؟» سأل جهور زوج أخيه، فردت: «هذا ما قاله الأولاد أيضاً. كيف عرفت؟»، فتطلع إليها مستصغراً ولم يجب.

أكان هذا السؤال الساذج سبباً في انفجار جهور، الذي كاد أن يداهم الخيمة في لحظة حنقه؟ لا يهم ذلك الآن، بعدما تشبثت ابنته بثوبه دون أن تهدّئ نشيجها كلماتُه التي تفوّه بها. وقد رفعها عن الأرض قليلاً بذراعيه، هامساً في حنوٍّ: «تعالي لنرى. تعالي، سأجعل الجن تقبّل يديك»، وخرج بها إلى الزقاق.

حُمّى طاشة كَذَكَر الإوزّ دحرجت كرتها الثقيلة، مصطدمة بكل شيء. البنت الصغيرة تشير بإصبعها في دلال يعلو خديها برهة بعد برهة فيتورّدان، والأب ينفّذ دون مساءلة. سباق بين بطش رجل وشهوات طفلة. «هذا يا أبي.. هذا جني»، وتشير إلى أحد الأبواب في الزقاق، فيصدمه جهور بكتفه حتى يتخلّعَ إطاره، وتتشقق القشرة الطينية من حوله في سور هذا المنزل أو ذاك. تقول الطفلة: «هذا جني» مشيرة إلى أيّما نافذة فتهرّ النافذة تحت قبضتي الرجل العمياوين. «هذا جني» وتشير إلى عنزة كسولٍ تقتطف نبتة كسولاً لصق أساس سور ما، فيضرب بها عَقْدي ذلك السور بعدما يمسكها من قائمتيها الخلفيتين.

كلّ ما في الزقاق جنيٌّ أو نسل جنّي. وطاعة الأب غير المحدودة في سكرته الخفية المحمومة تُسلِمُ الطفلة إلى هذيان سلطتها. فهي تزداد براعة في إشاراتها ثانيةً إثر ثانية، حتى أنها باتت تشير باليدين معاً، إلى أشياء وكائنات في جهات متنافرة، كأنما تريد حصاراً أعظم لا يفوته الزقاق، والبيوت في الزقاق، والسماء التي تعلوه، ولم يبلبل ذلك من قدرة الأب على متابعة اليدين الصغيرتين في شيء. إنه يطيح ببابين معاً؛ بشباكين معاً؛ بدجاجة وبجدار معاً؛ بحيوان شارد في الزقاق

وبالقصب الذي أكمل به بعضهم أسواراً غير مكتملة، معاً؛ بالريح وبالظهيرة معاً.

أبٌ يمتحن أبوّته بمدىً يليق برجل جهم مثل جهور، لكنه يكاد أن يستعيد، في مضائه الأبكم، ثانيةً من حكمة الإنسان في أن يعي حدوده، ثم يجاوز ذلك، عائداً، كرّة أخرى، إلى امتحانه الأعمى لأبوّته العمياء. لقد أشارت ابنته، فجاءةً، إلى شجرة الكينا الضخمة التي قسمت سور منزل «ابن بَسَّنَة»، فتوقف برهة، ثم اقتحمها اقتحاماً، فارتج جسده على جذعها. عاد أدراجه مترنحاً وأهوى بثقله عليها ثانيةً، فارتج كقرص جبن تخثّر توّاً.

كانت الظهيرة تنسل لتفسح مكاناً لعصر ذلك النهار آن ارتدّ جذع جهور عن جذع شجرة الكينا للمرة الأولى، وقد توالى الأمر، من ثمَّ، بحسب ما رأى أهل الزقاق كلهم، حتى الشفق، فانصرفوا بعد ذلك والرجل على حاله: يتراجع عن الجذع ويهوي عليه بكلّه. يترنح قليلاً، ويستقيم بعد الترنح متراجعاً، ليأخذ جسده المقذوف صوب الشجرة ثِقَلَهُ في المصادمة.

وحدةٌ، كالزقاق المستوحد وسط تلك الكائنات التي أوَت إلى ما وراء أسوارها، طوقت جهور، وابنته، و الشجر، في مشهد لا تضيئه إلاَّ قناديل مختنقة من فوق سطوح البيوت. فالذين انفضوا عن الحلبة الضيقة، وأنهوا عشاءهم في أول الغسق، عادوا إلى مراقبة الرجل الجهم من السطوح، وهم ينكشون أسنانهم بما اقتطفوه من القش الرقيق في مكانس الخرنوب. وكان واضحاً أن ما من امرأة، أو رجل، أو طفل، ينتسب إلى عائلة «ساري»، يشارك المشاهدين، الذين ضيقوا ما

بين أجفانهم في الظلام، ما يشاهدون. فلقد غاب عن المشهد، على نحو يستعصي على التفسير، نسل عَقدي ونسل جهور معاً، والحاضر الوحيد كان ابنة الرجل الجهم، التي ما فتئت تصرخ ملء وَدَجَيْها، وهي تشير إلى شجرة الكينا: «إنه يقترب يا أبي. الجني سيأكلني»، وكانت الصرخة تلك كافية، بالطبع، لأن يستمر جهور في استغراقه العنيف ضد الشجرة مائة عام. وبعد وقت عادت الطفلة أدراجها إلى البيت أيضاً، تاركة لأبيها وحده أن يحاصر الظلام بلهاثه المتقطع. أما من كانوا يراقبون، من فوق السطوح، فقد نزلوا السلالم الخشبية ذاتها التي ارتقوها، بعدما نهروا عن بعض أدراجها دجاجات رقدت خلسة فوقها، وكادوا أن يطأوها بأقدامهم في الظلام.

لم يكن عادياً ليل ذلك الزقاق في الحي الغربي: كان الفحيح الأخرس لرئتي جهور المتعبتين يكشط القشرة الطينية لجدران البيوت كمنكاش حديدي. أما صدى ارتطام جسده بالشجرة، حتى الصباح، فقد قسّم أحلام النائمين، حتى أكثرها جمالاً مثل حلم «عِزّنا حَمّو»، تاجر الغنم، بحصّادة «جون دير» الخضراء الملتمعة الإلهية، إلى مقاطع يرفع فيها النائم رأسه لاعناً شجرة ابن «بَسّنَة»، أصلها وفصلها. وفي الصباح التمّ لفيف غير فضولي حول الشجرة من أهل الحي، والدليل على عدم فضولهم أنهم كانوا ينظرون إلى جهور وهم يتحدثون عن أمر ما يخص الحكومة، و«عنّود» البدوية التي كانت ترتدي زي الرجال وتتمنطق بمسدس، والثكنة العسكرية لصق الحدود التركية، وسرقة سوق «صاغة الذهب» في الحي اليهودي، وكان لابد من أحد لم ينصرف إلى ما انصرفوا إليه ليعيدهم إلى المشهد، وهذا ما حصل

بوصول عائلة جهور كلها، وعائلة أخيه عَقدي وأولاد الملاّ: الصغار، مع تفاوت أعمارهم، ظلوا خلف الكبار، متلصصين من كل ثغرة بين جسدين، أما الكبار فتقدموا أكثر مما ينبغي، بحسب رأي بعض الحاضرين، إذ حجبوا عنهم ما يريدون رؤيته من آخر أحوال جهور الجَهْم.

كيف غاب عن الحاضرين، حقاً، أمر الشجرة التي انهار جهور جالساً تحتها؟ ما من حديث، حتى أشدّه إحاطة بحادثة قتل القائمقام، كان يمكنه أن يُغيِّبَ ما يُرى، لكن عماوةً صرفت المتحدثين إلى ترّهات شؤونهم، كأنما قُيِّض للشجرة، وللجالس النازف من منخريه لصقها، أن يبقيا في المشهد أكثر، حتى يستنفدهما من لم يتأمّلهما بالقدر الذي يقتضيه مشهد كذاك. وقد تتابعت شهقات الدهش، بعد ذلك، على نحو كالعدوى. «أوه» تتبعها «أووه». ويداً تلو يدٍ تحركت أطراف الحاضرين إلى الأفواه لتحبس الحروف الصوتية الزائدة من شهقاتها، هكذا، بانتظام يديره ملقِّنٌ مستور.

كانت الشجرة التي تهاوى جهور قرب جذعها قد أكملت تدرّجها اللوني، واستسلمت، في حالٍ نباتيةٍ، إلى كمالٍ صلدٍ، حين تلقّف بعض النساء من آل «ساري» الرجل المضعضع من منكبيه وسوّينه جالساً يتكئ عليهن، ثم خطفنه خطفاً من وسط المنصرفين إلى ذهول يشوبه تَفَكُّهٌ صريح في العيون، كأنما سيُقْبلون، بعد قليل، على قهقهة ستحرق الرئات. أي، بما لا يختلف فيه اثنان، اتخّذت الشجرة لون الكهرمان الأصفر الناصع، وصلابته كحجر. التشققات في اللحاء باتت على كثيفٍ برتقاليٍ، والورق كذلك، إنما بشفافةٍ تشرِّد اللَّونَ قليلاً.

لم يبارح المكان غير بعض آل ساري الذين واكبوا الجَهْمَ، أما من تبقّى من أهل الحي فلم ينصرفوا إلاَّ عصر ذلك اليوم، بعدما استبد بهم الجوع، وجفت حناجرهم من الكلام، فظلت الشجرة وحدها، مضيئة بهيبة، في المفصل ذاك من سور ابن بَسّْنَةْ، وإذ أرخى المغيب نسجه المتشقق على المكان، أرخت الشجرة أسرارها: الورقة تُفْسِحُ للورقة مكانها: انتقال متناظرٌ كاستبدال صفوف من الحرس بصفوف أخرى: شبكة حيّة من الخطوط المتوازية والمتقاطعة إذا نظر الناظر إلى الشجرة من الفراغ العالي، ومجرّاتٌ صغيرة، كسربٍ غامر من الحباحب، توزَّع الظلامَ أقاليمَ أليفةً إذا نظر الناظر من سطح بعيد. غير أن مساءلات موحشة كانت تجري في مكان محاط بجدران، وبسقف، على مبعدة فرسخ واحد من المشهد الذي شطَرَ تاريخ الحيّ الغربي برمته: «أتسمعنا يا جهور؟»، وكان جهور، الذي جف الدم على شاربيه، يدير وجهه في السائلين بتعب ثقيل، مومئاً برأسه إيجاباً. «ماذا جرى؟»، فيكتفي الرجل بإطراقة تعلو فيها عينيه مسحةٌ من ابتسام، كأنما يقصد السخرية من جهلهم، وإذ يهمّ، للمرة الأولى، أن يقول شيئاً ما، تقع عيناه على طفلته التي ألقت به في أبوّته المُسْكِرة، فلا ينطق، بل يشير إليها لتقترب، ومن ثم يحتضنها هامساً في تأتأة: «أرأيت؟ أرأيت؟»

باتت برينا، على صغر سنها، في الشهر الذي تلا ذلك، تدير الأمور في صرامة رجل، مثلما علّم الأب العائلة كلها أن تكون. إخوتها، وأولاد عمها جهور، معاً، أكثروا من التشبه بالأسياد، وهم ينفخون دخان لفافاتهم في ساحة البيت، متباهين باستئثارهم غير المُقْنِع بسلطة غير مقنعة. خيمة الأب ظلت هناك، وظل الوافدون، الذي

ينقلون التبغ عبر الحدود، يؤدون ما عليهم، داخلين بعيّنات، خارجين بعيّنات، دون الحاجة إلاّ إلى توجيه صغير من برينا يتعلق بتسديد المبالغ نقداً، أما الباقي فهم أكفل به.

لم يتغير، في الواقع، شيء من أمر العائلة، برغم انصراف جهور إلى صمت مطبق بعد حادثة تحوّل الشجرة، وقضاء معظم وقته ذاهباً آيباً أمام سور ابن بسنة، وهو يتفرّس في العابرين باتهام صريح في عينيه. وقد شاء «كرزو»، ابن الملاّ بيناف، وسط ذلك الاختلال في موازين العائلة، أن ينصرف إلى دعابات لو التقطه أولاد عَقدي، أو جهور، متلبساً بها، لفكّكوه، كأمشاط حصّادات القمح الآلية، مفصلاً مفصلاً، لكنه خادعهم بقناع الرزانة الذي ارتداه، وهو يسير جنباً إلى جنب مع جهور، لصق السور، طوال النهار. فهم ظنوه حامياً للرجل الجهم من قالةٍ تسمعها الآذان، أو من فكاهة تُعيِّرُهُ بصمته وشروده. أما هو، كرزو، ذو الرأس الحليق حتى الجلد، حيث لم تبق إلاّ غرة دائرية منسدلة من مقدمة الرأس على الجبين، كعادة أهل الحي الغربي في الحلاقة لِصِبْيَتِهِمْ، فكان يقيس خطواته بخطوات جهور خلسةً، عاقداً يديه خَلفَ ظهره على نحو مضحك. وكان يلتفت، بصرامة تهريجية، إلى الرجل، هاتفاً: «خالي» (درج أولاد الملا على تلك الصفة في مناداة عم زوج أبيهم)، فيلتفت الصامت الجهم قليلاً، ثم يرجع إلى شروده بينما يكمل الصبي: «اهتز أساس بيت الحاج شكري وأنت تنطح الشجرة. لو أطلت ساعة أخرى لانهار»، وينظر إلى وجه الرجل ليرى تأثير ما يقول، مُرَقِّصاً حاجِبيه المتفكهين. «اصفرت الشجرة من كثرة ما تبوّلوا حولها»، قالها فتوقف جهور، مطيلاً النظر

من تحت حطته المعقودة على رأسه كعمامة مائلة، إلى وجه الصبي الذي توقف بدوره، ولما تزل يداه معقودتين خلف ظهره، ثم انصرف ببصره، بغتةً، صوب الأوراق العالية، في بلاهة، وأكمل مشيه المتزن، بحسب طول السور، ذهاباً وإياباً، فأردف كرزو، الذي مشى المشية ذاتها، دون تقدم أو تأخّر، كأنه ظل الرجل الجهم: «أتعرف من يسكن مع جدي عَقْدي تلك الخيمة؟ ها؟». وضع إحدى يديه وراء أذنه ليلتقط كلاماً خافتاً لم ينطق به عَقْدي قط. «ها؟ ها؟»، تمتم في هيئة من يمثّل سماع صوتٍ ما. «ها؟ أووه. ذلك هو»، واستمر ماشياً إلى جوار جهور الذي لم يتوقف.

«هو. هو. نعم يا خالي». كان كرزو يكرر الكلمة، مضيفاً إليها بعض الشهيق، والصفير، والتأوّه، والنحنحة، كمن يؤكد شيئاً يعرفه الآخر، لكنه يتجاهله. وكان جهور يلتفت، بنظرة الاتهام البليدة ذاتها، إلى الصبي، متوقفاً، ويكمل مشيه، بعد ذلك، على نحو آلي أكثر تبلّداً من نظرته. بيد أن كرزو يمضي في طيشه: «أصابع جميلة»، ويرفع أصابعه المنفردة، ناظراً إليها: «أصابع مثل.. مثل»، ويتوقف ليشرح شيئاً ظن أن جهور لم يفهمه: «لا أقصد أصابعي، بل الأصابع التي تنمو تحت خيمة جدي عقْدي». ويضحك في خبث مغمضاً عينيه. «نعم يا خالي»، ويتوقف الرجل الجهم بدوره، فيضيف كرزو: «لقد سرقت بعضاً منها»، ويلتفت من حوله ليرى إن كانا وحيدين في الزقاق، ولما يتأكد له ذلك، يقول لجهور: «هات يدك»، ويمسك بيد الرجل المتبلّد، الذي لا يحرك ساكناً، فيفتح قبضتها، ثم يدس فيها شيئاً داكن اللون، يابس، فيتفرّس فيه جهور قبل أن يلقي به، ناظراً نظرة الاتهام الأبدية،

ذاتها، إلى الصبي الذي يكمل، وقد جاراه في مشيه الوئيد المُحْكَم كمشي البنائين يخمّنون المساحات تخميناً: «والدجاجات سرقت بعضها أيضاً. رأيتها قبل أن أتمكن من إحراق ما تجمّع منها خارج خيمة جدي عَقْدي. رأيت الأصابع في مناقيرها، وكنت إذ أكُشُّها تبتلع الأصبع بطوله وعرضه، وهي هاربة، واللّه..»، وتطلع إلى جهور على نحو جادٍّ، أول مرة: «ستنبت تلك الأصابع في بطوننا. ألا تعتقد ذلك؟ أكلنا الدجاجة ذات العرف المشطوف، والأخرى ذات الريش الأزرق في الجناحين، وكلتاهما ابتلعتا إصبعين»، ونظر إلى يديه متسائلاً: «لماذا هي داكنة زرقاء؟» مُلمّحاً إلى الأصابع التي يراها خارج الخيمة، بالطبع، ومن ثم أرخى يديه وقد أخذه مشهد الشجرة التي باتت ترسم ظلاً أصفر على أرض الزقاق: «يا خالي»، وشدَّ جهورَ المستغرقَ في مشيته من حاشية سترته المنسدلة على قفطانه المخطّط: «ماذا فعلت بالشجرة؟» وأردف: «سأطفئها»، ثم ركض إلى جذعها مشمّراً عن قمبازه، رافعاً إحدى ساقيه كما يفعل الكلب حين يتبوّل.. وتبوَّل.

لقد وهب جهور أعماقه إلى شيء آخر، وظل بشكله ـ طولاً، وعرضاً، وجهامةً ـ سلطان الزقاق، موكلاً شؤونه، دون قصد منه، إلى كرزو. وكرزو سيغلق الزقاق، وسماء الزقاق، إذا استطاع: «أسلخت، حقاً، فرج زوج سطامو؟ فلنسلخ فروج نساء هذا الحيّ. ستخشخش حين تجفّ، وهي معلَّقة إلى حبل بعرض الزقاق يا خالي»، ويمد لسانه في وجه جهور الصامت، الذي يلجمه سلطانه الأكثر اتساعاً مما يحلم به رجل قط: «أغلقت بوابة سور ابن حَمْكي عليه وعلى عائلته شهراً؟» نعم. لم يقلها جهور الساهم، لكن «نعم» كانت ملء تاريخ الزقاق، فقد

سدَّ الرجل الجهم بوابة ابن حَمْكي، حقاً، بالطين، بعدما نُميَ إليه علاقة هذا الرجل بسطّامو الواشي، وتهدّده بالموت إذا لجأ إلى أية حيلة لإنقاذ نفسه وأفراد عائلته، فقضى ابن حَمْكي شهراً وراء جدران السور. وإذ توسط المتوسّطون لدى جهور، فعفا بإطراقة لا همس لكلمة فيها، كانت عائلة المحكوم عليه قد أتت على كل شيء في ساحة بيتها: الدجاج، وورق العريشة، والبقرة، والسحالي السمينة تحت أعمدة السقيفة، وبعض قشرة السور الطينية، في محاولة لاجتياز السور ربما. ويسترسل كرزو: «تعال نسدَّ الزقاق يا خالي»، وهو يقيس الأرض، بخطواته الصغيرة، في صرامة لا عبث فيها، مُرْدِفاً: «تعال نَسدَّ بوابات الأسوار في هذا الحي يا خالي»، وتنتفخ أوردة رقبته فجاءةً: «ماذا سيفعلون؟ ها؟ أنا أعرف. سيحفرون ثغوراً تحت الأسوار، مثلما يفعل الخلد يا خالي. سيخرجون في الليل، وسيردمون الثغور في النهار تمويهاً»، ويعترض جهورَ بجسده في محاولة لإقناعه بمقدرته: «فلنملأ الزقاق بفخاخ الثعالب. هذا الحيّ ملكنا. ألا ترى كيف تضيء الشجرة كل شيء؟»

لن يثني جهورَ شيءٌ عن رواحه ومجيئه أمام سور ابن بسنة، حتى انضمام حشمو إليه بفخاخ لا تخطئ حقاً. أما كرزو فسيرتد عن المشهد قليلاً، بعدما بلغ الضجر منه مبلغاً: جهور لن يتكلم. جهور بغل. والبغل الآخر هو حشمو، مذ أطلقوا سراحه. ضجرت الحكومة منه فأطلقت سراحه. فشلت وساطات عَقْدي حيث نجحت البلاهة. حشمو أبله، ضيّع الشرطة بينه وبين أولاده: «أنا نصبت الفخ. لا، أولادي نصبوا الفخ».

لم يعد من متسع لطيش كرزو وسخريته. حشمو دخل الزقاق بصرامة ما عرفها تاريخه قط. جاءت به سيارة الشرطة «البيك آب» وأنزلته أمام بيته المهجور، فاستند إلى السور المهترئ وقد وضع حوائجه على الأرض. دار بعينيه شمالاً ويميناً دون تعيين، ثم حمل الصرة ومشى إلى حيث يقع بيت عَقدي وبيت أخيه جهور. انزل صرته عن كتفه تحت الشجرة الكهرمانية، وقرفص مستنداً بظهره إليها، ناظراً إلى كرزو والرجل الجهم دون أن ينبس بكلمة. وعلى مدى ساعتين عاده البعض وانصرف عنه البعض: «كيف؟ أين؟ أين الأولاد؟ متى؟» الخ. أسئلة عابقة بتطفل لم تعن الرجل شيئاً، وكان أبعد، حقاً، عن أن يعرف أين أولاده، ولماذا أطلقت الشرطة سراحه، وأين سيمضي. لكن ثمة رائحة شدته إلى المكان ذاك، كأنما أعدّته الحياة، بإصرار، على القيام بالأمر على نحو محسوب: يجلس تحت الشجرة أولاً، دون أن يترك لكرزو فرصة لتحويل حضوره إلى سخرية. ينظر، ثانياً، إلى الوجوه من غير أن تطرف عيناه. يأمر كرزو، ثالثاً، بكلمات لا ينطق بغيرها بعد ذلك، أن يحضر رفشاً وسطلاً فارغاً، إضافة إلى الفخ ذاته الذي يحتمل أن يكون قد بقي مهملاً في ساحة بيته منذ ماتت خاتي. وحشمو لا يعرف إن كانت الساحة بقيت مهملة أم لا، منذ غادرها في سيارة الشرطة، غير أنه، على النحو الذي لقنته الحياة لحظات حضوره في الزقاق، استشعر من هواء الساحة، حين استند إلى السور بعد مغادرته السجن، أنّ ما من أحد مرّ بالجوار ذاك منذ صباح الثلج الذي لا يُنّسى. وقد عاد إليه كرزو بما طلب، كأنما أخذته نبرة صوت الأبله بسلطانٍ لم يجده في صوت أحد. وإذ ألقى بها بين

يديه تمتم متهيباً: «أولادك عند عمي مهمد. أأدعوهم يا حشمو؟»، فرد الأبله بتباطؤ بارد: «نعم، بعدما أُكْمِلُ هذا»، وأشار بإصبعه إشارة حصرت الزقاق كله، أفقياً.

رويداً رويداً كان سور طيني يعترض الزقاق. سورٌ يعلو من الجبلَّة التي يعجنها حشمو بماء سطله وبالتراب الذي ينكشه الرفش من الأرض. وقد بدا الأمر حماقة مضحكة في البداية، ولكن سكان الحي عادوا مذهولين حين رأوا السور، في اليوم التالي، أعلى من أن يقفزوا عنه. وكانوا يزنون الأمر كله بميزان قدرتهم على هدمه أولاً، أو أن يشكوا حماقة الرجلين اللذين يسدان الزقاق إلى القادرين فيضعوا للمهزلة حدّاً، بيد أنهم فوجئوا بإصرار حمشو على المضي سريعاً في البناء، وبالتهديد الواضح في عيني جهور الذي بات يعبر عرض الزقاق على عجلٍ ينذر بفورة لن يعلم مداها أحد. كما فوجئوا بأمر آخر لم يسائلوا نفوسهم فيه: إلى من يشتكون؟ إلى عَقْدي؟ إنهم يحسون انكساراً غامضاً يتبدى في تحديقهم في الرجلين دون الإقدام على شيء. ويكادون يسألون: منذ متى سيطر هذا الفراغ، الذي لا سلطان لأحد فيه، عليهم؟ لكنهم يتجاهلون السؤال، عن قصد، لما فيه من ضربة تحيل أعماقهم إلى قِرْبَة لبنٍ تخضّها مائةُ يدٍ.

هكذا، فجاءةً، يقف أهل الحيّ واجمين أمام سلطة جهور وحشمو. وحينما يكتمل إغلاق الزقاق من جهتي الجنوب والشمال معاً، يعمدون إلى فتح بوّابات لهم في جهتي الشرق والغرب، بطريقة يحمّلونها الكثير من المرح، ومن التفاخر بذكاء لا محل لإعلانه: «فليقفلا الشارع، وسماء الشارع، وليبقيا هناك إلى الأبد سنمضي من الجهة الأخرى»،

وقد بقي الرجلان حقاً: جهور يقيس الزقاق الذي يتوسط عرضه السوران، من أوله إلى آخره، وحشمو ينصب الفخ الحديدي الضخم، كل ليلة، أمام بوابة أحد المنازل، بالتسلسل، عسى أن يخالف مخالفٌ حكمةَ عزلتهما، فيتصيّداه.

البيوت متصلة على طول الزقاق، من الجهتين، كما هي حال بيوت الحي الغربي بعامة، بحيث يستطيع شخص، أو حيوان، أن يعبر المسافة كلها متنقلاً من سطح إلى سطحٍ، وكانت ثمت فواصل لا يؤبه لها، ويمكن مجاوزتها بقفزة صبي، تماماً مثلما يفعل كرزو الذي يرفع جلبابه إلى ما فوق ركبتيه، ثم يعبر الفجوات. وكان كرزو يستطيع، على هذا النحو، أن يرصد الزقاق الذي سده جهور وحشمو من جهة، وأن يشهد، بخطوات قليلة، متسارعة، الزقاق الغربي الموازي للزقاق المسدود، من جهة أخرى. ولقد بدا له المشهد كله، من فوق، على قدر كبير من الفكاهة، حتى لم يعد يبارح المكان إلا ليعود إليه، ملقياً بظله إلى هنا أو هناك، بحسب ما تميل به الشمس. وكرزو مأسور بأن يسدد ظله، كرمية حجر، إلى منتصف أشياء الزقاقين، مبتعداً أو متقدماً، مائلاً إلى اليمين، أو الشمال، متطاولاً على أصابع قدميه، أو مُحّنياً جذعه، كما يفعل معماريو البيوت اللَّبِنيَّة وهم يقوِّمون بخيوط القنّب استقامة الجدران. إنه يُسّقِط ظلَّه على نافذة هنا، أو دجاجة هناك؛ على طفل أو شجرة؛ على باب أو على حجر. مغتبطاً بهذا الاتساع الذي يحسه، أول مرة، لحدود جسده الصغير، غير أن غبطة أكثر سرّاً وسطوةً كانت تتسلق صدغيه في دغدغة كدغدغة الريش، وهو يلمس بظله الأشياء كأنما أنامله هي التي تلمسها، فيستغرقه

الأمر، منزلقاً على أوراق شجرة الكينا الكهرمانية، وكيزان الذرة في ساحة بيت «مردان»، والنافذة المستورة بشبكة سلكية في بيت «جومرد»، والمدحلة الحجرية فوق سطح بيت «كرمو». وكان أكثر ما باغته في نزهته الغريبة ذيلُ تيس يسير الهوينى، حتى لقد بدا له أن ظله، ذاته، كان شارداً فأيقظه ذيل التيس، باهتزازه. «يا اللّه» يتمتم كرزو بعثوره على هذا الامتداد الذي يشكله ظلُّهُ لأعضائه، ويتمنى استقرار الشمس على الشروق، أو الغروب، من دون غيرهما، ليتسنى له أن يتحرى الزقاق المسدود كله، أو الزقاق الواقع إلى غربي الزقاق المسدود.

كان ثمت بوابتان فقط، قد أُبقي عليهما مفتوحتين على الزقاق المسدود: بوابة بيت عَقْدي، وبوابة بيت جهور، برغم أن عائلتي الرجلين اضطرتا، أسوة بالحيّ، إلى فتح بوابتين لهما على الزقاق المجاور، غرباً، وكانتا تمدّان جهور وحشمو بالزاد، وتتركان لهما، بعدئذ، استيطان ذلك القبر الطويل، كما درجت برينا على تسمية مملكتهما. لكنهما كان حيَّين، في الفراغ ذاك، كأكمل ما يكون الحيُّ: فحشمو، إذا استعصى عليه تصيدُ أيٍّ من سكان الحي الغربي بفخه، يومئ إلى جهور، على نحوٍ دوري، أن يقترب من الفخ، وقد بلغت البلاهة من حركاته مبلغها، بعد وقت بدا فيه حكيماً، وجهور يتمنّع، وهو الصّامت بإشارات من رأسه، فيحاول حشمو إلقاء الرجل في الفخ بدفع من يديه، فيتعاركان دائرين حول الفكين الحديديين، وقد اغبرت أطراف جلبابيهما.

كرزو يلتهم المشهد التهاماً من مَكْمَنِه على السطوح: الغبار الذي يعلو على أثر عراك الرجلين لا يعلو سوى متر، ثم يهدأ على أكثر الأجسام قرباً إليه.

وإذ يهدأ الرجلان، بدورهما، بعد كل عراك موزون، ومتعاقب بانتظام لا خلل فيه، يمضي حشمو إلى الجهة الشمالية، بخطوات متسارعة، كأنما هو على موعد، بينما يلتفت جهور، في مكانه، بنظرة الاتهام ذاتها إلى أعماقه المَشُوَّفَةِ كأرض الزقاق، قبل أن يستقر جالساً تحت الشجرة الكهرمانية التي تتوسط سور ابن بسنة.

لقد بات جهور يقضي معظم وقته جالساً، على غير عادته منذ انقلاب الشجرة، بينما احتل حشمو بهرولته الزقاق كله رائحاً غادياً، يستطلع في ذلك الفراغ الترابي حلمه الأكمل الذي ينبض كشعاع فوق المعدن الملتمع لألف فخ، متين متجاور، رُبِطَتْ سلاسلها إلى أوتاد حديدية حتى لا يبتعد بها أكثر الفرائس قوة قيد أنملة. لكنه كان يتوقف في آناء قليلة، محدّقاً في الرؤوس الصغيرة التي تسرق النظر إليه من بوابة بيت عَقْدي، ثم يكمل هرولته، هامساً: «سترون.. سترون». ولم يكن وعيده هذا موجّهاً إلى غير أولاده هو، الذين باتوا يستأذنون خالهم مهمد لرؤية والدهم، مرة في اليوم، من البوابة التي لا يفتحونها أكثر مما تسع لمدّ أعناقهم خارجاً. لكنهم كانوا متفكهين، لا فضوليِّين، برغم مشهدهم المتلصص الذي يوحي بذلك، وكانوا يهمسون، بدورهم، إثر مرور والدهم بهم: «سترى يا خصية القنفذ»، وهم يلوّحون بأيديهم المفتوحة في وجهه.

إن كرزو يمنع أولاد حشمو من تسلق السلالم إلى السطوح، لذلك يكتفون بمرصدهم من البوابة، بينما يستأثر، هو، بانتشاره غير المحدود على رقعة الزقاقات وما تضمّه. ولشدّ ما استرسل في تملّكه للسطوح حتى غدا مُرّاً هائجاً يمنع حتى الدجاج من بلوغها، وبات

غائر العينين بعمق كأنما يخفي في محجريهما ما يضيق به الحيُّ كلّه: «برينا» يهمس كرزو الاسم، وقد درج على مناداة زوج أبيه باسمها مثلهما مثل صديقين، فتتفرّسه المرأة وهي تستشعر رنيناً غير عادي في همس صبيِّها: «هات يا روحي» قاصدة أن يفصح عما يريد، فيطأطئ الصبي متمتماً: «لماذا لا ننتقل إلى الزقاق المسدود؟» فترفع برينا كتفيها تساؤلاً: «ولماذا ننتقل إليه؟»، ثم تردف في ما يشبه دعابة كئيبة: «لنسقط في فخ حشمو؟»، فيزداد كرزو طأطأة، ويزداد صوته رصانة: «أتريدون ذلك أيضاً؟» فتستوضحه برينا: «نريد ماذا؟»، فلا يرد كرزو، بل يرفع رأسه متطلعاً إليها في أسى.

لقد كانا صديقين، ودرجا على أن يبحثا في الشؤون الصغيرة، بعامَّة، معاً، مذ اختفى الملاّ بيناف. وكانت برينا تستأنس به، ويستأنس كرزو بها، متواطئين، دون تصميم، على تعويض ما فاتهما بقَدْرٍ مُفْتَضَحٍ لا تخطئ العين لعبته: هي أمه، وهو زوجها. ولربما اختلطت الأمور قليلاً فعاتبته برينا على إهماله، كصبي، هذا الشأن أو ذاك، لكنه كان يرد الصاع صاعين على سلطة أنوثتها الضيقة، منجزاً ما تطلبه منه في صمت، فتضيق المرأة أيّما ضيق بصمت الصبي المتعمَّد فتسترضيه، برهة بعد أخرى، حتى يلين، ثانيةً، تحت طرقات أنوثتها التي تهز أعماقه أولاً، فالساحة، فخيمة أبيها، فالسور، فالبوابة، فالزقاق، فجلبابي حشمو وجهور، فالسور الشمالي، فالجنوبي، فالشجرة الكهرمانية، فالحيِّ الغربي كلّه، من المسجد الصغير حتى سوق الجزارين.

أنوثة كوسوسة الريح بين أوراق الذُّرة العريضة؛ وهمس بين الصبي والمرأة كأشدَّ ما يكون الهمس إحكاماً ورنيناً: «تريدون أن

تكونوا ...»، ويكمل الصبي بعينيه ما لا يطيق إكماله بلسانه، فتستوضحه المرأة من جديد: «ماذا نريد أن نكون يا كرزو؟».فيغمض الصبي عينيه في عصبية، ثم يلطم بيديه على جبينه دلالةَ انفعال مباغت يضاف إلى انفعال مُسْتَحْكِمٍ: «أما من أحد رأى ذلك بحق اللّٰه؟» وإذ يرى زوج أبيه حائرة في لغز كلامه، يمسك بيدها وهو يكاد يجرها جرّاً: «تعالي. تعالي»، ثم يصعد بها السلَّم إلى السطوح.

من حقِّ عيني كرزوا أن تكونا غائرتين هكذا، حتى لا يتوضَّح أهما هازلتان أم آسيتان. وقد استشعرت برينا، لبرهة عابرة، أن عينيها تزوغان عن الخارج المرئيِّ فترتدان على أعماقها، إذ ما من خيال يستسلم، واضحاً، هكذا، بيِّناً، صلباً، مفصّلاً تفصيلاً، كما يستسلم مدى الزقاقين: المسدود وما يجاوزه غرباً، بحكم أنها لا تستطيع أن ترى غيرهما من السطوح المترامية. وكان كرزو ينظر إلى وجهها، لا إلى ما تراه، مبتسماً في تدرُّج، بحسب انقلابات وجه المرأة، التي باتت تنتقل، شبه متضرعة، من جهة إلى أخرى، كأنما تقارن بين مشهد ونظيره، آملةً، بحركات يديها المتوسلتين، أن توقف الواقع المتخبّط في هذيانه. لكن المرئيَّ كان يترقرق، كجدول، تحت المرصد العالي، حيث تقف المرأة والصبي، والسماء، معاً، متتبِّعاً سلطانه على الأشكال.

يقول كرزو، في عرضه المقتضب للمسألة: «الزقاق المسدود يحفظ لرؤوسنا أشكالها، كما هي. أما الزقاق الآخر..»، وتضيف برينا: «ليس الزقاق الآخر، وحده، بل الحي الغربي، برمته، يا كرزو»، وتهمس في تأكيد مرير: «الحي الغربي برمته». إذ ذاك يرى الصبي في كلامها ما يشدّه إلى تكرار عتابه السابق: «أتريدون أن تكونوا مثلهم؟

فلننتقل إلى الزقاق المسدود»، وكأنما يستحكم العياء بالمرأة فترخي كتفيها، وأهدابها، معاً، في حيرة ثقيلة.

لا يعرف أحد، بالطبع، من ذُهل، أوّل مرة، حين رأى ظلال الرؤوس المنعكسة على جدران البيوت، أو السائرة قرب أشخاصها على الأرصفة. غير أن امّرِأً مَا شَهَقَ، في هذا المكان أو في ذاك، مشيراً بيده إلى ظله، أو ظل غيره، بعدما ظن المسألة فكاهة، لوهلة عارضة، ثم استدرك أنه يقظان، وأنْ ما من أحد يمازح أحداً: لقد انعكست ظلال الرؤوس، في الحي الغربي كله، انعكاساً اتخذ هيئة رأس كلب. وإذ يتحسّس المتحسّس حدود هامته، ويلمسها آدميةً كما ألِفَها، ثم يرى ما اتخذ ظلها من شكل، يصاب بدوار خفيف، وبإجفالةٍ تدحرج كُرةً صغيرة من الشوك على مدى العمود الفقري.

كانت زُمَرُ الناس تتحلق أمام البوابات، تفصل أمتار قليلة بين الواحدة والأخرى؛ وكانت ككرات من الزئبق تُلْمَسُ فتتجزّأ، ومن ثم تتجاذب لتتحّد، فتُلمَس، ثانيةً، فتتجزأ. زمرٌ تضيّقُ الحلقات، وتوسّعها، في جدالها العصبي، متلمّسةً رؤوسها، ناظرة إلى الظلال الكلبية على الجدران أو التراب، تأخذها نوبة من تَفَكُّهٍ أسود حيناً، مقهقهة في تشنج، ومن بعدُ تنقلب الأصوات المتفكهة إلى عويل خافت، متعاقب بين بوابة وجارتها، رتيب كرفيف جناحي ذبابة الحمار. وبين ساعة وأخرى لا يتمالك حتى أكثر الناس استسلاماً لقدره البهلول، إلاَّ أن يقارن، بنظرات كبندول الساعة، بين الظل وبين الرأس الذي يعكس الظل: كم هو أليف، معهود، فوق الكتفين، وغريب محيِّر على الأرض.

امتحان مضحك استند إلى وسائده في هواء ذلك الحيِّ، غير أن كرزو، وحده، أمسك بالرقعة المضحكة كلها، ومن ثم أشرك برينا في ما لم يُطق احتماله: «انظري»، وقد نظرت المرأة، في تمعُّن، فارتجَّ كبدها. لذلك هرولت من هذه الجهة إلى تلك الجهة، ومن تلك إلى هذه، تقارن ما تراه بنظيره وهي تدس بيدها تحت ثوبها، من فتحة العنق، متلمّسة ثديها الأيسر، ومن ثم تعتصره كأنما تبدّد زوبعة الكرب التي احتبست فيه. ولم تكن، بالتأكيد، تريد هصر الثدي، بل ذلك الثقل الذي مس صدرها، والتصق به، دون أن تتمكن من تحديد موقعه: فوق الجلد، أو تحته؛ قرب الشريان الأبهر، أو الشعيرات الدموية حول الحلمة التي انتصبت فاختلج من فوقها القماش الكشمير.

لقد رأت برينا الفرق الذي يشبه قشعريرةً حامضةً: الحيُّ الغربي، كله، ترتسم ظلال الرؤوس فيه كارتسام رؤوس الكلاب، والغيبُ، وحده، يدري، كيف تحتفظ الرؤوس بأشكالها الآدمية، بينما تتخذ الظلال فكاهتها السوداء تلك. أما الزقاق المسدود فظل قاطناه، جهور وحشمو، محتفظين بالظلَّين الطبيعيين لانعكاس رأسيهما. وكان كرزو قد أقدم، من قبل، على النظر إلى ظل رأسه في الزقاق المسدود كرَّةً، وفي زقاق آخر من أزقة الحي الغربي كرّة ثانية، فوقع على الفارق، لذلك جهر بنصيحته الخشنة إلى برينا: «فلننتقل».

«فلننتقل»، تلك كانت كلمة «زَيركه»، أم برينا، ليل نهار، إثر الحرب الغريبة التي اشتعلت على تخوم حقول الذُّرة، في القاطع الشمالي الغربي، من الحدود التركية إلى الهلالية فامتداداً إلى قرية «هيمو»، وفي القاطع الجنوبي الغربي، من انعطاف نهر «جغجغ» تحت سفوح

الهضبة التي يشغل المطار الغريب مساحة ما من سطحها، حتى قرية «حِلّكُو».

قوس متصل من الذُّرة العالية، غرباً، كاد يدفع بمن حلُّوا تخوم المدينة إلى أن يكملوا رحيلهم. وكانت تلك الفترة مصادِفَةً للشهر الثالث من استقرار عَقْدي هناك، بعد نزوحه من قرية «موسيسانا». ولقد كان البيت الذي تعهّد المتعهد ببنائه في عشرة أيام، لعقْدي، أول بيت مسوَّر يشغل منتصف العراء المطرّز ببعض الأحراش بين مثلث الطريق الإسفلتي المؤدي إلى مدينة الحسكة جنوباً، مروراً بالمبغى الموحش قبل نقله إلى شمالي المدينة، لصق الحدود التركية، الذي يجمع الصبية زجاجات الجعة الفارغة من حوله، وانتهاءً «بالهلالية» غرباً. ومن ثم، أي: في السنوات العشر التي تلت، كادت تتصل رقعة العراء تلك، فلا يبقى مكان لبناء جديد. وبرينا تذكر كلمة «فلننتقل» ذات عصر من صيف ذلك العام، إذ صاحبها عويل أزْرَقَّ منه جبين أمها.

كان العارفون في العائلة قد أطلقوا بضع نعاج على كومة من الملح، ولما التهمته على آخره ارتمت، بالتياع، على حوض الماء تخفف به حُرْقة أحشائها، فأطلق عَقْدي، إذا ذاك، طلقتين من بندقيته الفرنسية في الهواء يجفلها، فأجفلت، وكان السائد في اعتقادهم أن اللعبة كلها، بدءاً بازدراد الملح الذي تحبه الحيوانات بعامَّة، مروراً بتزاحمها على الماء، وانتهاء بالطلقات التي تجفلها، إنما تجعل إخصاب النعاج أكيداً، فتلد الواحدة منها وَلُوداً تحمل سَبْعاً في سبع سنين، لكن الطلقتين اللتين تردد صداهما في الهواء المثقل بالمكائد التي جثمت على الحقول، كادتا أن تنقلا الحرب الغريبة إلى الضاحية التي تقطنها العائلة، إذ أطلت من

وسط كيزان الذرة المتدلية في تعب ثقيل، على حين غرة، مئات من فزاعات الطيور بخرقها الملآى قشاً، لكنها لم تجاوز الحقل الغربي، بل ظلت واقفة ترصد بوجوهها المستديرة المنتفخة، التي لا عيون فيها، رقعة العراء الواقعة إلى الشرق من الحقل، حيث بيت عَقْدي، وعائلة عَقْدي، ونعاج عَقْدي الملتفة بعضها على بعض في ذعر صامت لا يقل عن ذعر أصحابها. وإذ لم تقع الفزاعات على نأمة واحدة، طوال نصف النهار، بعد دوي الطلقتين، انسلت إلى داخل الحقل المديد ثانيةً، لا صاخبةً كما جاءت، بل في هدوء، كمن لا يريد إيقاظ النبات الشارد في اشتغاله على إتقان الحِيَل.

في أوائل صيفين متعاقبين كانت تلك الحرب تطلق نفيرها الخافت، ومن ثم تسترسل عابثة بكل شيء، طوال الفصل الواحد منهما: أيّ، تحديداً، عندما تبدأ الكيزان الصغيرة في اكتناز حليب ذي طعم حلو، وتكون الحبوب، آنئذ، متخفية تحت شعر أشقر طويل التِّيْلَة، يغطيه ورق رخْصٌ لم تغو بواطنه الرطبَةَ شمسٌ من شموس ذلك المكان، ومن ثم تنتهي مع بعثرة رياح الخريف للذرة وللورق معاً، بعدما يتركه زارعوه لحصاد الرعب، لا لحصادهم.

حصل الأمر على هذا النحو في الصيف الأول، أما في الصيف الثاني فقد علت النباتات دون سقاية أحد، أو رعايته، متهيئة لموعدها الأحمق، وحروبها الحمقاء، في كل مكان كانت تشغله من قبل، بانتظام لا زيادة في مساحته، ولا تقديم في وقته. والأمر، على اختصاره، بحسب ما تتذكره برينا، هو أن الفزاعات التي نصبها أصحاب الحقول بكثرة بين الذرة، حتى لم يكن ليفصل بين الواحدة والأخرى بضع

خطوات، بسبب من غزوات الغربان المتعاقبة، ما لبثت أن لجأت إلى عصيان محيِّر، فتطرد الغربان وتلتهم، هي، كيزان الذرة، في البداية، ومن ثم يغزو بعضها بعضاً لاقتطاع مساحات من هذا الحقل أو من ذاك، إذ كانت الناس ترى، في وضح النهار، تلك الكائنات التي لا تلوح إلاَّ رؤوسها المستطيلة، ذاهبةً آيبةً، يتطاير من فوقها ورق ذي خشخشة موحشة. وكانت الحقول، بدورها، تقترب أو تبتعد، كأنما تنزلق الأرض الترابية بها بدفعٍ من يدين قادرتين كالغسق الذي يغطي الغرب بجهامةٍ مُرَّةٍ.

لم يكن صاخباً قطُّ ذلك النهبُ المتواترُ على مدى التخوم، والدليل الأوحد على فداحة ما يجري كان اهتزاز أوراق الذرة، وانتقال الفزاعات من جهة إلى جهة؛ تلك الفزاعات التي اختفت بعد الصيف الأول، لتظهر في الصيف التالي أكثر بطشاً وامتلاءً بالقش مما كانت عليه، وبخاصة بعد الفصول المتعاقبة التي فَتَّتَتْ أسمالَها، وشقّقت خشباتها المتصالبة، فتهرَّأت واقفة دون أن تتساقط مثلما تساقطت أسواق الذرة، لتعود، من ثمَّ، ذاهبةً آيبةً، على مدى التخوم، تقتحم أو تتراجع لتقتحم، حتى ليتطاير حَشْوها من القش أحمر قانياً، فيصلُ نثاره إلى سوق المدينة ذاتها، في هبوب الريح صوب الشرق. أمّا كيف كان يصير ذلك القش أحمر فلم يتوقف عنده المتسائلون طويلاً.

هكذا، طوال صيفين، اختزلت أم برينا الكلام إلى بضعة حروف: «فلننتقل»، ولا تضيف شيئاً قط، بل ترجع إلى عادتها في وضع يدها على فمها تكتمه على الفزع الذي يتخبط تحت لسانها. لكن، في الصيف الثالث، لم تقم للذرة قائمة، ولم يعد المزارعون إلى زراعته إلاَّ

بعد ست سنوات، فظلت «زيِّركَة» تضع يدها على فمها، بالنحو ذاته، إنما دون أن تبدر منها، هذه المرات، كلمة «فلننتقل»، التي لن يتذكر عَقْدي قط أنه سمعها من زوجه الهادئة. أما برينا فتسمع رنين الكلمة بكل الصور التي تتداعى من جرائه، كنقل صناديق الثياب، التي تصطدم، أبداً، حين رفعها عن الأرض، بعظام سيقان حامليها فيتأوّهون، وكذلك بنقل أكياس المؤونة من عدس، وطحين، ونخالة، وملح، وسكر، وتبغ، وبرغل، وبعض الزبيب والتمر المجفّف، وما يستدعيه الأمر من وقوف برينا، ذاتها، بمخرز وخيط خشن لترتق جنبات تلك الأكياس، التي فتحت الفئران فيها ما يكفي ليندلق المحتوى كومات هرمية في الزوايا، ولربما وقع أولاد عَقْدي، كعادتهم حين يرصدون الأشياء الثقيلة التي تمكث طويلاً في أمكنتها، على فئران صغيرة جداً، لما تزل مغمضة العيون، ذات جلود وردية تغري بالشفقة، فحملوها إلى دجاجاتهم الشرسة، فتمزقها الدجاجات.

برينا لا تدري ماذا تفعل. برينا حائرة في ذعر بين الزقاق المسدود وغيره من الزقاقات. برينا تشارك إخوتها، وجيرانها، فكاهتهم، وضحكهم من ذلك التحول في الظلام. وبرينا تتمنى، كغيرها، لو تحتجب الشمس لتضع حداً للمهزلة. وبرينا تتفكر، بعد كل هذا، وعلى نحو مفاجئ في الموضع الذي يمكن أن تختاره لخيمة أبيها في الزقاق المسدود إذا انتقلت العائلة حقاً. غير أن الذعر الذي انتاب الحيّ الغربي، في أيام الأولى من اكتشاف المهزلة، بات ينحسر قليلاً قليلاً أمام تأمّل أصاب بعدواه الصغار والكبار معاً، فلم يعد يُرى أحد من أهل الحيّ إلاَّ عاقداً يديه من وراء ظهره، مطرقاً يتفكّر فما يقدر أكثر

الكلاب شراسة، بنباحه، أن يلهيه عن تفكُّره. وكان الصَّبيةُ، برؤوسهم الحليقة إلاَّ غُرَرَها الطويلة المتدلية على الجباه، يَلُوْحُوْنَ في الأزقة على كثير من الطرافة، وقد عقدوا أيديهم وراء ظهورهم كالكبار، وأطرقوا ماشين في همٍّ.

ما من أحد كان يشتغل بعد ذلك الاستغراق، أو ينصرف إلى رزقٍ، بل يستهلك ما ادّخر من مؤونة ليرجع إلى مشيه، قرب سور بيته، (كلٌّ قرب سور بيته) متفكِّراً. ولقد بسط التأمل، على غير توقُّع، سلطانه على باقي أجزاء المدينة، فاعتكف الناس، في الجهات كلها، على التزام أسوار بيوتها، رائحة غادية، تنظر إلى الأعلى والأسفل، واليمين والشمال، ومن ثم تغمض عيونها كأنما تستكمل رصد الجهة التي لن تراها العيون، قطُّ، في مدى ما تراه. لكن «حشمو» و«جهور» عكفا، بخلاف الآخرين، على الاشتغال بصنع سلالم في زقاقهما، إذ باتا يقتحمان الساحات ليلاً، بعد حفر ممرات في الأسوار، ومن ثم يعودان بما اقتطعاه بمنشاريهما من جذوع أشجار الكينا التي لا تخلو ساحة منها. وكانت الناس تفيق على اقتحامهما فَتُخلِّي بينهما وبين ما يريدان، مُغْضَبَةً في إشفاق.

من أربعة إلى ستة سلالم كانت ترتفع، يوماً بعد آخر، لتتكئ على أسوار البيوت، بمسافة لا تتعدى خطوات قليلة بين الواحد والآخر، حتى لَغَدا الزقاق دغلاً من قضبان أفقية وعمودية، ومن ثم توسط هذا كلّه سلّم كهرماني علا أضعاف ما علت السلالم الأخرى، متكئاً على السور العرضي الذي سدّ به الرجلان الزقاق من جنوبه، بهيَّاً باقتدار، فارداً ظله الأصفر على الظلال بحسب الدوران الأبكم

لشمس ذلك المكان. وكان واضحاً لعيني كرزو المتفرستين، أبداً، أن جذوعاً كثيرة قد اقتطعت من الشجرة الكهرمانية، لكن بصيرة الصبي لم تقع على الحكمة في لعبة جهور وحشمو، وإذ ساءل برينا في الأمر ردَّت برينا: «اسألهما».

«كرزو» لن يسأل أحداً، وقد تعوَّد ألاَّ يسأل، لأن الكبار، أجمعين، يستصغرونه حين لا يملكون أجوبة، ويستصغرون الأجوبة حين يملكونها فلا يقولونها.. إنه يعرف، تحديداً، من الذي يحاوره عَقْدي في خيمته المغلقة، ويعرف من أومأ إليه، مبتسماً، من بين الجمع الذي أحاط بالشجرة الكهرمانية، التي صارت كهرمانية، تحت ضربات جسد جهور بن ساري الشبيهة بنطحات تيس. لقد شاء لنفسه، دون أن يخيِّره أحد، أن يكون أميناً على سرّ اللعبة كلها، فبات متجرِّداً من فضوله ككهل يستعجل ما تبقّى، ويضرب، أنّى جلس، على فخذه، مردداً في أعماقه، من غير أن يظهر على وجهه شيء من تساؤله: «لماذا يختارني أخي»

لم يكن سؤال كرزو، هذا، يعادل، بأية حال، سؤاله عن سلالم جهور وحشمو اللذين بسطا سلطانهما الغريب، لا على أرض الزقاق المسدود، بل على هوائه أيضاً. كانا يصعدانها مستطلعين الجهات شرقاً، وغرباً، من فوق الأسوار، كأنما يحاذران أن يباغتهما أحد، أما السّلّم الكهرماني العالي، فكان واضحاً أنّه أقيم لغرض آخر غير الرّصد، إذ كانا يصعدانه، تناوباً، وقد غطى أحدهما رأسه بحطّته فلا يُرى شيء من وجهه، ثم يجلس على القمة كشبح، ضارباً صدره، بين حين وآخر، بجَمْعِ يده، كمن يندب على عزيز ميّت. ولربما جاراهما كرزو، باستخفاف، ضارباً بقبضته على صدره، لكنه كان يستطلع،

بدوره، من السطوح التي يتنقّل فوقها كهرٌ، دون قصد صريحٍ، مدى الأزقة الأخرى، وساحات البيوت، مدفوعاً بغريزة لا تُستَجلى. ويقيناً، لو تساءل أحد عن هذا الحذر كله لما وقع على بيِّنةٍ تستوجبه. فما همَّ إن اقتحمت الناس الزقاق المسدود؟ ما من أحد في منجى من أن يرتسم ظلُّ رأسه على شكل رأس الكلب، والاستسلام للمسألة خير من البقاء أسير ذلك الزقاق الذي يبقي للرؤوس هيبتها الآدمية. زقاق. زقاق. هبةُ الغيب التي لا تُردّ. هكذا، دون مساءلة، مُنِحَ الزقاق المسدود سلطته الغريبة على الظلال. زقاق. زقاق أوحد لا يتعدّد إلاّ في ترداد كرزو للكلمة، حتى باتت الكلمة، ذاتها، متهدلة لا تستوقف المعنى.

لقد مضت الأمور، رويداً رويداً، إثر أيام التأمل الكبير في المدينة، على نحو لا تسيطر على مداها إلاَّ تفاصيلها الباهتة. فخيمة عَقدي الحائلة اللون ظلت على حالها، وظل الحوار، الذي حفظه كرزو بحروفه، جارياً بين الرجل المعتكف وضيفه الخفي: «اسمع». هكذا تتردد الكلمة، إضافة إلى الكلمة الأخرى: «أنت السبب». أما الباب الذي بقي مفتوحاً، في سور بيت عَقدي، على الزقاق المسدود فقد بقي مفتوحاً على حاله، وبهذا كان لتلك العائلة، وحدها، بابان على الأزقة. وكذا الدجاجات لم تَحدِ عن نهجها: تميل برؤوسها شمالاً ويميناً في تدرّج، فتتماوج أعرافها في الحركة البليدة. وهي تتفكّر، بدورها، أن ما تراه طافح بالبلادة أيضاً: ساحة الدار، وصعود كرزو وبرينا المتعاقب إلى السطوح، وتحسس الآدميين لرؤوسهم، والجلاء الغريب للكائنات كلها، إلاَّ جهور وحشمو، عن الزقاق المسدود، الذي كان في مقدورها أن تَخْطُرَ فيه، حيناً بعد آخر، في اختيال ملكيٍّ لا يزاحمها فيه أحد. أي،

بكلام واضح، لم يتلفّت امرؤٌ إلاّ إلى شاغله، وكذا كان أمر الحيوان والنبات، بدءاً بشجرة الكينا الكهرمانية، وانتهاء بعبّاد الشمس الذابل على تخوم حقول الحلبيّين شمالاً.

ما من مسألة تهزّ أحداً الآن. غير أن برينا، وحدها، تنتفض كحنكليس الطين، وهي تكاد تضرب على أحشائها لوماً: «كيف نسيت سينم؟». نعم، سينم، أي عميان كان هؤلاء الذين لم يلتفتوا إلى البلهاء التي انبثق بطنها، رويداً رويداً، فرفع ثوبها كقوس الهضبة؟ أمْ سينم أخبرت برينا، في همس يقطرُ عَرَقاً، فعرقت برينا من رأسها حتى باطن ركبتيها. ولقد كانت الناس في سهو فما يفيقون على شيئ: حبلت أنثى أم وضعت؛ مات امرؤٌ أم عاش. لكن المرأتين تجاذبتا الخبر على نحو يفيض تفهّماً، بإيماءت رصينة مقتضبة. وكان واضحاً أن برينا تحاول، بين الجملة والأخرى، والإيماءة وأختها، عدّ الشهور التي تفصل بين ما بلغه حَبَلُ البلهاء، الآن، وزواجها من بيكاس، فما تتوفّق. يدها المتهدلة على يمينها تنقبض إصبعاً إصبعاً، وتتلوها اليسرى إصبعاً إصبعاً، ثم تنبسطان لتعاودا العدَّ. وفي يسر تخلَّت عن ذلك، في اللحظات التالية، غير عابئة إن زادت الشهور أم عراها النقصان في تكوين جنين سينم. وكانت، برغم المباغتة، يتدرج على سحنتها فيض من حنان مُنسرحٍ، ومن لهفة تتقافز مع الكلمات: «أحضري سينم يا زوج عمّي. سأُعنى بها.. سترين».. أما زوج مهمد بن كُوچري فكانت تحبس، أمام لهفة المرأة الصغيرة، بحث أعماقها عن كلام تُقنعُ به الآخرين. إذ، يقيناً، لا مكان للقول إن هذا الجنين هو ابن كائن اسمه بيكاس، وُلِدَ، ومات، ودفن في اليوم ذاته؛ بل اختفى ودُفنت الوسادة.

أيِّ مُكْنَة أحد أن يجد بلاغةً تعيد نَسَبَ الدم إلى الدم في هذه الحال؟ لو كان بيناڤ حاضراً لنفث دخان لفافته من منخريه، مطرقاً، قبل أن يرفع عينيه إلى أخيه مهمد: «فلنصحِّح المسألة كلها»، ولسوف يحيط أخوه الهادئ وجهه بيديه غير معقَّب، فيسترسل دون انتظار شيء: «إذا لم يصدقوا فليتفضلوا إلى المقبرة». ويصمت متأثراً بصمت أخيه، عارفاً أنه لم يلمس رضى، بكلامه، من نفس الرجل المُطّرق، متلفتاً من حوله في إعياء خانق. ولما يزيد الصمت ثقلاً يقف على ركبتيه في عصبية: «قل شيئاً. أليس لديك ما تقوله؟»، فيرفع مهمد رأسه وقد علا جبينه إشفاق على نفسه وعلى أخيه: «بعد كل هذه الشهور!! بعد كل هذه الشهور!!»، ولم يكن واضحاً أن كان يسأل بيناڤ، أم يستسلم، لكن الملاّ يعود إلى الاسترخاء في جلسته، وفي نفث دخان لفافته: «فلنتفكّر. سيدبِّرها اللّه». ويتمتم مهمد: «كم مرة سيدبرّها اللّه يا ملاّ؟». «إلى الأبد» يشدد الملاّ على الكلمات وهي تخرج من تحت شاربيه الكثين، رافعاً كفّه إلى مستوى عينيه كأنما سيلطم نفسه: «إلى الأبد.. عليه أن يتدبّر هذا البلاء إلى الأبد»، وترتخي كفّه بعد ذلك كمن يأسف على كلام لا يليق به، مطلقاً تأوّهاً خفيفاً: «أووه، يا إلهي»، ويعقد لفافة جديدة قبل أن يطفئ التي بين شفتيه.

يقيناً، ما من إقناع حتى لو كان الملاّ حاضراً. وحده عَقْدي، بسطوته، يقدر على إسكات الأفواه والأعين معاً، لكن عَقْدي لا يبارح الخيمة المغلقة، مسترسلاً في مجادلاته حول ما يمكن أن يتقاسمه الأباطرة الغائبون. ولقد ضاقت المشورة حتى بات كرزو يدلي بحذائه

فيها: «البنت مجنونة يا برينا. قولي للناس إن بطنها مجنون أيضاً»، فتنتظر برينا إلى فكاهته في نفاذ صبر: «راقب الزقاق بحق اللّه، فذلك أفضل ما تفعله».

كانت المساجلات قائمة طوال يومين بين برينا وزوج مهمد، حتى عرف أولاد الملاّ وعقدي، معاً، بوقائعها التي كانت الغلبة فيها لبرينا: «سأعود بها إلى بيتنا ـ بيت الملاّ. سنعود كلنا»، هذا ما قرّرته المرأة الصغيرة، وقد فرح بقرارها أولاد الملاّ حقاً، بعدما لزموا بيت عَقْدي مكرهين، تحت سطوة أولاده وترفُّعهم الذي لم ينتقص منه أيُّ حدث. وفي اليوم الذي حملت المرأة، والصِّبية، متاعهم في لفائف وصُررٍ، وتوجّهوا إلى الباب المطل على الزقاق الغربي، وفي حين وطأت أقدامهم العتبة التي تفصل ملكية آل عَقْدي عن أرض الدولة المشاع (المشاع دون قصد)، مَدَّ أولاد الملاّ ألسنتهم للأولاد الآخرين، الذين لم تبدر منهم بادرة ردّ فعل قط، بل ظلّوا يحدقون في الراحلين بعيون صارمة حتى اختفوا.

شجيرة الزيتون، وحدها، تستدير بعيون أوراقها على الجهات في الساحة الفارغة؛ تلك الشجيرة التي لن تكبر من وحدتها قط، وهي تتفرّس، رويداً رويداً، منذ أمدٍ لا يقدِّره إلاَّ النبات، في أبواب الغرف الشماليّة، والغرف الشرقية من ساحة بيت الملاّ ببيناف. شجيرة زيتون مهملة، ترتدُّ، برهة بعد أخرى، على المضيق المظلم في جذعها الرقيق، وغصونها الرقيقة، بعدما أعياها المناخ الشمالي المستهتر عن أن تتسع حدودُ مباهجِ ورِقها، وغصونِها، على الفراغ المثقل بسمائه، وبضوئه.

شجيرة وحيدة حتى لو دخل إلى الساحة آباءُ آباء الملاّ، لا برينا وأولاده فحسب. لكنهم، إذ دخلوا، تنفّست الشجيرة الصعداء، لأن ثمت من سيقاسمها وحدتها الآن. ولذلك، بحسب ما يمكن التكّهن به، وفقاً لتمايل الغصون، واهتزاز الورق كأنما تميل به رعشةٌ من جهة إلى أخرى، أبدت الشجيرة المذعورة من ذاتها بعض احتفاء شابَهُ ثقلٌ واضحٌ، فاحتفى الداخلون بها، بدورهم، وهم يملأون الفناء صخباً بمتاعهم القليل.

أتستطيع شجيرة ممتهنة إلى هذا الحدّ، (من أتى بها أيها الإله؟) أن تروي ما غاب عنه الرواة منذ غادرت العائلة البيت، إثر اختفاء الملا؟. هي لن تحكي على كل حال، برغم ضجرها الواضح من ذلك الإهمال، ومن أساها في تلك الوحدة المؤبّدة، بغياب الناس أو بحضورهم، لكن جدران الغرف المتقابلة، شمالاً وشرقاً، تفصح عن وعيدٍ متبادل بينها وبين شجيرة الزيتون. الغُرفُ حانقةٌ ككائناتٍ حيّةٍ حانقة. يتقشَّرُ عن جدرانها الملاّطُ الطينيُّ الرقيق بفعل الصخب الأبكم لِلَّبِنات، كأنما هي قلوب تنبض تباعاً، متجاورةً، يهيب أحدها بالآخر فيفيق على ذعر. فلقد كان يُشْغِلُ تلك الجدران أن ترى الشجيرة الساخرة تلك عاكفةً على ما هي عليه من نماءٍ لم يزدَدْ ولم ينقص. والجدران تخمِّنُ، وفق حسابٍ مُضنٍ. أن الشجيرة تتقصّد ذلك تقصُّداً، بنحو من اللهو، أو الممازحة المُرَّة، لذلك تعيا عن كتمان وعيدها الذي يلوح شقوقاً طويلة تنبثق منها نباتات معرّشة قزمة، اصفرت أطرافُ وريقاتها.

على كل حال، عكفت العائلة العائدة، في يومها ذاك، على تنظيف الغرف، ونكش الأرض المحيطة بشجيرة الزيتون، ومسح الأقفال ببعض الزيت. وهي لم تَنس، بالطبع، أن تحفر حفرة صغيرة لتملأها بالماء للدجاجات التي ستحضرها غداً، عوض الحفرة القديمة المندثرة. غير أن سينم، وحدها، لم تلتفت كثيراً إلى ما يجري، ولم يطلب منها أحد، عن قصد من الشفقة على عقلها وبطنها معاً، بل كانت تحدّق، وهي تعبر عرض الساحة جيئة وذهاباً، في باب الغرفة الشمالية، دون هأهأة، كأنما تحاول، لمرّة واحدة في حياتها المهدورة كمخيِّلتها، أن تمسك بخيط ما يعيدها إلى نسيج حيٍّ. ولمّا أبصرتها برينا، بغتةً، على حالها تلك، توقفت عن كناسة العتبة الواطئة، ناظرةً إلى البلهاء في حذرٍ من يباغت شخصاً في هيئة لا تليق به، ثم استدركت ذاتها فطأطأت، قبل أن ترفع رأسها، ثانية، على صوت يتنامى فرحاً: «عليه أن يقول: كوكو. بيكاس ديك». وكانت سينم، حين نطقها بالكلمات تلك، تقترب من باب الغرفة الشمالية، لتفتحه وتدلف إلى الداخل، ومن ثم تردفه من ورائها، في هدوء، لتنبعث من مزلاجه النحاسي طقطقاتٌ تتدحرج على مدى الساحة.

الفصل الخامس

الأجنحة الهائلة البيضاء تخفق خفقاً عنيفاً فيغطي الأرض ريشُها المتطايرُ من الأفق إلى الأفق، وما من شيء يتحرك في فناء بيت الملاّ، حتى شُجيرة الزيتون. أما في الأعلى، فكان السلك ذاته، الذي يعبر من جهة إلى أخرى، يتمايل بحفنة الزرازير التي حطّت عليه، متشبثةً به بمخالبها حتى لا تجتثها الريح القوية، وكان ريشها يرتفع صفّاً صفّاً كأنما يتخلّله مشطٌ خفيّ.

بياض مديد ومرتفع. أجنحة هائلة بيضاء: هكذا ضرب الثلج بأوتاده هناك، ورفَع خيامه. وكان ثلجاً مبكراً جداً في اقتحامه، عجولاً، أمهلَ الخريف بعض أيّامه الأُوَل، ومن ثم أخلّ فأَنْقَصَها. لكن من يعاتب الثلج؟ أبيضُ غريقٌ، تلتقطه الزرازير السوداء بمناقيرها لترفعه إلى المسافة. بل أبيض أبلهُ، طاووسيٌّ، عارٍ من النمنمة الرحيمة التي تحرّر الشكل من شَبَهه. أبيضُ إلى غاية البياض. راكنٌ إلى لُعبةِ لونه. جاهلٌ، وعليه سيماء البطَش.

ثلجٌ؛ وإذ يرفع كرزو عينيه إلى السلك يظلّلهما منه ومن رياحه اللاسعة يتمتم: «ثلج كلبٌ، وابن كلب». ولربما مسح «زيوان» بخار الأنفاس عن زجاج النافذة من الداخل، ناظراً إلى أخيه، ومن ثم إلى الزرازير متمتماً بدوره: «ثلج كلب وابن كلب». ولم يكن «زيوان» يرى من اقتحام الثلج الغريب هذا إلاَّ أن يعود إلى فخاخه.

على حين غرّة، غطى «الثلج» المدينة. أفاقت الناس صباحاً فرأت بيوتها غارقة حتى منتصف أبوابها في البياض المتلألئ، أمّا من كان قد أفاق فجراً، للصّلاة، فقد عكف عائداً إلى فراشه حين أعياه تفسيره للبرد وللباب الموصد معاً. وبدأب اشتغل المشتغلون، في ما بعد، ليحرّروا

الأبواب أولاً، والممرات والطرق ثانياً، بقليل من الأسئلة عمّا فَجَأهم بهذا الانقلاب. ولربما كانوا على حق في ذلك الإهمال المقصود للأسئلة، إذ استنفدوا، ليومين، من قبل، كل دَهَشِهم وفضول أعماقهم، في تخمين أسباب الغبار الذي غطى كل شيء. وكان غباراً لجوجاً، ينفذ من الجدران ومن الجلود الآدمية. وأعقبته، من ثم، ريح باردة كادت تجتث خيمة عَقْدي (هذا ما قالته زيركهْ لابنتها برينا)، لولا أن هبّ أولاده فتعلقوا بأطرافها المُخَلْخَلة.

ومن الذي سيقف طويلاً بأسئلته أمام غبار، وريح، وثلج، يرثُ أحدهم الآخر بصخب أو من دونه، وقد تعوّد أن يشهد ما يهدم الأسئلة؟ الرؤوس لم تزل ظلالها على الحال تلك من انعكاسها الكلبيّ، أعلى الثلج كانت الظلال أم على الطين. السلالم ترتفع في الزقاق المسدود، والتأمّل المستشري بعدواه لم يبارح: الأيدي خلف الظهور، والرقابُ منحنيةٌ على الضائع الذي لن تجده. المسجد ابتعد.. نعم، المسجد ابتعد عن رقعته جنوبي الشارع المعبّد الوحيد، الذي يصل القامشلي بعامودا، وبغيرها. ففي يوم الجمعة (الذي صادف اليوم الأول من هياج الغبار) خرج المصلون بعد انقضاء الصلاة من باب المسجد، فلم يجدوا أحذيتهم التي تعوّدوا أن يتركوها خارجاً، بل رأوا عوضاً عنها، جداول رقيقة من الماء سرعان ما اتسع جريُها، تتسل إلى الداخل. تعوذُوا، ثم رفعوا جلابيبهم حتى الركَب مع ارتفاع الماء في أرض المسجد. وكان الأدهى أنهم، حين نظروا من الباب الواسع، أو من الشبابيك الواسعة، لم يجدوا الشارع أو البيوت التي تحف بالمسجد من الشرق والغرب والشمال، كأنما دفعت يدٌ بالمسجد إلى الجنوب، حيث يعبر فرع من نهر جغجغ قرب الهضبة التي

يعلوها المطار. نعم. الأعين لا تخطئ الأمكنة التي تعرفها، برغم الغبار الذي ضرب بأقفاله على المسافات.

الماء. الماء. «استوى بعرشه على الماء». تلك كانت الجملة الولى في خطبة الملاّ أحمد، بعد الحمد للّه وشكره على نعمه، «وجعلنا من الماء كل شيء حيّ». «من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب» هكذا خلقنا اللّه. ماء. ماء. والملاّ أحمد يتفصد عرقاً فيمسح جبينه بمنديله البنيٍّ الصغير: «تسقون أرضكم بالماء فَتُتِّمُ لكمُ الثمراتُ. خذوا الماء في أيديكم، وانظروه منسلاً من الرّاحات. من سيقبض على الماء؟ نوح. أكان.. أكان البطُّ لولا.. أكانت آباركم رحمةً.. أكان أولادكم؛ وأنتمن؛ وعظام آبائكم؛ ولهاثكم؟ كلاب الماء.. سنونوات الماء. ستسألون عن قطرة يوم القيامة فلا تجدون غير الغسلين. انظروا الحراشف؛ انظروا أَرْجُلَ الإوزّ والضفادعِ؛ انظرو الشجَرَ الحمار»، ويلقي إمام المسجد نظرة من حوله في استهجان مَنْ يرى استهجاناً: «هاها. الشجر. سترونه راكضاً. سترون زعانفه وغلاصمه، انظروا» وكشف عن طوق جُبته: «هذه غلاصمي» فكادت الناس أن تهبّ واقفة وهي ترى تحت وَدَجَيْ الخطيب غلصَمَيْنِ ينفتحان وينغلقان في تُؤدةٍ. «أرأيتم؟» هكذا بادرهم الملا أحمد، وأردف: «اجلسوا» في صيغة أمر لم يتمالك المصلون معها إلاَّ أن يجلسوا متمتمين. وإذ ساد هدوء ثقيل بعد برهات من ذلك، استرسل الخطيب في خطبته: «تلمّسوا أوداجكم» فتلمَّسها الجالسون على نحو آليٍّ يشوبُه الفزع: «من أين جئتم؟» سأل الإمام سؤاله الي لا يعني به أحداً. «جئتم من هناك» أضاف في خشونة وهو يشير بأصابعه العشرة إلى اللامكان: «من الظلام.. من الظلام.. من الظلِّ الباردِ، المُسْتَفْحِلِ،

القويِّ، المحبوك كالسجّادة؛ من ظلِّ الظلِّ؛ من الظلِّ الذي لاَ لون له سوى لونه؛ من ظل كرسيّه».وتلفّت إلى كل اتجاه هامساً: «كرسيِّيييه..»، ثم أرخى يديه مطرقاً ليجعل الصمت أكثر ثقلاً تحت شفاه الجالسين. «كرسيِّه» وانتفض بعد إلقاء الكلمة ككرة: «الكرسي ـ العرش، العرش ـ الكرسي. ربكم الذي وسع كرسيُّه السماوات والأرض. ربكم الجالس في فراغ حكمته. نعم، في فراغ لا تدركه الكلمة، أو الشعاعات، أو الصلاة نفسها». واستدرك: «لا. للصلاة يد كجناحٍ تلمس الكرسي خفقةً خفقةً، دون أن تبلغ الفراغ الذي..» ومسح جبينه بمنديله، مردفاً في اختصار واضح: «الفراغ، هناك. ربكم في مكان وكرسيُّه في مكان، وأنتم في ظل الكرسي، في الظلام الأشدّ جمالاً أيها..» وانتبه بدوره إلى الماء الذي تسلل من البوابة الكبيرة دفقةً دفقةً، رخيّاً هادئاً كأنما يصغي، فكشف عن طوق جبّته: «هذه غلاصمي».

منذ أول جُملة في خطبة الملاّ أحمد استشعر المصلّون رائحة الماء؛ رائحة الغرّين والقصب القزم النفاذة على ضفتي نهر الجغجغ، لكنْ لم يفاتح أحدٌ أحداً بسؤاله عن الرائحة تلك، إذ كان الوقت وقت خشوع. بيدَ لمّا بلغ الأمر مبلغه، واستقرّ الماء تحت منبر الخطيب، أسرَّ الجالسُ إلى الجالسِ بما اعتمل في نفسه، وكيف كتم ما كان ينبغي ألاّ يُكتم. وقد ادعى كل امرئ السبقَ في بصيرته وفي منخريه، لكن المسألة كانت اكتملت. قال الملاّ أحمد: «هذه غلاصمي»، ومن بعدُ فَاجَأَهم: «تلمّسوا أوداجكم» فوقعوا على غلاصم بدورهم، تحت الأوداج، فدار بهم المسجد قليلاً من الفجاءة: رجال بغلاصم. متى خرجوا من الأنهر بحقّ اللّه؟ لقد صرخ الملاّ أحمد: «جئتم من هناك» فما الذي قصده بقوله؟

الظلام؟ ظلام الكرسي أو ظلّه؟ ألا بدّ للمرء من غلاصم إن وُلد في الظلّ؟ وقد نسوا أمر غلاصمهم في حمّى البحث عن أحذيتهم. «أين نحن؟» ردّدها كل من خرج من الباب. وإذ استفحلَ الهمس المتسائل أوقفهم الملاّ أحمد بصرخته من المحراب الذي لم يبارحه: «ما حاجتكم إلى الأحذية؟ استخدموا غلاصمكم».

استقر الفخ الأول تحت السلك العالي، حيث استقرت الزرازير. «زيوان» لم يضيّع فرصته، وكان «كرزو» يراقبه سارحاً بفكره إلى شيء آخر، من نافذة الغرفة الشرقية. أما في الغرفة الشمالية، فكانت أنفاس «سينم» تستقر بخاراً تتسع حلقته على زجاج النافذة المطلة على الساحة البيضاء.

برينا كانت تنظر إلى الساحة بدورها، من خلف رقبة كرزو الشبيهة برقبة أبيه في انحنائها. وكانت تضم إلى جنبيها طفلي زوجها الآخَرَيْن، «عاني» و«حمزات» اللذين بلغا الآن، على التتابع، السابعة والخامسة من عمرهما. لكنها تستقر ببصرها، بعد أن تدور به الساحةَ، على نافذة الغرفة الشمالية، كأنما تجتاح الداخل، ومن ثم تحيط بالمرأة البلهاء منصتةً إلى خفقات جسد الجنين: «كم هو دافئ؛ كم هو حيٌّ. تحرّكْ، تحرّكْ، بين يديّ»، وكانت تفتح يديها كمن يتلقّى هبة، من مكانها هناك، في الغرفة الشرقية، وعيناها لا تبارحان الجدار الذي يستر سينم، وأعماق سينم، وما خلف سينم وأعماقِها.

هدهدةٌ، دافئة كانت تؤرجح المكان كله، بثلجه، وزرازيره، وفخاخه، في انتظار الوليد الذي سيحمل، بين ساعة وأخرى، إلى برينا تعويضاً لن تملك سواه. وهي لم تتفكّر قط في تبرير للمسألة. لم تتفكر في

الوقت الذي سيَلي. لم تتفكّر في زائريها، وفي مساءلاتهم. ستغلق البوابة مثلما أغلقتها «خاتي»، من قبل، حين جاءها «بيكاس»، وهمُّها أن ترى حفيدها الذي لن تُقنِعَ أحداً بأنه حفيدها.

في نزق بارد تتسع مملكة برينا، ويتسع العبث الضارب ببلاغته الصارمة في ثلج الساحة، وفي نزق، أيضاً، تتدحرج صرخات الطفل الخفيضة على المكان كله، حين تدخل برينا إلى غرفة سينم، أو تخرج منها، لاهثة: «هاتوا بالأقمطة. هاتوا بحساء العدس. هاتوا..» أوامر على غير هدى يخرج بعض كلماتها وتضيع الأخرى تحت اللسان.

هكذا، بدأت عائلة الملاّ الغائب مساءها ذاك، وسط فوانيس ضئيلة اللهب تعدو بها أشباح عبر الساحة. وقدحضر ولادة ابن بيكاس، غير المصرّح به، أم برينا، وام سينم، والقابلة التي أحضراها، بعدما تولى كرزو، ذاته - وهو يشتم كلّ ما حوله - تبليغ المرأتين همساً، بحسب رغبة زوج أبيه: «ستلد سينم». وقد كاد أن يقع كرزو في ملاسنة مع أولاد عَقْدي الذين اخشوشنوا معه آن دخوله ساحة بيتهم، عصر ذلك اليوم، لكنه جاوزهم ركضاً، واقتحم الباب المغلق دون أن يخلع حذاءه. ولمّا خرج مصحوباً بأمهم، جمع كرة من الثلج وأهوى بها على خيمة عَقْدي، التي علا حوافها ثلج سميك، من خلف ظهر المرأة، التي عبرت البوابة من قبله، فتوعده أولاد عَقْدي بحركات من الأيدي تشير إشارات تنمُّ عن الذبح. وقد رد كرزو، بدوره، بإشارات سفيهة، قبل أن يصير خارجاً، إلى جهة الزقاق الغربي.

ما كان على أحد أن يسأل عمّا يجري في الزقاق المغلق، إثر اقتحام الثلج العجول لأقاليم الشمال، لكن ذلك لم يكن يمنع، بأية حال، أن

تظل للزقاق شؤونه التي يتناوب على اختبارها كلٌّ من جهور وحشمو. وكانا الوحيدين اللذين لم يربكهما الثلج المبكر جداً، إذ عمدا، منذ النُّدَف الأولى، إلى صعود السلالم وهبوطها، ماسحَيْن عن أخشابها ما يعلق بها من خُثارة السماء، أما السلّم الكهرماني فكان كفيلاً بنفسه، يزداد التماعه المضيء الأصفر كلّما ازداد الهطول الأبيضُ كثافةً. غير أن ساحة بيت عَقْدي، التي كانت تغوص في ثلجها أرجل الدجاجات السارحة، لم يشغلها شيء قط، وظلت منطوية على نفسها، كالخيمة المنطوية على نفسها في زاوية السور، تميد فتتسع، ومن ثم تنطوي فتضيق، دون أن تدع لأحد فرصة الوقوع على سرها. وكان مفهوماً أن يغفل القابعون داخل الغرف، من عائلة عَقْدي، عن أحوال الساحة، لكن ما من عذر للخيمة المنتصبة هناك، تلك السادرة في محاورات هامسةٍ داخل ظلام أعماقها.

ثلج على سطح الخيمة. ثلج ينزلق رويداً رويداً عن الحواف المائلة فتطغى خشخشة انزلاقه على صوت عَقْدي: «أعرفهم واحداً واحداً. أكلوا كلابهم من الجوع، وهاهم يتطاولون عليّ!!» ثم يسود صمت لبرهة، قبل أن يردف: «دوّن في دفترك أنني سآخذ قرية ترْبَسْبِي أيضاً. هل أظلمك بهذه القِسْمة؟»

من يدوّن كلام عَقْدي في خيمته المغلقة كأعماق دجاج الساحة؟ إنه هو السبب كما يردّد عَقْدي. الضيف الخفي هو سبب المسألة كلها، وهو يدوّن في دفتره ما يتقاسمه مع عَقْدي من رقعة الشمال المديدة. تلك هي الحكاية، مختزلةً، منذ اعتكاف الرجل الجَهْم. وكان سؤال كرزو الوحيد، قبل الرحيل عن منزل عائلة برينا، منصباً على مدى

جهل عَقدي بالتحول الذي أصاب ظلال الرؤوس: «كيف له أن يرى من قبره هذا؟» ويدور حتى يواجه الشمس، تاركاً لظله أن يسقط على جدار الخيمة، ومن ثم ينبح ككلب، ضارباً بكفه على القماش السميك الذي يعلوه الغبار: «تعال نَنْبَحْ معاً يا جدي». ويبصق متمتماً: «يا جد الكلاب».

كانت أوكار النمل تتجاور من حول الخيمة بانتظام: فتحات صغيرة مخروطية بما يحوطها من تراب ناعم، وغدوٌّ ورواحٌ، من كائنات يتقرى بعضها البعض بقرون استشعاره فلا يصطدم الخارج بالداخل قط، بالرغم من العجلة الواضحة في حركاتهما. ولربما عمد كرزو إلى الحيلة المعروفة في إشعال الخصام بين نملتين، ليخفف قليلاً من انتظاره المملّ لما يمكن أن يبدر عن الخيمة. والخيمة لا تثير فضول أحد سواه. إنها منسية، وهذا ما يغيظ الصبي، فيرفع نملتين، بين أصابع يديه، ثم يدانيهما حتى تلتقط إحداهما الأخرى، من الغضب، بكلاّبتَيْ فمها. إذ ذاك يُنْزِلهما كرزو إلى الأرض ويفلتهما، فيأخذ العراك مداه، ولا ينتهي إلاّ بقطع رأس واحدة منهما.

النمل الأسود نملٌ غضوب، يرتدُّ مهاجماً إصبعك إذا لامسته بها. وهو جشع، يخبئ من الحنطة ما يكفي مؤونة شتاء لعائلة من أربعة أنفار. ولقد كان دأب الناس، في بدايات الخريف تحديداً، أن تنكب على حفر أوكار النمل بعمق مترين، في الغالب، متتّبعة الممرات الباطنية، حتى تعثر على «المخازن» فتنهبها، وكان على النساء، من ثم أن تُحضر غرابيلها، الصغيرة منها والكبيرة معاً، ليجري فصلُ الحَبِّ المختلط. غير أن زوج مهمد بن كُوچري، أم سينم، كانت معتكفة ذلك

النهار، الذي صرخ فيه عَقْدي بضيفه: «سآخذ قرية تِرْبَسْبي»، على غربلة النخّالة، لتمزج القشور الخشنة منها بالتبن لبقرتها الوديعة كابنتها . وفي الوقت ذاته الذي كان كرزو يضرب بكفه القماش السميك لخيمة عَقْدي، كانت سينم تضرب بكفها على دلو البئر في ساحة بيت أبيها منصتةً، إلى الصدى الممتزج بهَأْهَأَتها، وقد استندت ببطنها المنتفخ على حافة الدائرة الحجرية للفوّهة، برغم أن أمها حذرتها مرتين من قبل: «ألا تحسّين يا عنكبوت الحظيرة بانتفاخك هذا؟ لا تستندي إلى الحافّة هكذا، ستقتلين الحشرة التي تحملينها».

ما همّ إن قتلتْ سينمُ ذلك التعب الذي أقلق أحشاءها بانتفاخه العصيِّ على فهمها؟ كانت تتأمل نفسها، في لحظات غير مُحْتَسَبَةٍ من تأمُّلٍ طارئ وغريب، متلمّسة تلك الكرة التي تدفع سرّتها أماماً كزهرة طائشة: «بطني، بطني»، تطلق الكلمة في حبور كحبور طفل بقوس بوله، وقد أخذت الهأهأة الصاخبة منها مأخذها . أما أمها فعَيَتْ وهي تدير السّر على محمله بأن تشد بحزام على وسط ابنتها حتى ليكاد الوليد أن ينزلق خارجاً، أو يزاحم موضع الرئتين. ولَكَمْ حثّتها، أوّل أعراض الحمل وأواسطه، أن ترفع عشرين دلواً، كل يوم، من مياه البئر، وأن تصعد السلم وتهبطه مائة مرة، لكنها بكت ـ أم سينم ـ إذ رأت ابنتها منزلقة على الوحل الذي يُحدثه ما يندلق من الدلو حول البئر عادةً، يتنازعها الأنين والهأهأة البلهاء معاً، وهي تمسك بأحشائها، دون أن ترفع وجهها الغائص، جانبياً، في الوحل الداكن. وأم سينم، منذ ذلك اليوم، لم تحث ابنتها على شيء ثقيل من هذا: «ليكن ما يكون. هذا امتحان الله، وتعويض بالنعمة على البلاء».

«امتحان اللّه». كان الملاّ بيناڤ يكرر كلمتي «امتحان اللّه» كثيراً كلما حاول شرح الأمر لأخيه «مهمد»، لكن برينا لا تنطق بكلمة واحدة ذلك المساء، حيث يضيء المصباح الشاحب خصلة من الشعر أفلتَتْ بتمهّلٍ على طول صدغها وفكها، بينما راحت تمدُّ القابلة، من وراء ظهر أمها وأم سينم، بأواني من «الـچنكو» وبأقمطة كثيرة، وهي بادية الجذل. ومن ثم هبت منطلقة إلى ظلام الساحة، وتمتمت دون أن ترى مَنْ تكلّمه في ذلك البرد الصامت: «اذهب إلى باڤي كازمو، وقل له أن يهيئ عربته وجواديه وله عشر ليرات»، ومدت يدها بالنقود إلى كرزو الذي تعرف أنه يقف هناك، في الظلام، منتشراً كالندُّف البيضاء التي توقفت قليلاً لتسترسل أشدَّ هطولاً، بعد ذلك. «هاك» همست، فتناول الصبي النقود ومضى على عجل نحو بوابة السور.

أكرمت برينا القابلة فأتتها بعربة لا تخرج في ليل كذاك عادة، ثم واكبتها حتى البوابة بمصباح يتدلى لسانه المضيئ ككلب عطشان. وإذ أردفت البوابة كادت تركض عائدة عبر المسافة لا تزيد على مائة متر، لكنها، شفقة عى شعلة المصباح المتمايلة في وهن، ارتأت أن تهرول، حتى دون أن تلتفت إلى شبح الصبي الملتصق بالحائط، تحت النافذة. ولما دخلت علقت المصباح إلى جوار مصباح آخر أكبر حجماً، ثم جثت، كرة أخرى، في الموضع ذاته، خلف المرأتين اللتين انصرفتا إلى شغلهما مع سينم ووليدها. وكانت سينم، على غير عهدها بما تعوّدته، تحبس هأهأتها وهي ترفع رأسها، بين ثانية وأخرى، في ذهولٍ شفيفٍ، ناظرة إلى وجه الوليد الذي لا يبدو منه، في ظلال المصباحين، غير فم مزموم وأنف أفطس كبير على نحو واضح، وعلى نحو واضح، أكثر من المرأتين

الأخريين، كانت أم سينم تطحن الأسئلة الصامتة تحت رحى أعماقها، وهي تغوص بنظراتها، عميقاً، تحت جبهة ابنتها فلا تقع إلاَّ على فراغٍ يتناهشه إوزٌّ غضبان. «ابنتي». نعم، «ابنتي»: كلمة تبقى تحت لسانها الذي تعض عليه داخل فمها المغلق. وما الذي، بحق، يمكن أن تضيفه إلى كلمة «ابنتي»؟ لسنين لم يكن لأي حوار معنى، لذلك اختزلته مع بلهائها إلى إشارات بلهاء، وجُمل غير مكتملة، وأنصاف حروف، وتأتآت، وشتائم. وفي ودّها، الآن، أن تقول شيئاً آخر، فلا يسعفها غير خيط مالح من الدمع يصل العين بزاوية الفم. وعينها اليمنى، تحديداً، هي التي بدأت الكلام.

مراراً بكت زوج مهمد في الشهرين الأخيرين من حمل ابنتها، إشفاقاً، ولم يكن يشغلها، قط، أن تقدم هي، أو زوجها، تفسيراً لأحد. إنهما غير مدينين بجواب حتى لله، بعدما شهدت هذه اللامدينة انزلاق مسجدها جنوباً، وعواصف غبار بلا نذير، وثلوجاً تثير القهقهة في فصل كان ينبغي على الناس أن تنتظر فيه أول المطر وهي جالسة على عتبات أبوابها، مشيرة إلى رفوف الكراكي المترددة في عبور الشمال الدافئ حتى أعماق أنهاره الصغيرة. بل الأكثر صدقاً أن أم سينم كانت تبكي إشفاقاً على كل شيء: على ابنتها، وعقدي، وجهور، والملاّ بيناف، وخاتي، وحشمو، والرؤوس التي ترتسم ظلالها على هيئة رؤوس الكلاب. إنها تبكي لما يضفيه البكاء من خشوع على هذا العبث كله، الذي لا تدرك منه إلاَّ انتفاخ بطن ابنتها: «البكاء، دون ادّعاء ذلك أمام الناس، يقي أرواحنا من غواية الضحك الذي يذهب بالهيبة». هذا ما يقوله زوجها، وهي لا تفهم من ذلك إلاَّ أن للبكاء حشمةً لا يهتكها أحد يوم القيامة، ولا يعترض الباكين ملاّك من الملائكة، أنّى مضوا

على وجوههم في أنحاء أرض الحساب ذات المقامات. غير أن ابنتها كانت تجرف بهأهأتها الملائكة الوقورين، فينسون حتى أحذيتهم النورانية وهم يهرولون خارجين من ساحة بين مهمد. والبلهاء، طوال الشهرين الأخيرين من فترة حملها، اللذين ملأتهما أمُّها بكاءً أخرس، لم يخامرها قط أن تكون المسألة إلاَّ لعباً. وهي، بأي حال، لا ترى في كل ما تراه غير هزل يدغدغ الحياة. ولطالما كشفت عن بطنها مستطلعةً، في هذه الزاوية، أو في تلك، حين باتت تدرك، من كثرة من انتهروها، أن الآخرين لا يستحبون ذلك، ولربما عمدت إلى أن تحبو، وهي تقارن جذعها بجذع البقرة فيزيدها خيالها المتكوِّر على ذاته صخباً، فينتهرها من ينتهرها، من جديد، إذ يفضحها صخبها. وهاهي ترفع رأسها قليلاً، دون هأهأة، محدقة في وجه وليدها الذي لا ترى منه غير أنفه وفمه.

أما كرزو فكان يجهد من مكمنه البارد أن يرى أكثر مما يراه، لاعناً ظهر المرأتين (زوج مهمد وزوج عَقْدي) المشتغلتين على أشياء لا يراها، مستديراً بين الحين والآخر بعينيه إلى شباك الغرفة الشرقية، وقد وضع راحتيه بين فخذيه، ليشير إشارات مهدّدة إلى الرؤوس التي تتزاحم معتمةً في ما يعكسه مصباح الداخل من ظلالها، جاهدةً، بدورها، أن ترى، لكنها، يقيناً، لم تكن ترى إشارات كرزو المتوعّدة، بل الشبّاك الشحيح بضوئه، كأنما تهرب الغرفة الشمالية، رويداً، رويداً، إلى حدود أخرى للظلام.

إنهم أولاد الملاّ الثلاثة، زيوان وأخواه «عاني» و«حمزات»، مَنْ ينظرون إلى الخارج، حاجبينَ براحاتهم الصغيرة ضوء المصباح عن

عيونهم الملتصقة بالزجاج حتى يروا الساحة، وهم يتتبعون كرزو بأعينهم ليكون دليلهم إلى ما يجري. وبرغم أن الظلام يقتحم الأرض مبكراً في طقس كذاك، فقد ظلوا محدقين في شبح أخيهم. وإذ تساوت الأشكال تحت خمائل الساحة المعتمة لم يتراجعوا: الراحات والأعين تزداد التصاقاً بزجاج النافذة، والأنوف تشم الخطى الخفية، حتى ليكادون أن يمدّوا أيديهم، في لحظة فضول كبيرة كالحمّى، عبر الساحة كلها، إلى جدار الغرفة الشمالية ليزيحوه، من أساسه، كباب خزانة خشبي، كاشفين المشهد على عريه.

والمشهد عارٍ، في الداخل، على كل حال: ولادة كأية ولادة. تعب، وأقمطة، وحساء محلّى من السميد والخبز، وأحاديثُ فَكِهَةٌ، وفضول أطفالٍ. غير أن ما كان ينقص هذه الولادة، لتكون كمثيلاتها، هو انتفاء الزائرين تماماً، عدا مهمد، الذي مرّ بالساحة مروراً، في ذلك الظلام. وقد توقف عند شبح كرزو دون أن يجاوزه، ثم سأله بضعة أسئلة وعاد أدراجه كما جاء. وإذ مرت ساعة، أو ما يزيد قليلاً، بدأت حركة النساء الثلاث، في الداخل، تشهد يقظة قلقة. وكان كرزو، دون أن يسمع كلمة واحدة منهن، يتأمّل انقلاب الإشارات في الأيدي، وتبدّلات الوجوه المقنّعة بظلال المصباحين، مبتسماً ابتسامة مكر يخفيها الظلام. لكنه أجفل قليلاً من صرير البوابة الكبيرة، فالتفت محدّقاً في إمعان، دون أن يسعفه الشعاع المنسرب من تحت طبقة الثلج من رؤية شيء. حينذاك تقدم بنفسه صوب البوابة، وإذ قاربها توضح له العراء الرمادي الذي يلي الدّفة الخشبية المفتوحة قليلاً. همس: «تفضل»، كأنما يداري ارتيابه بنبرة مؤدبة. وبالطبع لم يتفضل أحد بالدخول، فتقدم أكثر حتى

العتبة، ثم مدّ عنقه خارجاً، مديراً عينيه في اتجاه اليمين واليسار، من غير أن يرى كائناً، أو شبح كائن. وإذ همّ برد البوابة المفتوحة سمع خشخشة خطى في الثلج، فانتفض في اتجاه الخارج من جديد، دون أن يجاوز العتبة مما اغتلى فيه من فزعٍ خفيفٍ كدغدغة.

لم ير كرزو أحداً يمضي، غير أنه لمس الخطى المبتعدة لمساً بيديه لا بأذنيه، فخطا بدوره في اتجاه الشمال، حيث الخلاء الواسع الذي لا يوقفه غير خيط قصير من البيوت، ودغل ينتهي بأسلاك شائكة تفصل البرّ التركي عن البرّ السوري. ولم يخامر كرزو، في تتبّعه الغريب للخطى الغريبة، خوف قط. بل كان أقرب إلى الغضب بانفعاله، يكاد يهرول بإصرار مَنْ يعرف أن أمراً ما فاته مراراً، وهاهو الآن مشرف على إدراكه، لاهثاً: «انتظرني، انتظرني يا كلب»، ثم يتوقف مهدّداً وهو ينشج: «سأخبرهم، والله، أنك كنت هنا طول الوقت: قرب الشجرة الكهرمانية، وفي خيمة عَقدي، وفي الزقاق المسدود، سأخبرهم..» ويحتبس الكلام في حنجرته التي تلين تحت دغدغة الدمع الساخنة فوق وجنتيه، لكنه، إذ يستدرك حاله كمغلوب على أمره، يتمتم بضع كلمات يائسة: «أنت لم تره بعد. أنت لم تر الوليد بعد .. يا».

جهامةٌ تتفجر بين الثلج والظلام. النساء الثلاث يغلقن بهرولتهن القلقة، في الغرفة الضيقة، ما يحاول كرزو أن يستجليه، في التصاقه الخائب بالنافذة. وهو سادر، في الأرجح، بين خيبته وبين ما يراه بعينيه دون أن يمس قلبه، كأنما يتناوبان، هو والمشهد، على الهرب، أحدهما من الآخر. والساحة سادرة بدورها: شجيرة الزيتون التي لن تكبر قط من وحشتها تنفض عن ورقها، في تمايل حسابيٍّ، رقائق الثلج التي لم تتكثّف

بعد. وهي ترى الآن، كما كانت ترى في كل آن، في الظلام أو في خلافه، الجهات الأربع بحسب تتاليها المنطقي: الغرفة الشرقية، والبوابة المتصلة بجدار الغرفة وبالسور معاً. والسور الغربي الذي ينتهي بجدار غرفة التنور. ومن ثم الغرفة الشمالية التي تتصل، بسقفها، ببيت يجاورها، وقد وحدتهما زاوية مشتركة بضلعين: شماليٌّ وغربيٌّ، وفي الجنوب ثمتَ غرفة التنور، والحظيرة الضيقة، وجدار خلفي لأحد البيوت التي تطل بأبوابها جنوباً، ممتدٌّ كسورعال بين آخر جدار للحظيرة وبين الغرفة الشرقية، حيث تتزاحم الوجوه الصغيرة على استجلاء شبح كرزو. وفي مُكْنَة شجيرة الزيتون هذه، عدا الجهات الأربع التي تراها، أن تتأمل السماء أيضاً. بل أن تتأمل، تحديداً، تلك التويجات الباردة البيضاء التي تفتتها يدٌ ذكوريّة من الأعلى الضائع في علوّه. وهي، بعد كل هذا، تحاول، مثل كرزو، أن ترى المشهد الذي يخفيه زجاج النافذة الغارق في الشحوب، لكنها لا تقدر أن تتطاول على جذورها، مثلما يفعل الصبي بتطاوله على أصابع قدميه، فتغمرها لوعة لا تخفيها إلاَّ الشبكة الرمادية المنسوجة من ثلج وظلام.

لقد تعوّدت شجيرة الزيتون التي لن تكبر قط، في غياب العائلة، أن تتفنّن في إبداء حنقها على تلك الوحدة المقدَّرة عليها عن سابق إصرار واضح، ومُحْكم. ولم تكن تأبه، بحقّ، لهؤلاء الذين تتدحرج ظلالهم البنفسجية من خلفهم على الساحة المهجورة. وهم، دون حاجة إلى تمعُّن أو حصافة، كائنات لا تراها إلاَّ الشجرة، بدلالة أن العصافير، وهي الأكثر ريبة بين طيور الشمال، لم تلحظ مرورها. بيد أنها، يوماً بعد يوم، ألفت حضورهم الخفيف، متسلّيةً كشجرةٍ وحيدةٍ، بالتأمل

المرح في أحوالهم، حتى أنها صارت تفتقدهم حين يغيبون ساعات الفجر، فلا يظهرون، بعدئذ، إلاَّ قبيل الظهيرة. وكانت تتكهّن، كثيراً، بالذي يفعله هؤلاء ـ ذوو الملامح الضائعة تحت الشعور الطويلة، والعباءات التي يجرّون أذيالها وراءهم ـ في ساعات غيابهم تلك. وهي ـ الشجيرة التي لن تكبر قط ـ لم تكن مفطومة على أن تُغضي قط حين ينظر إليها أحد مّا: «الشجر لا يغضي». تلك بديهة النبات، إذ لا يُفْتَرض أن كائناً، أياً كان، قد يلتقي بصره ببصر جذوع تحمل أغصاناً تحمل أوراقاً وثماراً. تلك بديهة النبات، لكن شجيرة الزيتون هذه تُغضي تماماً حين يتأملها ذاك الغارق في بياض عباءته وشعره، وفي بياض عينيه أيضاً، والمتأبط دفتراً أزرق حال لون دفتيه. وكانت في إغضائها تكاد أن تلم غصونها وأوراقها لمّاً. والشجيرة، وهذا ما حيّرها، كانت ترى الجهات بكليّتها: من هذه الورقة ومن تلك؛ من هذا الغصين ومن ذاك، فكيف يحصرها الكائن ذو الدفتر حصراً بنظرة تحيلها عيناً واحدة في قبالة عين واحدة؟ إنه، يقيناً، رقيب المكان المهجور عليها، كما هي رقيب المكان المهجور عليه وعلى الجمهرة الشبيه به. ولقد طالت فترات المجابهة، بتتالي الوقت، بينها وبين الكائن ذاك، حتى أجفلها، ذات مرّة، مقترباً اقتراباً غطاها بظله البنفسجي، فأحسّتْ به كما لم تحس، من قبل، بشيء آخر، قط.

إنها تعرف ما تتركه الريح، قويًّا، ورخيًّا، بين الغصون؛ وتعرف نَهْبَ البرد ونهب الحر. تعرف الغبار الطائش والمطر الوديع، وخلافهما. ولكل معرفة من هذه أثر يسري بأهوائه إلى أعماق جذورها، حَرِّيفاً مرةً وحامضاً مرّةً، مُرّاً مرّةً وحلواً مرَّة. مُزّاً مرّةً وما بين هذا وذاك، مرة

أخرى. غير أن لظل الكائن الحامل دفتره مذاقاً شيّقاً؛ مذاقاً كسيادة جذر قويٍّ أو كسيادة ثمرة قوية؛ مذاقاً كانتظار مُفْعَم بالعذوبة أو بالشهوة. أما حركة يد ذلك الأبيض من ثيابه حتى عينيه فكانت أشبه بحركة رؤومٍ عهدتها الشجيرة من قبل. إذ دأبت تلك اليد، مراراً، على أن تقلب بعض الورقات، كأنما تتفحّص عافية الشجرة طُرّاً، في رأفةِ مَنْ يُقلقُ طفلاً بقبلةٍ لا محيد عنها. وراعها كم الحركة تلك شبيهة بما كانت يد الملاّ بيناف تهرقهُ، بأناملها الخشنة من أثر الوضوء في البرد، على أوراقها. ولقد كانت الشجرة تتأمّل أنامل الرجل الوقور، زوج برينا، بخلجاتٍ وَلهَةٍ، ولو مكّنها الكلامُ منه لاستوقفته وهو يقلّب ورقاتها، داعية كل عطف فيه أن ينثني على غصين منها: «أغمرني بك قبل أن تأخذك الظلال». وللظلال، في عرف الشجيرة التي لن تكبر قط، مقام قَلِقٌ: الظلال لعبة طائشة. الظلال هي ضجر الكُتلة من كثافة الكتلة.

لم يكن غير الظلال في الساحة المهجورة، قبل رجوع برينا بأولاد زوجها إلى البيت. وكانت الشجيرة عاكفة على تصنيفها بحسب اللون والشكل والرائحة. نعم... «للظلال رائحة». هذا ما عرفته هذه النبتة الغبراء التي لم يجاوز طولها المتر، وقد تنسّمتِ الظلَّ البنفسجي الذي كساها فألفته على مزيج من رائحة الملاّ بيناف. وهي تعرف رائحة الملاّ بيناف العالقة بها وبالتراب الذي من حولها. وإذ تحاول تحديدها يستعصي التحديد: «رائحة.. كماذا؟» إنها مترفة باختلافها على كل حال، وها للكائن الأبيض الغارق في بياض نَسَبٌ ما، برائحة ظله، إلى الرجل الوقور الذي أخذته الظلال، بحسب تخمين الشجيرة، لذلك استأنست يدَهُ. وهاهي ترى، الآن، من المكان ذاته، شبح كرزو المهرول

في الظلام صوب البوابة، بعدما أحسّتْ مثله، تماماً، بأن أحداً ما يسترق النظر إلى الساحة، من وراء الدّفة التي فتحها على بعض مصراعها. وكمثل كرزو، أيضاً، تعرف من يقف هناك؛ تعرف الخطى الأكيدة التي تخشخش في الثلج؛ ذاهبة في الاتجاه ذاته؛ إلى ضجر الكثافة من كتلتها.

ما من تحديد للمسألة في برهة الراهن، تحت صرخات الوليد الآتي من أحشاء سينم بكل جهالة تلك الأحشاء. وما من تحديد للمسألة في البرهة التالية التي شهدت انقلاب حركات النساء في غرفة سينم: «المسألة!! أية مسألة؟» قد تهمس أعماق أحد ما. وهو على حقٍّ يقيناً، مثله مثل كرزو والشجيرة، إذ أن صورة أم سينم وأم برينا، وهما تخرجان معاً، ملتصقتين، في ذهول يتبينّه الثلج وسور الساحة، يوقظ الكلّ (الهواء، وما يلمسه الهواء) على مهزلة دخلت بيت الملاّ، ثانية، بعد تسعة أشهر من تشرّدها. ومُخْتَصَرُ اللعبة كلّها، أن سينم أنجبت ابناً ذكراً على هيئة أبيه في انقلاباته، وما كادت تحلّ الساعة الثانية من ولادته حتى كان يتحسس شاربيه كمن يتفكّر في اعتذار مناسب. وكانت برينا تتفكّر، بدورها، في اعتذار مناسب، لا إلى أحد، بل إلى نفسها: «لا بأس»، ومن ثم تتطلع من حولها كأنّها تستنجد: «أين أنت يا بيناف؟».

كان على أم سينم وأم برينا أن تعودا إلى الداخل من جديد، بعد ذلك الهرب الذي لا تعرفان لماذا أقدمتا عليه، وقد تبعهما كرزو، مستغلاً ذهولهما، وشرودهما عنه، فألفى برينا ممسكة بيد ابن ابنها المستند بظهره إلى مخدة عالية، وهي تسأله في هدوء ثقيل: «ماذا

نسميك؟» فابتسم الوليد الذي اقتسمت ملامحَهُ الغامضة ظلالُ المصباحين، ملتفتاً إلى أمه المفتوحة الفم على هأهأةٍ محتبسة: «ماذا ستسمينني يا أمي؟» فانطلقت الهأهأة عارمةً من بين شفتي البلهاء التي لم ترفع رأسها المعصوب عن المخدّة. «اووه» تمتم ابن بيكاس مستدركاً، وأردف: «خُلقْتِ من الهَأْهَأَةِ يا أمي». وتفرس فيها في حنان رجوليٍّ: «لقد ملكتِ كلَّ شَيء». ثم جال ببصره على وجهي المرأتين المختفيتين في ثيابهما الثقيلة كروحيهما، وجاوزهما إلى وجه كرزو الغارق في الظل من خلف المرأتين، مبتسماً: «أنت كرزو، إذاً؟ حيّرتني يا ابن جدي»، فلم يعقب كرزو، بل نطقت برينا: «أتعرفه أيضاً؟ حيّرك بماذا يا.. »، فأكمل ابن ابنها ما لم تقله هي في جملتها: «بيكاس. فلأكن بيكاس الثاني يا جدتي. هذا هو اسمي». «بيكاس» رددت برينا بعده، وأكملت: «ليكن يا بيكاس. قل بِمَ حيّرك كرزو؟» فنظر بيكاس الثاني إلى كرزو، لا إلى جدته: «حيّرني بلعبته».

ليس على أحد أن يغرق في شروح تتصل بشروح، لذلك تواطأ الحاضرون، من كرزو إلى البلهاء، على مجاوزة ما يستوقفُ عادةً. فإن وردت كلمة «حيرني بلعبته» على لسان بيكاس الثاني، فما من داعٍ لاستيضاحه في أمر اللعبة التي يعنيها. والأجدى أن تتم المجادلات، من ثمَّ، على انفراد: أم سينم ستسأل أم برينا عن المحنة الجديدة. برينا ستسأل كرزو عن اقتحامه للغرفة. سينم ستسأل ابنها إن كان ديكاً. كرزو سيسأل بيكاس الثاني عن الذي يعنيه بكلمة «حيَّرتني بلعبتك». ابن سينم المحيِّر سيسأل برينا عن مدى تعبها من العبء الذي حمَّلها أبوه، والذي سيحمِّلها، هو، الآن. شجيرة الزيتون، التي لن تكبر قط، ستسأل الشبح

المقترب، رويداً رويداً، صوبها، وهو ينظر في اتجاه نافذة غرفة سينم، عن الملاّ بيناف. وسيسأل الثلجُ الظلامَ عن قلقه الظاهر هذه الليلة.

أسئلةٌ، أو بقايا أسئلة، غير أن العيون يقظى على المشهد: الآدميون، والشجيرة، والثلج والظلام، واللامرئيون، يرقب أحدهم الآخر في فضول منمّق لا خوفَ فيه، أو قلق. لعبةٌ تُستَكْمَلُ، وليلٌ يزحف زحفاً في اتجاه الغد، كجريح قابض على أحشائه خوفَ أن تندلق. وصوتٌ ليس إلاَّ صوت كرزو وهو يخاصم أم سينم التي نهرته على وجوده في الغرفة: «اذهبي أنتِ إلى بيتك. سأبقى هنا»، فتردُ عليه برينا: «اخجل يا كرزو من زوج عمّك». ومن ثم يرتفع، على غير تقدير، صوت سينم ذاتها: «أبي لا ينام»، فتهمس أمها: «نامي أنت يا ابنتي. أبوك نائم الآن».

ما الذي ألهم سينم جملتها تلك؟ مهمد بن كُوچري رجلٌ وديع وصموت. تقيٌّ وعفيفٌ. مكتفٍ، ولا أسئلة لديه عن أحوال العالم. زوّجه أبوه ذو القرنين، حسين بن حسو الميرسيني بن كُوچري، من «عيشانة» بنت «أُوسي بدرخان» وهو لم يزل صبياً. ويزعم الزاعمون أنه دخل عليها بعد سنتين من وجودها في عهدته. وكان دافع حسين الجليُّ هو تقرُّبه الغامض من «أوسي» الذي لا نفوذ له على أحد، بل يحمل في جسمه ما يحار أيّ نفوذ في فهم ذلك. وللغرائب، بحسب عرف الناس في الشمال، كراماتٌ. وما من تفسير لإقدام حسين على تزويج ابنه الصبي غير ذلك. والأمر، برمَّته، أن «أُوسي» أصيب بطلقة في الحرب التي دارت بين الأكراد والبدو في قرية «قولو»، وقد انتقل، من ثم، مع المنتقلين من أمثال حسين بن كُوچري، إلى قرية موسيسانا،

التي حشاها تراباً ليوقف النزيف، آنَ أُصيِبَ، ف
ضر، امتد بأوراقه الشوكية، من الكتف اليمنى
دي الأيسر.
راب الذي حشا به جراحه مختلطاً ببذور الحر
أن الرجل كان يصرِّح أنه لا يشعر بأي ألم من
سده، برغم اضطراره إلى قدّ ثيابه في المستوى
وبات ذهوله الذي اعتراه، أول الأمر، يتحول
يلاء، رأى فيها الآخرون قسطاً من امتحانٍ إ
هذا تقدم حسين بن كُوچري إليه طالباً يد ابن
وبعد أيام من انتقال ابنة «أوسي» إلى بيت حس
حرشوف إلى مقبرة موسيسانا. فلقد غطى النب
ظهوره بين الناس مستحيلاً، وغدا ارتداؤه لل
إذ حاول بعض أهله تشذيب ذلك الحرشوف بالم
لجزَّ الصوف، هزّهم صراخ الرجل كأنما
فّوا عن ذلك. غير أن الحرشوف امتد وفاض، فك
رّ وراءه ذيلاً من النبات كذيل العباءة، ولمّا أصبح

«أبي لا ينام» تكرر سينم كلماتها، فلا تردّ أمها، بل يرد بيكاس الثاني: «إذا نمت يا أمي ينمْ جدي أيضاً»، فتغطي سينم وجهها، على حين غرّة، باللحاف، ثم تسْفِرُهُ على النحو المفاجئ ذاته، كما يفعل الأطفال حين يلهون، مهأهئةً: «نامت الدجاجة. نام البئر. نام السور. نام كَلَشْ. نامت بريخانة. نام الشّبّاك..» فتقاطعها برينا: «كلنا سننام يا سينم. ألسْتِ جوعانة؟» غير أن البلهاء تجاوز السؤال، محتوية، بغتةً، رأس ابنها بين ذراعيها: «أنت ديك».

بيكاس الثاني يزداد اتساعاً، خليّةً خليّةً، شعرةً شعرةً، عظْمةً عظْمةً، ثَنْيةً ثَنْيةً، غضروفاً غضروفاً، مفصلاً مفصلاً، تجعيدةً تجعيدةً، ظلاً ظلاً، عمقاً عمقاً، وكثافةً كثافة. بيكاس الثاني يختزل كلام الآخرين إلى حروف تعجّب. وبعض الإشارات العمياء في الملامح الحائرة. والحاضرون، يقيناً، (أربعُ نساءٍ وصبي) يستأهلون هذا الاختزال، وهذا التقتير في الشرح وفي غيره. فالجميع مرّوا، من قبل، بما يرونه الآن، وبيكاس الثاني، على غير عهدهم بأبيه، ملولٌ حتى الإعياء. ضَجِرٌ من الأسئلة، متأففٌ: «أستبقون من حولي هكذا؟ دعوا أمي تتنفّس، ودعوني أتنفّس» فيلتصق الجالسون من حوله بالأرض بكلاّبات خفيّة، ثم يتململون فيخلعونها ناهضين كالأشباح: «أنتركك مع أمك؟» يقول صوت ما على اللا تعيين، فيردّ المتكئ الغامض، ابنُ ظلٍ يحمل دفتره الأزرق أبداً: «لا. سأخرج أنا، ولتبقوا أنتم في هذه الغرفة».

حين انسل بيكاس الثاني من تحت اللحاف السميك لم يكن عارياً، بل يرتدي ثياباً نسائية هي بعض من ثياب برينا نفسها، التي لم تغفل

عن أمر كهذا، فأحضرت لحفيدها ما لم تجد غيره في بيتها. وحين شارف الباب استوقفته جدته: «أأنت خارج حقاً؟» غير أنه لم يجب، بل مد يده إلى مقبض الباب فأداره، ثم خرج تواكبه كلمات متفرقة: «قدماك حافيتان. البرد. خذ اللحاف». وإذ أوصده من خلفه كاد يتنفسُ الظلامَ كلَّه ملء رئتيه: «ها أنا». وتقدم حافياً في الثلج صوب شجيرة الزيتون. تأملها كمن يرى في الليل أعمق أعماق جذورها، ثم دار من حولها نصف دورة، مبتسماً، واتجه إلى البوابة الكبيرة في السور، متغاضياً عن خطوات كرزو الخفيفة التي تبعته. فتحها، ودلف خارجاً.

ثمت أمر يحصل اتفاقاً وسط الظلام المهيمن، وكرزو يعدّ خطوات ابن أخيه إلى الجهة المعلومة تماماً: «كنت أعرف» يقول الصبي لنفسه. «كنت أعرف أنه هنا». ثم جلس القرفصاء لصق السور، وهو يمعن النظر في شبحين يستغرقان في عناق طويل، وينفصلان مسافة خطوتين بعد ذلك، يتفرس أحدهما في الآخر، ثم يمضيان شمالاً. وإذ تقدّم كرزو خلفهما، بالخفّة ذاتها، عثر في مكان عناقهما على مستطيل رمادي، لم يكن غير دفتر حال لون دفتيه فما يُميَّزُ قط، في ذلك الظلام. وضعه كرزو تحت إبطه في إهمال، وقد أخذته الحيرة: أيمضي قُدُماً أم يرجع؟ وآثر، بغتة، أن يرجع، هامساً في قرارته: «لن يبتعدا».

لم يكن كرزو في حاجة إلى شرح شيء حين دخل غرفة سينم المضطجعة بذلك الدفتر. ألقت النساء الأربع عليه نظرة غير مستفسرةٍ قط، ثم عدَّلْنَ النظرة تلك فيما بينهنّ فأمست استجلاءً وفضولاً حول سِيَرِ آبائهن. وكنّ يتناوبن - أم سينم وام برينا وبرينا ذاها

ـ الكلام، في حمّى يرتفع فيها الحرف المهموس وأخوه معاً، كأنما يضربن بذاكرتهن المبسوطة، كمراوح القش، تلك اليعاسيب اللجوجة التي تحمل الحاضر من جدار إلى جدار في الغرفة الضيقة. ومن العسير، بالطبع، شرح إقدامهنّ على سرد سِيَر الآباء، على هذا النحو من الاستغراق الذي أنساهنّ ما هنّ فيه. نتفٌ تتداخل: شهامات لا حدود لها، وبسالات لا حدود لها. قرون من شَعَرٍ لكل الرجال. حواجب معقودة على كثافتها. قامات منحنية في خَفَرٍ ذكوريٍ من أثر التواضع. عيون لا تحدّق بل تومئ. جباه بغضون قد تبني العصافير أعشاشها فيها. أنامل طويلة، وراحات وسيعة تقبض على حقل بأكمله، أقدام مفلطحة كما ينبغي أن تكون أقدام رجال يَزِنون الأرض من تحتهم، وأعضاء أخرى يجري الكلام عنها في همس نديٍّ.

آباء يجدرُ بأيٍّ أن ينتسب إليهم. آباء متهوِّرون يخترقون أعماق أبنائهم من الطفولة حتى الشيخوخة، فيخلخلونهم. وسينم ترفع رأسها بغتة، قائلة: «أبي لا ينام»، فيرد كرزو في لؤم لا يخفى: «ليس على أحد أن ينام». وليس على أحد، يقيناً، أن ينام في هذه الفوضى الغامرة للطقس وللوقائع. فحشمو وجهور يتناوبان الصعود إلى قمة السُلّم الكهرماني ككشّافين على صارية؛ وعقدي يقتسم، بصوت عال، أقاليمَ لم يرها، بينه وبين الظلام في خيمته. وقرية «الهلالية» تغرق في دوي الطلقات التي لا تهدأ بين المهرّبين وخَفَر الحدود؛ ونهر «جغجغ» تلتحمُ ضفاف فرعيه بالثلج الذي يتمدّد قليلاً قليلاً فوق الماء كأغصان الغَرَب. وشجيرة الزيتون التي لن تكبر قط، من وحشتها،

تنتفض من همس صوتٍ تعرفه يسأل شخصاً تعرفه: «أين الدفتر؟».
وكرزو يتجاهل نظرات برينا إلى الدفتر الملتصق بأضلاعه الرقيقة تحت إبطه، وهي حيرى في مقارنته بالذي كان زوجها يتأمل فيه فضّةَ رعبه. أما الحالُ التي وصلتْ دغلَ «الهلالية» بدغل «نصيبين» فكانت إمعاناً من الشمال في حبكته المضحكة: فما من ورقة سقطت من شجرة الدغل ذاك إلاَّ سقط مثلها في الدغل هذا. ما تطاول غصن في دغل الهلالية إلاَّ تطاول مثله في دغل نصيبين. ما مال جذع شجرة في دغل الهلالية إلاَّ مكال مثله في دغل نصيبين.

ما انحدر جذر في تراب دغل الهلالية أعمقَ إلاَّ انحدر مثله، أعمقَ، في تراب دغل نصيبين. أيُّ غصن في دغل الهلالية يرى، من عليائه، ما يراه غصن في دغل نصيبين. أية ورقة في دغل الهلالية ترى، إلى أسفل وإلى أعلى، ما تراه ورقة في دغل نصيبين. أيُّ جذر في دغل الهلالية يشمّ الذي يشمه جذر في دغل نصيبين: كل دغل يحصر المدى بباصرتين: باصرته وباصرة الدغل الآخر. تقاطعٌ، وتخاطُرٌ، يهيمنان حتى ليكاد النسغ في شجرة من دغل الهلالية أن يسيل من جذع شجرة في دغل نصيبين إذا تجرّح.

اقتسام نباتيٌّ للرؤى كلّها، وللمكان كله، والثلج والظلام اللذان يهرقان المسافة فتضيق كبؤبؤ، أو تتسع كبؤبؤ، يرفعان طرقاتهما على بوابة بيت الملا بيناف، فتلتفت برينا متسائلة: «كرزو؟» وإذ تقع عنياها عليه عاكفاً على صفحات الدفتر قرب المدفأة تومئ: «الباب.. افتح الباب»، فينهض الصبي متثاقلاً، وقد ضمّ الدفتر ثانية تحت إبطه، ثم يمضي ليفتح البوابة المرتفعة في ظلام الجهة الشرقية.

كان الوهج البنفسي قاسياً على عيني كرزو حين فتح البوابة: رجال متحلّقون في ثبات صارم، لا تبين من رؤوسهم إلاَّ خِصَلُ شعر على الجانبين، مشعّة بفعل الضوء الذي يحجبونه بظهورهم. ولم يفطن كرزو، من المفاجأة، أن يسأل نفسه عن مصدر الضوء، وهو العارف أن لا ضوء في ذلك الزقاق، أو في غيره، من بيتهم حتى وسط المدينة، حيث ترتفع، هناك، قرب المباني الحكومية، بعض الأعمدة ذات الفاكهة الزجاجية في الأعلى. وقد أحس طعماً حامضاً تحت لسانه، وخدراً في أرنبتي أنفه حين مضى أولئك الرجال، على مهل، إثر سؤال صغير، وهو يلمح بغالاً مضيئة تتبعهم، فتختلط ظلالهم بذعره الصامت.

«أين ابن بيكاس؟» كان هذا هو سؤال أحدهم، بصوت خافت ذي رنين قسّم إجابة الصبي إلى مقاطع مرتعشة: «لا.. خرج.. رأيتهما يمضيان.. نعم.. هناك»، فاستداروا إلى حيث أشار، ومضوا. غير أن كرزو، برغم ذلك الثقل الغريب في دمه، وفي حدقتي عينيه، آثر الوقوف أمام البوابة، وقد راعه أن أولئك الرجال توقوفوا بعد مدى غير بعيد، متحلقين، من جديد، حول شبحين التقوهما اتفاقاً، وقد حدّد شكلهما الضوء ذاته الذي يلف ظهور البعض وجوانب من وجوه البعض الآخر، فتقدم مستأنساً وقد عرف ابن أخيه بيكاس الثاني. لكن ابن سينم هذا فضّ الحلقة متجهاً صوب الصبي، بخطى نصف عجولة يُشْتَمُّ منها نفادُ صبر، أو تعنيفٌ، لابدَّ منه، وإذ قاربه رفع يديه مباعداً ما بين أصابعهما، نافخاً: «من أنت يا كرزو؟»

سينم تتكئ على مرفقيها وهي ترفع نفسها صوب الوسادة لصق الجدار، ناظرة إلى أمها في اعتذار طفولي لا مبرر له، كأنما تقترف

ذنباً، برغم هأهأتها التي توحي بشيء آخر. وسينم لا تخفي، كونُها بلهاء، ذلك التساؤل الأحمق الذي استبد بها: «أين بطني»؟ منحنية برقبتها صوب نصفها السفليّ، مسترسلةً وهي تضرب كفاً بكف: «خرج الديك»، وسط النظرات المشفقة للنساء الأخريات اللواتي لم يتوقفن عن سرد سِيَرِ آبائهن: «هكذا انهار ابن كزمو الدَّقُوَّريّ». «هكذا أهوى عليه بالخيزرانة فتَجمد سبعة أشهر من فزعه». «هكذا وُضع العقالُ في رقبته فاسترسل الزّبد من فمه حتى آخر بيت هناك».

«لا. كلب كالبقية. وثق به فأغمد في أضلاعه، من القفص الصدري حتى العمود الفقري، شيشَ التنور، لكنه تحامل على جرحه فخنقه بيديه، وظل جالساً، أربعة أيام، لصق جدار بيته، لا يبارحه ليلاً أو نهاراً، بينما تجدّد امرأته النار المشتعلة في الحطب كلما خبت. وإذ حضر بعض الدرك الخيّالة من عامودا أشار إليهم أن يتقدّموا فتقدموا. وبينما هم في قبالته أخرج الشيش، الذي بقي مُغْمَداً هناك أربعة أيام، من بين أضلاعه، أصفرَ كأنما غُسِلَ بالزعفران، وأحنى برأسه إلى الخلف، حتى لامس الجدار، هامساً: أصاب الشيشُ شجرة وردٍ في الجنة».

ما من شيء سيوقف النساء عن روايتهنّ، كأنما يبتعدن قليلاً قليلاً عن ريشة الملهاة الساقطة من فراغ أعماقهن على سجادة الغرفة. سيثرثرن حتى يضيع آباؤهن في مهاوي الكلام. سيخترعن ويسترسلن، نافخاتٍ في الاستفاضات أرواحاً ميتة. ستؤكد واحدتهن ما تقوله الأخرى بإحناءةٍ من رأسها لتمضي، هي، في سرد ما ستؤكده الثالثة بإحناءةٍ من رأسها أيضاً. وإذ ستتفتق جماجمهن الصغيرة عن

تويجات الكذب الصغيرة، ستمهل إحداهن الأخرى فائضاً من الطنين، ضماناً لدورها هي، حتى تستنفد المتحدِّثةُ أنفاسها.

ثلاث نساء: أمٌ وابنتها، وجدَةٌ وليد الابنة، وعراء أبيض محدد بسور تفضي بوّابته إلى عراءٍ أبهى، قلق من شهوته إلى مدى لا يُساكنه أنسيٌّ أو وحشي، لكنه راضخ، في ذلٍّ، لخطوات رجال يستديرون بلحاهم البنفسجية إلى حيث يقترب ابن بيكاس من كرزو، صارخاً به: «من أنت يا كرزو؟». والصبيُّ يحار في سؤال ابن أخيه، فيتمتم: «أنا؟». ثم يتدارك نفسه: «وماذا أكون غير كرزو؟». غير أن سؤالاً آخر يخلعه من أعماقه المندلقة: «أين الدفتر؟»، فيلتفت إلى مصدر الصوت المتسلل من بين حلقة الرجال الغريبين، فلا يلمح إلاَّ نصف وجهٍ معتمٍ، بعيدٍ قليلاً، لكن أنفاسه الثقيلة تلمس غرّة الصبي كأنما هو على مقربة أنملٍ منه. ويغيم المشهد، برمّته، في عيني كرزو، دون أن يصدق: «الدفتر؟» ناظراً إلى يديه الفارغتين، وقد رفعهما على نحو يوحي بالدعاء: «أين الدفتر؟» ويستدير برأسه إلى الخلف، صوب بيت أبيه: «أظنني نسيته هناك».

كان الدفتر معه حين خرج، غير أن انزلاقه من تحت إبطه، هنا أو هناك، سهواً، لا يبدّل من دهشه العامر بالصوت الذي فجَأه لبرهة، وهو العارف: طوال الوقت أن صاحب الصوت لم يبارح المكان: «كان هنا. والله كان هنا» يردد الصبي الصامت في أعماقه، مضيفاً بصوت مجفل مرتعش: «أين أبي يا بيكاس؟» وبيكاس لا يرد، لأنه استدار، كأنما هو عازف عن إجابة الصبي على سؤاله. لكن كرزو يتقدم من

ورائه، مزمعاً أن يسأله ثانية، فيستوقفه «بيكاس الثاني»: «أنت لجوج. اسأل جدك عَقْدي ساري».

لم يكن مهماً أن يسأل أحداً، فالظلام الرمادي مثقل بحركة الرجال الغامضين، وعينا الصبي لا تستوعبان فترتدان إلى حدود معرفتهما بالأشكال، تماماً كما ترتد عينا سينم إلى حدود أقاليمها الصغيرة، هناك، في المكامن التي تقضم الجهات منها مسافاتها، أو تنكمش كحلزونات مذعورة. وسينم، من مكانها الدافئ، تحت اللحاف السميك، لا تصغي إلى آباء النسوة الخارجين من ظل المصباحين الشاحبين في الغرفة، بل إلى العماء الملقى كوشاح على الخارج كله، سارحةً معهُ سَرحانهُ الأعمى، حيث يخرج والدها من جهة الزقاق الذي أغلقه جهور وحشمو، وتخرج هي من جهة الزقاق الغربي الموازي لذاك المغلق، ملتفةً حول نفسها، في المركز الذي يتحول فيه ظل رأسها إلى هيئةٍ كلبية، وهي تصرخ: «أنا لست أميّ. أنا صبيٌّ». هكذا ردّدت ما ردّدوه على مسامعها، حين كانت أمها تُرضع، دون سبب واضح، خروفاً في يومه الثالث، من ثديها. ولمّا همّت هي، بدورها، أن تعري صدرها، قيل لها إنها صبي، لأن الصبي لا يملك ثديين مُرْضعين أو ناهدين. غير أن ثدييها كانا على حجم يؤبه له، وإذ بوغتت بظل رأسها الغريب قالت ما قالته دون أن تحاجج نفسها على ذلك، بل كادت تضيف كلمات أخرى من مثل: «أنا سروال»، أو «وسِّع الغربالَ يا ربّ». والكلمة الأخيرة من اختلاقات أمها المتباهية، في هدوء شديد، بإيراد حِكَمٍ من هذا النوع، وهي تفسّر الغربال على أنه الرَّحم، يَسْقُطُ الطالح منها ويبقى فيها الصالح. وكان على الله أن يوسّع قليلاً، بحكمته، في ثقوب الغربال

لتسقط سينم. لكنّ ما حدث لا يُرَدّ، فبقيت البلهاء. والبلهاء تنبس بحكمة أمها على خلاف القصد منها. ببغاء. هكذا، عليها أن تكون ببغاءَ جحيمٍ باردة، منتشرة كالثلج الذي حاصر الأرض بمنجنيقاته البيضاء، ناظراً في غضب إلى الأعلى البعيد كبياضه. أما والدها الذي يخرج من الجهة الأخرى المسدودة، فيهمس، إذ يفجؤه ظل رأسه على هيئةٍ آدمية، لا كلبية: «سامحيني أيتها البلهاء، يا ابنتي، ويا سندي الرحيم». وهو يذكر ابنته، لا سواها، بسبب من خصامهما المضحك قبل قليل من ذلك، فلقد عنّفها على إلقاء حجارة في البئر، منحنية على مائها بذلك الانتفاخ المُتْرَف الذي يتوسطه سُرَّتُها: «تفسدين الماء، وأنت لا تساوين دلواً منه»، ثم شدّها من إحدى جديلتيها حتى أنها ترنّحت، وكادت تسقط على جنب، وإذ تمالكت البلهاء استقامتها ثانيةً، قالت وهي تهأْهِئ: «الماء حفرة يا أبي، وانت حارس الحفرة» فردّ عليها: «وأنت مصيبة»، فوافقته بغتةً: «أنا مصيبة. البئر مصيبة، وأنت مجنون»، فَهمَّ مغضباً، وهو الهادئ، أن يصفعها، لكنها استرسلت في كلام جمّد يد الرجل من خجله: «أحبك يا أبي. أحبّ ظلّك»، والتفتت صوب البئر: «البئر تسرقك» فحار «مهمد بن كوچري» بأيٍّ يجيب، ثم استدار ماضياً إلى جهة الزقاق المسدود.

«لماذا عليَّ أن أسأل عَقْدي ساري؟» يتمتم كرزو. أثمت من يستطيع أن يسأل عَقْدي ساري، على أية حال؟. الخيمة موصدة، من الداخل، بالأخشاب وبأشياء أخرى لا يعرفها غير ساكنها. ولربما أخفاها الثلج، الآن، تماماً، وليس على أحد إبداءُ قلق مّا حول الأمر، فالتواطؤ محكمٌ. ففي اليوم الأول، أو الثاني، أو الثالث، أو أيّ يوم يشاء

فيه الثلج أن يحتضن الخيمة من أوتادها إلى عَمَدها، سيلتفت أولاده، واحدهم إلى الآخر، مذكرين بعضهم البعض بأصغر أثرٍ، أو أكبر أثر، ضائع في ساحة البيت، متغافلين عن الأكثر وضوحاً وثقلاً، أيّ: الخيمة. الأم ستنادي دجاجاتها الراكنات إلى حيث تتسنّى لها المخابئ، وهي تذرُّ فُتاتَ خبز على الصّفحة الباردة البيضاء، ساهية، عمداً، عن مكان الخيمة. بعض دجاجات سيعبرن الهضبة الثلجية الصغيرة، التي ليست غير الخيمة المدفونة تحت طبقة من النُّدف، كأنما كن يعبرنها منذ مائتي عام، على نحوٍ عاديّ مُشبِّع بعادتيه. البئر، وسط الساحة، ستبقى مغلقة على مائها. وحدهنَّ الحيوانات التي في الحظيرة قد يختلقن صخباً خفيفاً، لا على اختفاء الخيمة وساكنها، بالطبع، بل طلباً لزاد، أو دلالاً كعهد الحيوان بذلك.

من القادر أن يتكهّن بالمجرى الساخر لسخرية الثلج في عبوره الشمال شبراً شبراً؟ وكرزو، الذي يتساءل قليلاً عن مغزى ما قاله بيكاس الثاني عن وجوب مساءلة عَقْدي، ينسى المُساءَلةَ كلَّها، عائداً أدراجه صوب البيت، وهو يتقرّى بعينيه الساهمتين، وبقدميه، خطّ مجيئه الضائع، عسى يقعُ على أثر للدفتر. ويتوقف، من ثم، على مبعدة خطوات من بوّابة السور حين يسمع من يتتبع خطاه، وإذ يلتفت يرى شبحين يلحقان به في تؤدة.

كان أولاد الملاّ الثلاثة الآخرون نائمين لمّا فتح كرزو الباب، هامساً: «ادخلا». لكن بيكاس الثاني، الذي ألقى من الباب نظرة شاحبة كشحوبه على الأولاد الراقدين في ظل مصباح محتضر، لم

يدخل، بل التفت إلى باب الغرفة الثانية في الجهة الشرقية، سائلاً: «من يرقد هناك؟»، فردّ الصبي: «لا أحد. لكنها باردة، ولا مدفأة فيها»، فتمتم ابن سينم: «ليكُنْ»، واتجه صوبها بالشبح الآخر الذي يتبعه. وحين صارا داخلها أغلقا الباب من ورائهما، فلم يتمالك كرزو نفسه، إذ بقي وحيداً في الساحة العمياء إلا أن يعرض خدماته بإحساس موحش: «سأشعل لكما المصباح. لن تعرفا أين هو»، وتقدم مهرولاً، بيد أن الصوت الخفيض الذي أتاه، من الداخل، ردّه على عقبيه: «لا نريد المصباح».

خلال إحدى عشرة سنة رفض «باران بن ساري»، جد عَقْدي ساري أبي برينا، وجد جدّ برينا، قبل انتقاله من «عامودا» إلى «موسيسانا»، أن تشعل زوجه المصباح في حضوره: «الظلامُ رفاهيةُ الكائن»، وكان يغادر بيته مع المغيب الذي يطول قدومه صيفاً، ويحل على عجل في الشتاء، ذاهباً إلى السور الذي يسميه «حدوداً». ولم يكن ذلك السور سورَ مكانٍ مملوكٍ، بل يقوم، متعرِّجاً على حافة أخدود ربما كان نهراً ذات يوم. سور قديم بِلَبِناتٍ ترابية متراصّة ممحّوة، خلَّفهُ الرعاة، أو الفلاحون الذين أقاموا هناك، في وقت خلا. غير أن «باران» رأى فيه حدوداً بين الأرض من جهة، وبين الواقع الإلهي من جهة أخرى: «هناك» ويشير بإصبعه إلى الأفق في ما وراء السور: «هناك يدور النَّوْرَجُ الأقوى بقواطعه الذهبية. هناك النعمة».

ما من حمار، أو رجل، أو طفل، أو امرأة، إلاَّ رأى ما خلف ذلك السور، عدا «باران». بضع خطوات ويجد المرء نفسه في الجهة الأخرى

من السور غير المديد، حيث تستمر الأرض هي ذاتها، ما قبله وما بعده، ترابيَّةً ذات أخاديد من أثر الجرف والسيول التي تتحدّر من الجهة الشرقية. ولكن «باران» يقسِّمُ بذلك السور الهواء، والوقت، والخيال جميعاً: «هناك.. هناك..». إحدى عشرة سنةٍ مصباحُهُ قلبه، وسَكِينَتُهُ السوّرُ، حتى انهار بما حفّرت المياهُ في أساسه فانهار «باران». وكان لا يستثيره في ما تبقّى من حياته، في ما بعد، سوى المصابيح: «إنكم تعمونني عن رؤيته» ويشير إلى شيء غامض متّسع كحدقتي عينيه.

«لا يريدان المصباح؟ تفو» يقول كرزو، وهو ينظر في غضب صبيانيّ إلى الباب الذي أوصده بيكاس الثاني. أما بيكاس الثاني فيشير، على الشبح الذي يرافقه: «تفضل»، كأنما يرى البساط البنيَّ الذي اهترأت حوافه قليلاً. ويجلس هو، بدوره، مستنداً بظهره إلى الحائط البارد: «الأمر هكذا، إذاً»، يتمتم من غير أن ينظر إلى الجالس أمامه، فيومئ الشبح برأسه: «نعم. هكذا هو الأمر». فيسترسل بيكاس الثاني: «كيف حصل كل هذا دون معرفتي؟» ويجيبه الجالس أمامه: «ليس في مُكنتك أن تقع على كل شيء. فاتتك أمور كثيرة، وسيفوتك غيرها». إذ ذاك يحتدم بيكاس الثاني قليلاً: «أنا وأبي أغدقنا عليكم، جميعاً، نعمةَ أن ترجعوا إلى هذا المكان»، فيردّ الآخر: «كنا سنرجع على أية حال. لا فرق بين هذا المكان وغيره. ونحن لسنا عُزّلاً هذه المرة. انظر»، وأخرج شيئاً ما من تحت عباءته السميكة: «معنا آلاتنا». فدمدم ابن بيكاس: «ومعي ألمي».

«ستستمرون هكذا، سلالتكم كلها، وسنكون حاضرين بدءاً من الآن». يقول الشبح في لهجة تهديد لا تُخفى. عندئذ نهض بيكاس

الثاني واقفاً: «لا أحب غرورك. فَلْنُنْهِ الحوار»، غير أن الشبح لا ينهض، بل ينحني في جلسته متكئاً على مرفقه الشمال وهو يمسِّد بيده اليمنى وجهه الذي لا يُرى: «قد تعرف أشياء كثيرة يا صاحبي، لكنك لا تلمُّ بشيء مما تَسْتَسِرُّهُ آلتي أو تُسِرُّ إليّ»، فيرد ابن بيكاس الواقف: «أرأيت توائمي الاثني عشر داخلين معي؟» فيتمتم الشبح: «لا» وهو يلتفت في هدوء من حوله، فيخبط بيكاس الثاني على البساط: «أنت محدود كآلتك». إذ ذاك ينهض الشبح بدوره في مواجهة الشخص الآخر، هاتفاً: «ستتخبّط حين أسرد عليك بعض ما تفعل آلتي»، فيريد ابن سينم: «ستتخبط أنت، وتتفجر آلتك حين أسرد عليك بعضاً من ألمي».

كرزو يدور من حول شجيرة الزيتون التي لن تكبر قط، من وحشتها، عازفاً عن الدخول إلى غرفة النساء. وبدا للشجيرة وحدها، التي تراه في ذلك الظلام، أن الصبي استبدت به الحيرة للمرة الأولى. وكان يتعمد في دورانه غرز عقبي قدميه في الثلج على نحو منتظم، ناظراً تارةً إلى غرفة ابن أخيه، وأخرى إلى غرفة سينم، ثم يلتفت إلى الشجيرة غامزاً: «تعالي نلحق ببيكاس»، فلا تردّ الشجيرة بالطبع، إذ عليها، كحَدَثٍ نباتيٍ جرت وقائعُهُ في هذه الساحة مصادفةً، أن تلتزم بإضرابها الخاص عن مخاطبة الأنواع الأخرى من حولها، وكرزو منها، وكذلك الزرازير، والثلج، والغيوم. لكنها لا تنسى لمسات الشبح الذي كان يمر بالساحة غارقاً في بياض عباءته، وبياض شعره وعينيه، وهو يحمل دفتراً أزرق حال لون غلافه. وهي ترتعش رعشات خفيفة، الآن، إذ تشمُّ في رائحة الصبي شيئاً من رائحة الشبح ذاك، فتكاد تلمّ أوراقها على عذوبة تخفق كجناح خفيف، ثم تحجم بحكم أن ذلك لا يليق بها، راهناً.

كانت الآلة الغريبة ترتفع بين يدي الشبح إلى المستوى اللائق ببصري رجلين يحدق أحدهما في الآخر، ومن ثم تهبط بها اليدان ذاتهما حتى تستقرّ على الأرض. وإذ تمر برهة صامتة بعد تلك الحركة يفتح الشبح ما بين القضيبين الخشبيين المتصلين، كل بالآخر من أحد طرفيه، بأسلاك نحاسية، بينما تدلّت من ثقوب، على امتدادهما، شراريب تنتهي بمجسَّات فضّية تعبق منها رائحة أحماض نفّاذة: «هكذا» يتمتم الشبح: «ضع كل إصبع على مجَسٍّ، وسيعطيك كلُّ شيءٍ، من حولك، حواسَّهُ وهواجسهُ، حتى لكأنك دورتُهُ، وفلَكُه. فإن التفتَّ إلى ذاتك اقتنصت ما فاتك من انشغالك بأمرٍ عن آخر. بل لربما بكيت اليوم من ألم أصابك البارحة، أو قبل البارحة». فيرفع ابن بيكاس يده مقاطعاً: «لا أريد أن أبكي اليوم مما لم أبكِ منه البارحة. وآلتك هذه لا تليق بمقام من يحملون دفتراً أزرق مثلنا». «وماذا في دفتركم؟» يسأل الشبح الغاضب، فيرد ابن سينم: «فيه ما أتعب جدي أيها الأبله». ويتغاضى الشبح عن الإهانة الخفيفة في جواب الجالس أمامه، سائلاً على نحوٍ مفاجئ: «ألست أنت من نصب الفخ لخاتي؟» فيجفل ابن بيكاس: «أنا؟ ما هذا الهراء؟» «نعم» يرد الشبح، ويضيف: «لماذا أغويت مجيدو بن عَقْدي تلك الليلة؟»، فينهض بيكاس الثاني محتدماً: «أهذه أسئلة أم مزاح سمج؟»، فيرد الشبح في برود: «ستدرك أنك كنت حاضراً في الذي سألتك فيه، حين ترجع إلى هناك»، فيسأله ابن بيكاس: «إلى أين؟» «إلى ما فاتك أيها الأبله» يتمتم الشبح.

الوقت يسرق جسد ابن بيكاس كما سرق، من قبل، جسد أبيه: ذؤابات بيضاء تزداد استطالة في ذلك الظلام، وعضل يتهدَّل من تحت

الثوب النسائي الذي يرتديه. الكتفان تتقوّسان، والأصابع تزداد يباساً في مفاصلها، الصوت يكتنز ويتهدّج قليلاً. بل كل شيء في ذلك الجسد، اختصاراً، يأخذ هِبَتَهُ من الوقت، لكن الخوف لا يطأ عتبة أعماقه، إذْ هو واثق، على نحو مُحيِّر، أن ما ينتظره سينتظره، حتى لو تباطأ في الذهاب إليه ألف عام، لذلك يحدِّق في الشبح الذي أمامه، سائلاً في احتدام مكتوم: «وما الذي فاتني؟» فيبتسم الشبح ابتسامة لا يراها سواه، دون أن يجيب. وكأنما ينتظر ابن بيكاس ذلك، فيمدّ يديه في اتجاه الجالس أمامه: «تعال معي إلى هناك». وإذ يهمس الشبح: «إلى أين؟» ينفخُ بيكاس الثاني الكلامّ نفخاً من مكانه المعتم: «إلى ألمي». وما تكاد تمضي برهة حتى يرشح الشبح عرقاً أخضر، قطرةً قطرةً، كأنما يعتصر دغلُ «نصيبين» نَفْسَهُ من مسامّه.

ينتصف الليل، أو ينحدر قليلاً إلى جهة الفجر. غرفة النساء لم يبارحها ضوءُها، والأكيد أن قصص الآباء هي التي تُبقي الملهاة اليقظانة في كمالها. كرزو الملتصق بالباب، من الخارج، يرتجف ارتجافاً خشناً من برده، لكنه لا يبارح المكان. الشجيرة، التي لن تكبر قط من وحشتها، غافية في حاضرها النباتيِّ. ثلج الساحة مستسلم للسماء الرمادية المعتمة، المستسلمة، بدورها، لزقاقات الحي الغربي، وللعراء الممتد ما بعد بوابة بيت الملا بيناف حتى الثكنة الفرنسية في الشمال الشرقي. أما دغل نصيبين فيشهد حشداً غريباً من البغال، والأشباح، والآلات الخشبية الضخمة الشبيهة بالنوارج، غير أن لها سلالم عالية في منتصفها، كأنما سيستطلع منها الكشّافة تلك المدينة الضائعة في الجهات. والواضح، يقيناً، أن ذلك الحشد يهيئ لأمر

غريب، فالإشارات، والإيماءات تتحول، في برهتها، إلى نفير يقرِّب الأرتالَ أو يباعد ما بينها، فيما يشتعل البخار الصاعد من الأفواه والأنوف اشتعالاً تحت اللألأة البنفجسية الخافتة للهياكل الحيوانية والبشرية معاً. ومن ثم تتصل موجات جديدة من تلك الكائنات الخارجة في ظلام الشجر، حتى يمتلئ المكان بين دغل نصبين ودغل الهلالية، على شكل قوس مديد، متحد، صلب، ينذر بحماقة غيبية آسِرَةٍ ككل الحماقات.

يتكئ بيكاس الثاني بظهره إلى الجدار، بينما يزحف الشبح زحفاً، في الغرفة، من جدار إلى آخر، مُتَهَدِم الهيكل، لا يكاد يسمع من تعبه كلمات ابن بيكاس: «أرأيت؟ أرأيت كبدَهُ المتآكل؟ أرأيت عينيه السائلتين على خديه؟ أرأيت الشرخ الكبير في ثديها؟ أرأيت الجمجمة الرخوة كفُطر «قولو»؟ أرأيت كيف خيّطوا الفخذين، إحداهما إلى الثانية، بالمسلة الحديدية وخيط القُنب؟ أرأيت أحشاءها، هناك، مندلقةً تماماً تحت الميزاب؟ أرأيت ما يكسُر الابنُ في أعماق أبيه، وما يكسرُ الأبُ في أعماق ابنه؟ أرأيت أمه؟ ها؟ ستعتصر قلبَ ابنها لأنه شبيه بقلب أبيه. أرأيت الهضبة أيها الحمار؟ الهضبة.. الهضبة؟ قلبي هناك، بين الجرار المدفونة، وغدي مغبرٌّ مما تثيره أقدام الماعز على سفح طوروس الشرقيّ. أنا، بيكاس الثاني، ابن سينم، فخُّ أمي البلهاء، أنا ابنُ أخي هذا...»، ونهض على عجل، فاتحاً الباب بِدَفْعٍ كاد يخلع مصراعيه: «هذا..» مشيراً إلى كرزو الممتزج بالثلج وبالظلام، مضيفاً: «هذا، هذا هو الذي يخبئ عنّي بقيّةَ الليل».

كان ابن بيكاس يسرد الكلامّ على الشبح دون تراتُبٍ، أو تحديدٍ في قصده، ملقياً الضمائر والحروف القاءً مختلطاً حتى خروجه من الغرفة على النحو المهتاج ذاك. ولمّا صار إلى الساحة، وقال ما قاله في إشارته إلى كرزو، توقف لاهثاً، ومن ثم خطا بضع خطوات في اتجاه الصبي ليتوقّف ثانيةً كمن استدرك أمراً فاته، وبغتة عاد على أعقابه، في عَجَل، مثلما خرج، وإذ صار داخل غرفة الشبح أوصد الباب من خلفه بركلة قوية، صارخاً: «انهض، كلهم هنا» وأشار بيده إلى الجدار الجنوبي للغرفة، ولما التفت الشبح إلى ورائه لم يجد الجدار: كان عمقٌ ما، مضاءٌ بضوءٍ خافت، قد جرف مسافة الغرفة، حتى باتت أشبه بسرداب طويل جداً، تتقابل على جهتيه أبواب كثيرة، بينما يكاد الشبح وابن بيكاس أن يضيِّعهما البصر، إذا نُظِرَ إليهما من الجهة الجنوبية الأقصى، وهما هناك، لصق الجدار الشمالي الباهت، غير المضاء.

الحشد يتقدّم. دغل نصيبين يتقدم بأكمله، وكذلك دغل الهلالية. الحماقةُ تهيئُ منجنيقاتها. ليل صلب وصخب صلب يروّعان الثلج المعرّش بشهواته على الأشكال كلها، ومامن سؤال ترفعه المدينة. حشمو وجهور، وحدهما، في الزقاق المسدود البعيد عن الحشد المتقدم، يصعدان، معاً، سلالمهما على نحوٍ متوجّس، وثمت ضربات عنيفة على شيء معدني داخل خيمة عَقدي ساري، حتى أن الدجاجات الراقدة في مكان ما من الساحة تفتح عيونها، ثم ترجع فتغمضها إذ تهدأ الضربات. كرزو يلتصق بجدار الغرفة المضاءة حيث تسهر النساء، محدِّقاً بعينيه الذابلتين من البرد في الباب الذي يخفي خلفه بيكاس الثاني والشبح. شجيرة الزيتون تتقرّى أعماق جذعها بحثاً عمّا يهدئ النسغ البطيء. السماء تتقلّب كنائم قلقٍ، والثبات للثلج وحده.

الحشد يتقدم.

«انظر» يقول بيكاس الثاني، فينظر الشبح إلى حيث يشير، ويهمس مردفاً: «إنه يخرج الآن»، فيومئ الشبح برأسه: «إنني أراه». وهما بالطبع، يريان، في أول بابين متقابلين في السرداب، من يخرج عارياً من أحدهما داخلاً إلى الآخر، على عجل. إذ ذاك يتقدمان ليتفحّصا ما رأياه، محاولين فتح الباب الذي دخل منه الشخص العاري فيجدانه مقفلاً. يتطلعان، أحدهما إلى الثاني، ثم يكملان مشيهما في اتجاه الأبواب المتقابلة الأخرى في السرداب المضاء بسراج لا يستطيعان تمييزه في ركنه البعيد. لكنهما يتوقفان بعد قليل، قبل أن يتجازا بابين آخرين متقابلين، إذ يخرج رجل وامرأة في هيئة غريبة، نصف عاريين، وهما يدحرجان صخرة من باب إلى باب، ثم يوصدانه خلفهما برتاج يحس بيكاس الثاني والشبح بصليله في عظامهما.

كان على ابن بيكاس والشبح أن يتأمّلا، طويلاً، تلك الأبواب المتقابلة، دون أن يسأل أحدهما الآخر عمّا يجري. وهما، بالطبع، لن يسألا، ففي الذي يدّعيان من المعرفة ما يجعلهما يترفّعان عن ذلك، نكايةً أو تعالياً، برغم الغرابة التي يتفتّح عنها السرداب: خرج العاري الذي رأياه أولاً، ثم خرج الرجل والمرأة، ثم حشد من البغال من الباب الثالث، داخلاً إلى ما يقابله (كيف اتسع المكان لها؟) ثم خرجت فزّاعات راكضة من الباب الرابع، ومن الخامس خرجت جنازة مهيبة لتختفي في الباب الذي يقابله، ومن ثم خرجت عربتا «حنطور» تجرهما الخيول من الباب السادس، داخلتين إلى الباب المقابل، ومن السابع تسابق رجال ببنادق فرنسية إلى الباب المقابل، ومن الباب

الثامن خرجت ثلة من الدرك ما كادت تصل إلى الباب المقابل حتى عادت أدراجها، بضع خطوات، ناظرة في اتجاه الرجلين. وقد توقف الشبح وابن بيكاس قبالتهم، لا يبديان حركة ولا هُمّ يبدونها: العيون تتقرّى الأشكال هنا أو هناك، ومن ثم تكمل ثلة الدرك مرورها إلى الباب الذي يقابل الباب الثامن، من دون أن يرفع أيٌّ عن الآخر عينيه.

الحشد الغريب يتقدم بنوارجه الضخمة وبغاله المضيئة، صاعداً، على شكل طوق، هضبة الهلالية من الغرب، والهضبة الوطيئة التي تعلوها الثكنة الفرنسية من جهة الشرق. المدينة نائمة. السماء نائمة، الثلج منصرف إلى أحواله. كرزو يصفق بيديه قرب نافذة غرفة سينم المضاءة ليجدّد دورة الدم فيهما. سينم تهمس، لأول مرة: «برينا.. برينا» فتلتفت المرأة المصغية إلى أمها وأم البلهاء: «هيه سينم؟». «ابني» تهمس البلهاء في صرامة واضحة، مردفة: «أين ابني؟» فتدهش برينا قليلاً: «ابنك»، ثم تتلفت من حولها مستنجدة: «لا أدري». وتقوم إلى الباب فتفتحه فترى كرزو الذابل تحت ضوء الشباك الشحيح: «كرزو» تقول الاسم في إشفاق: «ترفّق بنفسك يا صبي. ما الذي تفعله؟» فلا يرد الصبي الذاهل بعينيه الغائرتين. «كرزو» تكرر برينا نداءها، وتضيف: «أين ابن سينم؟». وكأنما أفاق كرزو على صفعة. غار رأسه بين كتفيه، بينما دار وجهه الخالي إلاّ من الذهول صوب المرأة، وما لبث أن ركض إلى البوابة صارخاً: «كلهم هنا»، مغادراً ساحة البيت كاللّمح.

دُهشت برينا لبرهة من حركة الصبي، ثم ما لبثت أن ردت الباب تحت إحساسها بهبوب ريح خفيفة باردة، ناظرة إلى النساء الثلاث في

الغرفة، تتوسلهن جواباً دون أن تنبس بكلمة، لكن من سيرد؟ سينم على حالها، يغطي اللحاف جذعها كله، ووجها مبتسم لما لن يراه أحد. المرأتان الأخريان مستغرقتان في سردِ سيرة أبويهما. تصغي إحداهما بالطريقة ذاتها التي تتكلم بها، كأنما لا تتكلمان، ولا تصغيان، برغم الحديث وسجاله. وهما، قطعاً، ساردتان عن دهش برينا وسؤالها غير المنطوق. وهي، نفسها، تكاد تغمض عينيها عن كل شيء؛ تكاد تخرج، مثل كرزو، راكضة إلى الفراغ الأبيض المديد، لكنها تواسي نفسها بشبح الملاّ بيناف داخلاً، على حين غرّة، من الباب، هذه الساعة أو تلك، هامساً في وقاره المعتاد: «جئت ببيكاس معي». وتحاول برينا أن تتلمس ملامح بيكاس في أعماقها فلا تتمكن إلاّ من وجه غارق في شحوب المصباح. وإذ تجاهد أن تقع على ملامح زوجها، على نحو فجائي، تنتفض: ملامح زوجها تستعصي عليها أيضاً، فترفع يدها إلى جبينها المتماوج بفعل اللهب المتماوج، بغتةً، في المصباح: «أووه»، ثم ترخي تلك اليد، محدّقة في فراغ الحائط: «لحيتك خشنة»، وتبتسم لنفسها على كلام لن يسمعه غيرها، متذكرةً ليلة زفافها إلى الرجل الوقور.

بيكاس الثاني يقول للشبح أن يرجعا عن المضيّ في اتجاه الأبواب الأخرى، فلا يصغي. وفي كل خطوة يخطوانها ترتفع همهمات من خلف الأبواب الموصدة، كأنما يهمّ أناس بمغادرة الغُرف لكنهم لا يخرجون. ويعاود ابن بيكاس طرح سؤاله المختنق على الذي معه: «إلى أين تعتقد أنك ذاهب؟» فيرد الشبح بعد برهة: «لست ذاهباً إلى مكان. إنهم هم الذين يأتون»، ويحدّق في عيني صاحبه مستفسراً: «أكانت هذه الغرف موجودة قبل لحظات قليلة؟». وإذ يرد ابن بيكاس سلباً،

يضيف الشبح: «إنها ليست موجودة الآن أيضاً، المسألة مزاح، فلا تتصنّع هذه الحيرة»، غير أن ابن بيكاس يشده من رُدْنِ عباءته مستوقفاً: «انظر» فينظر الشبح، متوقفاً، إلى الباب التاسع الذي تَفتَّح عن شخصين على هيئة الشبح وبيكاس الثاني، ذاتهما، «إنهما ..» تمتما معاً، وأمسك أحدهما بِعَضُدِ الأخر.

الحشد يتقدم بنوارجه الضخمة، وبيوت المدينة لا ينظر بعضها إلى بعضٍ، أو إلى الأفق المتّشح بالبياض الغامض، المحتشد، الذي تطوي فيه الموجة الرمادية، المعتمة، ما قبلها، لتُطوى بالموجة التي تلي. فالبيوت لا تملك عيوناً، كما تعلمون، والشبابيك، التي يجري الفَرَض على أنها نظرات الجدران إلى ما لا يحتاج إلى نظر، مغلقةٌ، باهتةٌ، وكسلى. وكذلك الزقاقات في الحي الغربي، بل في أيِّ حيٍّ آخر، فهي لا تستطيع أن ترتفع إلى ما فوق مستوى الأسطحة لترى ما يجري. الزقاقات زقاقات. الزقاقات محكومة بألاّ ترتفع قط، فهي متمدّدة بأطوالها، تعبث عبثاً غير محتشم بالجدران الأنثوية، وبالهواء والثلج الأنثويين. أيّ، في بساطة لا بساطة بعدها، ما من أحد سيصرخ منذراً. ولماذا الإنذار، بحقٍّ؟ حشد مّا يتقدم في إصرار ملول يستأهل نظرة واحدة من عين نصف مغمضة، ليعود الناظر، بعد ذلك، إلى نومه، لا أكثر. غير أن المستحكَمَتَيْن بتاريخ مطّرز كاللقالق على المخدّات - أم برينا وأم سينم - تفتحان عيونهما على حشد لا يتقدّم، بل يقف هناك، في مرمى أعماقهما المنبسطة كصحفة الطعام: «أبي..» تقول إحداهن، فلا تنتظر الأخرى حتى تقول، هي أيضاً، على عجل: «وأبي..». «اسمعي» تقول الواحدة، فترد الثانية: «اسمعي..». «إنه»، «إنه». كلام

يتقاطع في كثير من مفاصله. كلام يتداخل بصوتين ممتزجين عجولين. يد هذه ترتفع لتنخفض يد تلك، لكن الشفاه الأربع تتحرك الحركة ذاتها، في الآن ذاته: «لو كان أبي حيّاً لحرق سيارة البيك آب» تقول أم سينم، فتتمتم أم برينا: «نعم. نعم. لو كان أبي في محل أبيك لفعل ذلك أيضاً. أبي..»، فتكمل أم سينم دون إنذار: «أولاد أخي حرضوه على شراء البيك آب. قلنا: ما لكَ وما للبيك آب؟ ليس لديك ما تنقله يا كَلَشْ بهذا الحيوان»، وترفع يدها عالياً: «واللّه أحسسنا أن السيارة الكلبة تدبّر له شيئاً». وترد أم برينا من غير مبرر: «كل السيارات أولاد حرام. نحن، أيضاً، أحسسنا أنها تدبر شيئاً». وترفع أم سينم حاجبيها: «أنتم أيضاً؟ أرأيتم السيارة؟». «لا» ترد المرأة الأخرى، مردفة: «لكن السيارة سيارة. نحن نعرف ذلك»، فتبادرها أم سينم: «لابد أنكم رأيتموها. ها؟ واللّه، حين كانوا يديرونها بذلك القضيب الحديدي، من المقدمة، كان قلبي يطير. يطير مثل..» وتقاطعها أم برينا: «كان قلبنا يطير أيضاً..»، وتمعن أم سينم النظر فيها بغتة: «لماذا يطير قلبكم؟». «يطير» ترد الأخرى، رافعة منكبيها على نحو متسائل: «يطير. السيارات تطيّر القلب، وكان إحساسنا..»، فتمعن أم سينم في سؤالها المفعم بالشك: «واللّه كنتم تعرفون أنتم أيضاً..»، وتتساءل أم برينا: «نعرف ماذا؟» فتقول الأخرى: «تعرفون ما تدبّره السيارة. لم تقولوا شيئاً. سَكَتُّم»، «لا، واللّه يا عيشانه» ترد أم برينا، مضيفة: «ما لنا وما للسيارة. نحن لم نرها، ولم نسمع أن أخاك اشتراها. واللّه..»، فتوقفها عيشانة بنت أوسي بدرخان، أم سينم، متمتمة في صرامة: «الكل كان يعرف يا زِيْرِكَةْ، والكل سكت»، وتخفض عينيها في

استسلام: «مصباحا السيارة كانا مثل عيني الشيطان. أفزعتاني، حين رأيتهما، أول مرة، فزعت. كانتا جاحظتين كعيني الشيطان. والشبك الصفيحي، من أمام، كان مثل فم.. مثل فم..» وتلتفت إلى زيركَهْ: «يشبه فم مَنْ؟» فترد زيركه، أم برينا: «مثل فم القحبة». فتصمت أم سينم متفكرة في تشبيه جلسيتها: «القحبة؟ أرأيت السيارة؟»، وترفع أم برينا يديها متبّرمة من السؤال: «رأيتُ مؤخرتي».

لقد اشترى كَلَشْ، أخو عيشانه، خال سينم، سيارة «بيك آب» بإلحاح من أولاده، حين قدموا إلى مدينة القامشلي، تباهياً. وكانت العادة أن يحوز هذا النوع من الآلات من يملكون حقول قمح أو شعير، ويضطرون إلى مواكبة الحصَّادات الآلية بها، ونقل المؤونة الخفيفة من المدينة إلى العاملين في شؤون الحصاد صيفاً. غير أن كلش البسيط لم يخيّب تلك الرغبة اللجوجة في عيون أولاده: «نشتري بيك آب؟ نشتريها، وليكن ما يكون». وتعاقب، من ثم، أولاده الستة على قيادتها دون سابق معرفة، حتى تمكنوا منها، وسط هتافات يومية في الحقل الذي يجاور بيتهم. إلاَّ أن أكثرهم افتتاناً بتلك الآلة، بعد ذلك، كان «كلش» ذاته، برغم أنه لم يُبدِ أية حماسة لتعلُّمِ قيادتها: «تليق بالأولاد»، هكذا يكرر أمام من يرى في عينيه انبهاره وهو يتطلع إلى البيك آب. وفي أواخر الشهر الرابع من شرائها اختفت السيارة، وكلش، وابنه الأحمق «سَرْبَسْتْ»، الملقب بـ«الهَصْبَ» (أي: حجر النشادر).

«اشترينا عدة صفائح من البنزين» يقول «سَرْبَسْتْ» بعد ظهوره، ويكمل: «وضع أبي لحافاً في السيارة يتغطى به حين ينام، وكيساً من «الباقسمات» (خبز محمَّر يابس)، إضافة إلى صفيحة الحلاوة. كنا

نأكل بين قرية وأخرى. ولم أنم ستة أيام». والحكاية برمتها، أن كلش تموّن بما قدر عليه، وحرّض ابنه على جولة طويلة بالسيارة بين القرى، حبّاً، وولهاً بما تثيره من غبار كثير «يخفي عشرة رجال»، كما يقول. وكان يقف في مؤخرة البيك آب المكشوفة، ذاهلاً يتطاير جلبابه، ملوّحاً للعراء من حوله، وقد كساه الغبار حتى انقلب إلى فكاهة ذات حدقتين حمراوين. وهكذا انقضت الحال بين عراء وآخر، وهضبة وأخرى، وتخوم وتخوم، وصعود ونزول، وواد وسهل، وتراب وحصى، إلى أن كان اليوم السادس الذي بقي الأب فيه متمدّداً على اللحاف الذي افترش بعضه وتغطى ببعضه الآخر، ولما جاهد «حجر النشادر» أن يوقظه، كان قد استسلم إلى فراغ الحماقة الحلوة، مختنقاً بما استنشق من الغبار.

«يوماً بعد يوم كان صوته يختفي» يقول ابنه الأحمق. «بات يسعل ولا يأكل. بات يخبط على صدره إذا توقفت، مشيراً أن أمضي». ويحاول التخفيف من شراكته في ما جرى، مولولاً: «لم تبق حفرة لم أصدمها، ليتعب أبي من الرّضّ، أو لتتعطّل السيارة»، ثم ينظر من حوله مستنجداً بأية نظرة توافقه على ما يقول، فيرى الجميع منصرفاً عنه بسمعه، وقد خيّم ما يشبه عدم الاكتراث بالأمر كله. والحق، بحسب تقدير من حضروا جنازة الرجل، أو عرفوه، أنّ ما من أحد أبدى اكتراثاً كبيراً لموته، لكن أخته عيشانه، أم سينم، تضرب على صدرها أمام أم برينا، في الغرفة التي تتمدّد فيها البلهاء: «كانت الدموع كافية لغسل مائة ميت، أما مِزَقَ الثياب، من كثرة ما شققتها الأيدي، فقد استغرق جمعها منّا يومين، وصنعنا منها، من ثمّ، بساطاً بطول أربع عشرة ذراعاً وهبناه إلى «ميروكي» العمياء».

ابن بيكاس والشبح يحدّقان في شبيهيهما الخارجين من الباب التاسع، لكن طرقات عنيفة على باب ما، بعيد قليلاً، تعيدهما إلى يقظة كادا يجاوزانها، ولمّا التفتا كانت المسافة الطويلة للسرداب تتقاصر على عجل، كأنما استيقظت هي ذاتها، بعدما امتدت، فجاءةً، وتوالدت الغرف بأبوابها المتقابلة. وبعد برهة باتت الغرفة التي كانا فيها على سابق أبعادها، بأمتارٍ قليلة، دون مصباح، وصوت كرزو يرتفع مع الطرقات: «كلهم هنا»، وإذ فتح بيكاس الثاني الباب، مُطلاً بهيكله الغارق في سنوات عصفَ بها، بغتةً، على ظلام الساحة، كان كرزو يركض في اتجاه البوابة، كأنما بلَّغ ما توجَّب أن يبلِّغه، وأعفى نفسه من أية مساءلة. وبالطبع، لم يقع ابن بيكاس على أحد حين جال بعينيه على الفراغ الرمادي، فأوصد الباب من خلفه، ملتفتاً في ظلام الغرفة إلى شريكه: «هذا الصبي غارق حتى غُرَّته في همومنا». أما كرزو فلم يكن غارقاً في شيء مما اعتقده ابن أخيه، بل يقوم بما أُوكِلَ إليه، أو أَوْكَلَهُ إلى نفسه، لا فرق: «هذه الزرازير.. هذه الزرازير..» يتمتم في الظلام الذي يلي البوابة، حيث يقف شخص واحد، مُنْحن قليلاً، على مبعدة منه، ثم يفتح ذراعيه على وسعهما دون أن يتقدم خطوةً: «هذه الزرازير. هذه الزرازير» مكرّراً الجملة على نحوٍ هاذٍ، قبل أن يرتخي جسده فيهبط، بطيئاً، على الثلج. لكن الشخص الواقف يتقدم صوبه، ويرفعه قليلاً وقد سنده بصدره، كمن يوقظ طفلاً نائماً، في حنوٍ بالغٍ مبلَغَهُ.

الحشد يتقدم. صخب هامس يرمي شبكته بين الهضبتين الواطئتين، من الهلالية غرباً، إلى الثكنة الفرنسية شرقاً؛ وصخب أقل همساً يعبر ساحة بيت الملاّ بيناف، إثر خروج بيكاس الثاني والشبح من

الغرفة المظلمة، وهما يتجادلان: «لا خبرة لك بهذا» يقول الشبح محتدماً، فيرد صاحبه: «وخبرتك كوجهك الذي تخفيه تحت العباءة»، ويردف: «كرزو يعرف أكثر، وكذلك سينم، وهذه الـ...» مشيراً إلى شجيرة الزيتون التي لن تكبر قط: «هذه. نعم. ما من أحد في حاجة إلى خبرة. إنسَ، إنسَ، تكنْ سيداً»، وتنزلق قدمه قليلاً فيتكئ على الشبح، مغمغماً في تعب: «كلهم هنا. ما من مكان لأحد بعد الآن»، ولمّا يعبران البوابة في اتجاه لا يحددانه، برغم اتجاه الخطى شمالاً، في الظاهر الذي يتبدّى لعين لا ترى إلاّ عن كثب، يريان «كرزو» والذي معه، مقبلين يسند أحدهما الآخر، فيتجاهلانهما، وإذ يهمس الشبح إلى ابن بيكاس: «أليسَ هذا..» يقاطعه ابن بيكاس هَمْساً بدوره: «نعم. إنه أبي. جاء يأخذهما».

«يأخذهما. إنه يأخذهما» تتمتم برينا في أعماقها، وهي تكاد تحس باليدين الخشنتين للملاّ، تتقرّيان ثدييها، فتجفل في مجلسها، داخل غرفة سينم، وقد سهت عن النساء الثلاث، باحثة بأعماقها عن يد البعل الذي أسلمته فجر الأنوثة كله، وقد خامرها، آنذاك، أنها تهبُ ما تهبُ، في حياءٍ فضّاح، إلى ذكر سيأخذها نهباً، فَفَاجَأَها بحياءٍ فضَّاح تحت خشونة لحيته، ويديه، وصوته الذي جاهد، كوقورٍ، فخنقه حتى لا يعلو لهاثه. ولما أفاقت، في الصباح الأول لزواجها أخذتها عينا الرجل المحدقتان في وجهها، فلم تر من وجهه إلاّ هما بعد ذلك: كانتا مكحّلتين ومغرورقتين كأنما يهم بالبكاء. وقد عرفت، من ثمَّ، أنهما هكذا أبداً، مغرورقتان، إنما يذهب الكحل وحده، ويأتي، كلّما عنّ للملاّ أن غبشاً ما يصيبهما. وما كانت برينا لتهتمّ بغبشهما أو بسواه، بل بذلك الظل الذي يضفيه الكحل على عيني بعلها، فيجعلها، هي، أكثر جسارة في دفعه إلى

ما يريده منها، آن يحجُب إفصاحَ جسده، ولهاثه. ولذا أسرّت إليه، ذات مرّة، على نحو يشي بدعابة لم يُخفَ ما وراءها عن الرجل الوقور: «ضع كحلاً على عينيك كلّما واقَعْتني»، وإذ بادرها الملاّ سائلاً: «أنت لا ترين عيني في الظلام، فلماذا الكحل؟» قالت متدلّهة: «إنها هنا» وأشارت إلى عينيها هي. فكان الرجل يكتحل على مرأى منها، مساءً، كلّما أرادها، فتتهيأ هي له دون تصريح. وللملاّ، ككل رجال الشمال، مرآةُ جيب مستديرة، صغيرة، ذات غطاءٍ من النحاس مرقّشٍ، يطبُقهُ عليها فتغدو علبةً بهية توضع في جيب السترة الفضفاضة التي يرتديها؛ وله مكحلة، أيضاً، من عظم الهدهد، وكيس أزرق صغير يُحفظ فيه الكحل، فيلفُّهُ إذا فرغ منه، ويعقد عليه خيطاً مجدولاً من حرير نقيّ. أما ملقط الشّعر الذي يزوِّق به شاربيه فكان من نحاس علا زاويته صدأ أخضر. ولطالما بادلته برينا ملقطاً بملقط حين يتململ من أن الذي معه يخطئ الشعرة المقصودة ويصيب غيرها، لكنه لم يتخلّ عن ذلك الملقط: يُخرجه من جيبه، ويتذمّر قليلاً، ثم يعيده إلى حيث كان. ولربما ساعدته برينا، على كل حال، في التقاط بعض الشعر مما يعلو وجنته اليسرى، لأن يده اليمنى تعكس ظلها على تلك الوجنة، أبداً، مهما استدار الرجل في اتجاهات الضوء، فيُخْفى على الملقط ما يجب أن يَلْتَقط: «اقتلعت سلالة روحي» يقول مداعباً زوجه، وقد تصنّع الألم، فتطلق هي آهةً مواساةً، معتذرةً بإشارة من عينيها وفمها المزموم: «فلتتقصّف يديّ التي آذتك»، فيعابثها إذ ذاك، ماداً يده إلى ثديها الذي يتدلى كنيزك صغير من قبّة الجسد المنحني عليه، فتجفل: «يا لَكَ.. يا لكَ..» وترفع قامتها معاتبةً في دلال: «استحِ».

«سَرْبَسْت الكلب»، قالت أم سينم، فأفاقت برينا من سَرَحانها على اسم الابن الذي أسلم أباه إلى حماقته الحلوة، وكادت أن تشارك المرأتين، في ضجر واضح، بعضاً مما يتداولن فيه، لكنها آثرت أن تسمع فحسب، ناظرة إلى البلهاء التي لا تصغي إلاَّ إلى فراغها، في استنادها إلى الوسادة والجدار معاً، وكانت تكرر، في أعماقها، اسم «سَرْبَسْتْ» على نحو يزيد وطأة الضجر كلّما همست المرأتان بالاسم ذاك. وقد همّت أن تطالبهما بالكفّ عن ذكر الكلمة، وأن يستبدلاها بـ «حجر النشادر»، فألهاها ما تعمدان إليه من وصفه بالوسامة، برغم كل ما ألصقت به أم سينم من صفات الحماقة: «عيناه.. آه» تقول إحداهن، فتردِّد الأخرى: «عيناه.. آه». أما ما نسيتا أن تسرداه، في جلستهما تلك، فهو أن «حجر النشادر» قاد السيارة على نحو جنوني، في أثناء صعود المشيعين بجثمان أبيه الهضبة التي تفضي إلى مقبرة «الهلالية، حتى أنهم تفرَّقوا هَلعينَ، وقد ألقوا بالميت أرضاً عن أكتافهم. ولم يتوقف الأحمق، من ثم، إلاَّ قرب «عين الكبريت» في بلدة «الدِّرباسيَّة»، حيث الماء الفستقية الغريبة برائحتها التي لا تعلوها رائحة قط، وببعوضها الشرس المحموم. وصعد بالبيك آب، في اليوم التالي شمالاً، داخلاً بها الأرض التركية، وقد تسلَّمه مخفر الحدود، في مدينة قامشلو، من الخفر الأتراك بعد تسعة أيام، فانهال السوريوين عليه شتماً وركلاً يومين، ثم أعادوه إلى ذويه، أما الـ «بيك آب» فصارت ملك الجانب الآخر من السياج الأناضولي، وهي مُلكيَّة يُتعارف عليها تحت كلمة «مصادرة». لكن أحداً لم يهتم بالأمر كلّه، إلاَّ عيشانة، أم سينم، ليس في ما مضى، بل في تلك الليلة التي تواطأت فيها، هي وأم برينا، على سيرة أبويهما المستسلمة للتنقيح، والإضافة، والتحوير الممكن بقدْر ما تسمح مخيّلة إحداهنَّ.

..والحشد يتقدم. لألأةُ تتسلق الهضبتين، من «الهلالية» غرباً، إلى الثكنة الفرنسية شرقاً، من أثر البغال المضيئة الصاعدة. الهواء يكتم أنفاسه، والبيوت تتستَّر بالبيوت. قبور طائرة في الظلام الرمادي، والثلج يطلق صقوره العمياء تتصيّدُ حماماته العمياء. إشاراتٌ كأذيال الثعالب تُجرجر فراءها الناعم من زقاق إلى آخر، وحقولٌ، مقنَّعةٌ، وسط الأحراش الصغيرة المبثوثة هنا وهناك، تغزلُ أقدارها للمواسم القادمة. أما كرزو فيرتطم بعتبة بوّابة السور أولاً، ثم يُجاوزُها فتنزلق قدمه على الثلج؛ ثم يستوي إثر إمالته فيزفر زفيراً متقطّعاً، ويركض صوب الغرفة التي ولدت فيها سينم ابنها: «برينا» يصرخ حتى قبل أن يدير مقبض الباب. «برينا .. إنه يريدكما، أنت وسينم». فتلتفت برينا مجفلةً: «مَنْ؟»، فلا يردّ الصّبيّ الواقف في الباب، بل يتمعَّن فيها، وسط ذلك الضوء الشحيح، كمن يُدرك أنها تعرفُ قصدهُ تماماً.

شجيرة الزيتون، التي لن تكبر قط من وحشتها، تعرف، أيضاً، قصد الصبي الذي رأته مهرولاً في الظلام. وكانت تعوَّدت، من كل صبيٍّ راكضٍ في تلك الساحة، على كل حالٍ، خبراً خفيفاً كخفّة العُمر، أو ثقيلاً سيلقيه حاملُهُ على مسمع الآخرين في خفَّة كخفّة العمر. فعلى النحو ذاته من هرولة كرزو، الآن، دخل أخوه «زيوان» الساحة، قبل ما لم تحسبه الشجيرة من أيام، صارخاً أن المرأة الآشورية ألقت بكلبها المدعو «بونجي» في التنور، وأن زوجها، أسفاً على الكلب، ألقى بها في التنور، وأن أولاده ألقوا به في التنور، ثم ألقوا بأنفسهم فيه تباعاً، فماتوا. والحقيقة لم تكن كذلك بالطبع، ومُختصرها أن المرأة انتقمت من أولادها بإحراق الكلب، لأنهم يؤثرونه على أنفسهم فيطعمونه من طعامهم طوال الوقت،

ولا يأكلون كما تريد الأم لهم أن يأكلوا. ولما ألقت به في التنور احتدم زوجها لمرأى الحيوان الصغير منتفضاً وسط النار وهو يَثِبُ فلا يبلغ فوهة التنور المسجَّر، فكاد، من سخطه ولوعته، أن يرفع زوجه عن الأرض كأنما سيلقي بها إلى حيث الأنين المختنق للكلب، لكن أولاده حاصروه مهدئين. وانتهى الأمر على هذا النحو، برغم الشجار الذي امتد، داخل العائلة، لأيامٍ، وكانت تتخلله قرقعات أحذية على الأبواب، وانفجارُ أوانٍ خزفية، ولطماتٌ تنتهي بعويل خافت.

وعلى النحو ذاته، أيضاً، تتذكر شجيرة الزيتون أن «حشمو» دخل الساحة مهرولاً، وهو يصرخ: «مجيدو قتل باقي جواني»، كما دخل من قبل، أو من بعد - لا على التعيين - أناس كثر، مهرولين بأخبارٍ مهرولةٍ تتراوح بين مقتل إنسان أو شكوى ضد طفل؛ مهرولين بأخبار تلقى في خفَّةٍ، من ذلك التاريخ إلى الأبد. لذلك لم يكن غريباً على الشجيرة أن يأتي كرزو على هيئته تلك، فهو سيطلق الخبر من قفص لهفته، وسينتظر انفجار الحيرة التي يجب أن يراها على الوجوه. وتكاد تبتسم، ورقةً ورقةً، في الظلام ذي الوبرِ المُدَغْدِغِ، هامسةً إلى نفسها بكلام لا يفهمه سوى النبات. أما كرزو الذي وارب الباب من ورائه، اتقاءَ الوهج البارد المتسلل معه إلى غرفة سينم، فقد بدا غير متلهف إلى رد زوج أبيه، إذ تلهى بالمصباحين المعلقين إلى الحائط، يزيد شعلتيهما وهجاً بعدما خبتا.

ديكٌ ما، من تحت سقيفةٍ معتمة لا تُرى، يرفع صياحه إلى الفجر المقترب في كسلٍ يستحق التوبيخ؛ بحسب ما تفكر شجيرة الزيتون التي لن تكبر قطُّ من وحشتها. ديك ما، وحيد، في ذلك الظلام المستحم

بسكينة من الثلج والأقدار، يمرِّنُ جسارته في أن يحيا، حتى من دون أن يجاوب صياحه ديكٌ آخر، كما هو مألوف في مخاطبات هذا الصنف من الطير، بينما راح الشبح، وابن بيكاس، يتجادلان في توجههما إلى الشمال الشرقي، عبر العراء الذي يلي ساحة بيت الملاّ: «أنت..» يقول أحدهما، فيرد الثاني: «أنت..» فلا يتسقط الثلج من جدالهما غير تلك الكلمة، كأنما يفهم الواحد صاحبه من إشارات لا يراها، وبقية كلام لا حاجة به إليها. غير أنهما يقفان، بين لحظات وأخرى، ضاربين بأعقابهما في الأرض، وهما يشيران إلى الحي الغربي تارةً، وإلى الجنوب تارةً، أو ينحنيان متمعِّنين في آثار خطواتٍ سبقتهما إلى الاتجاه الذي يقصدانه. وكان ظلاهما يرتسمان، على جنبيهما، فوق الثلج، من دون أن يكون ثمَّت ضوءٌ لقمرٍ، أو لسراجٍ، أو لمقامٍ نورانيٍّ يعبر من هناك مصادفةً. وإذ يمعنان غوصاً بأقدامهما في المخمل الرماديّ البارد، يمعنُ الظلان غوصاً، بدورهما، كأن لهما ثقلاً على جنبيَّ الرجلين يضارع الثقل الكثيف في هيكلهما، حتى أن الظلين كانا يشقان الثلج كما محراث، تماماً مثلما كان يشق مفتاح «جَكَرْخُوِيْنْ»، خال الملا بيناف، أرض غُرف بيته، وهو يجرُّه من ورائه جراًّ لضخامته، كلما انتقل من مكان إلى آخر. ولم يفارقه ذلك المفتاح حتى مات، وأوصى بدفنه إلى جانبه، لكن أحداً لم يذكرْ إن كانت الوصية نُفِذَت أم لا.

مفتاحٌ خشبي ظلّ يكبر سنة بعد أخرى، حتى غدا، في ثلاثين سنة، أطول من قامة رجل. وظل «جَكَرْخُوِيْنْ» وحده، يبدي دَهشه من ذلك النموّ: «أووه. العُقْدَةُ من هنا إلى هنا. انظر». ويقيس أسفل المفتاح الخشبي بسبابته: «أنظر، لقد طال» يقول مخاطباً من يلتقيه. غير أن

المحيطين به، جميعاً، لم يُبدوا دهشاً قط، كأنما كان يجري الذي يجري في خاطر الرجل وحده. أما ظلاَّ الشبح وابن بيكاس فلم يكونا خاطراً من خواطر الثلج، بل لهما عمقٌ، ورائحةٌ، وأثرٌ، يمكن لقيَّافٍ أن يتتبَّعهُ حتى في الظلام. غير أن الندَف البيضاء التي زاد تهطالها، بغتةً، ولم تكن، من قبل، إلاَّ نثيثاً هيناً لا يؤبه له، القَت ستارها على كل أثر. وكان كرزو، الذي ينتظر جواب برينا في غرفة سينم، يفتح الباب بين برهةٍ وأخرى، هامساً دون أن يلتفت: «انفجرت. انفجرتْ» في إشارة إلى الهطول المتسارع للريش السماوي خارجاً، وكأنما يحثُّ برينا أن تستعجل. وبرينا مستعجلة، حقاً، في تمكين سينم من ارتداء ثياب ليست للبلهاء، ومن لفها بلحاف سميك يغطيها من الرأس حتى القدمين، وإذ انتهت من زوجة ابنها لفّت جسدها أيضاً بغطاء سميك، وألقت نظرةً مبهمةً على أمها وأم سينم معاً، وهي تأخذ بيد ابنة الأخيرة في عبورها صوب الباب.

لم تُعِر المرأتان (زوج مهمد وزوج عَقْدي) برينا وسينم أية التفاتة. كانتا ماضيتين، على نحوٍ هاذٍ، في سرد باطنيهما: «أبي» تقول إحداهن، فتردّ الأخرى: «أبي». ولما أمسى الثلاثة خارجاً ـ كرزو وزوج أبيه وزوج أخيه ـ امتزج الصرير المختنق لحكايات المرأتين بصرير الباب الذي أطبقته يدُ برينا الضجرة من ورائها.

إنها لم تسأل كرزو غير سؤال واحد لم تنتظر جوابه. قال: «إنه يريدكما»، فقالت: «مَنْ؟» ثم سكتت تماماً لتمضي إلى ثيابها تُهَيِّئ نفسها وتهيِّئُ البلهاء معاً. وهي تدرك، بباطن يدرك الحيلة عادةً، أن

كرزو كان على قربٍ خفيٍّ من الحيل كلِّها، ومن السخرية المربكة التي ألقت بها رحمها كَنَرْدٍ على مسافة الشمال. وقد جالت ببصرها على الساحة، حين أوصدت الباب من ورائها، علها تقع على ما تلهفت، خفيةً، أن تراه، فلم تلمح غير كرزو وشجيرة الزيتون التي لن تكبر، قط، من وحشتها، فأومأت برأسها إلى البلهاء أن تتبعها فتبعتها، بينما وثب الصبي وثباً إلى بوابة السور، كدليلٍ عليه أن يبدي مهارةً صغيرةً حين لا يكون واثقاً من خطواته التالية.

ومَنْ عسى يكون واثقاً من خطوته التالية؟ السلالم على حالها في الزقاق المغلق. خيمة عَقدي على حالها. ظلال الرؤوس، في هيئتها الكلبية، على حالها. الحشد المتقدم صوب المدينة على حاله. المسافةُ بين هضبة الهلالية والثكنة الفرنسية على حالها. قبر خاتي على حاله. الزرازير التي ستهبط من علياء السلك فوق ساحة بيت الملا، والثلج، ودغل الشربين والسرو، ونهر جَغْجَغ، والريحُ الرَّخيَّةُ، وشجيرة الزيتون، والأشباح الهائمة التي ضيّعت إناثها، والفضاء، والسّراجان في غرفة سينم، والشفاه الأربع للمرآتين المنسلتين، همساً، إلى رائحة أبويهما، والبيوت، وما بعد البيوت، وما بعد بعد الأفق المختصر في حكاية مختصرةٍ، كلُّها، طراً، على حالها. أما الفجر الذي كان يتنفس، عميقاً تحت ثقل هباته المرئية واللا مرئية، فلم يعر المكان غير شحوبه، تاركاً للحيوات والأشكال أن تمضي في طيشها. وبالطبع لم تُعر الحيواتُ والأشكالُ الفجرَ غَير صفيرها المُتَهكّم، وكانت تنشقُّ وتزدوجُ فلا يعرف الفجر أيّاً يضيء وأيّاً يحجب عنه ضياءه، لذلك بلغ الشحوبُ مبلَغَه في المكان، وعمَّ الهمسُ والخُفُوتُ كأنما لن يوقظَ شيءٌ شيئاً.

«منْ هنا» هَمَس كرزو، وهو يتجه شمالَ شرقِ العراء، فطاوعته زوج أبيه الممسكة بيد سينم. ولما أوغل الثلاثة قليلاً، في المدى المُغلق على مجون الثلج، تبدى لهم هيكلٌ شاحبٌ، منحنٍ كأنّما يعاين قدميه، وقد التفت صوبهم برأسه، في وقفته، أو خُيّل لهم ذلك، فتوقفوا يتمالكون أنفاسهم. غير أن كرزو كان أوّل المتمتمين: «إنه هو»، فلم تجد برينا ما تعلّق به على كلمتي الصبي، بشفتها المرتخية من أثر فكّها السُّفلي المرتخي، غير همهمة التقطت منها سينم كلمة «هو»، فَعَلَتْ هَأْهَأَتُها: «ديك: للديك خصيتان»، وهرولتْ فأُفْلِتَ رُدْنُ ثوبها من يد برينا التي كانت تمسك به وهي تقود البلهاء.

إنهم يتقدمون، الآن، صوب بيكاس الذي ينتظرهم، بخطى أقرب إلى الهرولة التي بدأتها سينم، ولمّا بلغوه لم يفتح الرجل الغائص في السنين ذراعيه لهم، بل استدار ومضى، فتبعوه دون همس إلى الجهة المعلومةِ بتدبيرٍ غير معلوم.

*

شجيرة الزيتون، التي لن تكبر قطُّ من وحشتها، استسلمت إلى قَدَرِها النَّباتي، فلم تعد تتفكَّر في شيء. أمّا الحشدُ المضيء، الذي كان يتقدمَ، صاعداً هضبة الهلالية غرباً، وهضبة الثكنة الفرنسية شرقاً، فقد اكتملت حلقةُ حصاره على المكان، حتى أنَّ البيوت التي تململت، باحثةً عن منفذٍ، عادت فهدأت وهي ترى الزقاقات مسدودة على أتمِّها.

نيقوسيا 1983-1985

صدر للمؤلف

- كل داخل سيهتف لأجلي، وكل خارج أيضاً (شعر)
- هكذا أبعثر موسيسانا (شعر)
- للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك (شعر)
- الجمهرات (شعر)
- الجندب الحديدي (سيرة الطفولة) (سيرة)
- الكراكي (شعر)
- هاته عالياً، هاتِ النَّفير على آخره (سيرة الصبا) (سيرة)
- فقهاء الظلام (رواية)
- بالشِّباك ذاتها؛ بالثعالب التي تقود الريح (شعر)
- أرواح هندسية (رواية)
- الريش (رواية)
- البازيار (شعر)
- الأعمال الشعرية (شعر)
- معسكرات الأبد (رواية)
- طيش الياقوت (شعر)
- الفلكيون في ثلثاء الموت: عبور البشروش (رواية)
- الفلكيون في ثلثاء الموت: الكون (رواية)
- الفلكيون في ثلثاء الموت: كبد ميلاؤس (رواية)
- المجابهات؛ المواثيق الأجران؛ التصاريف، وغيرها (شعر)
- أنقاض الأزل الثاني (رواية)
- الأقراباذين (مقالات في علوم النَّظر)

- المثاقيل (شعر)
- الأختام والسديم (رواية)
- دلشاد (فراسخ الخلود المهجورة) (رواية)
- كهوف هَايْدْرَاهُوْدَاهُوْس (رواية)
- المعجم (شعر)
- ثاذْرِيْمِيْسْ (شعر)
- موتى مبتدئون (رواية)
- السلالم الرملية (شعر)
- شعب الثالثة فجراً من الخميس الثالث (شعر)
- لوعة الأليف اللاموصوف المُحير في صوت سارماك (رواية)
- ترجمة البازلت (شعر)
- هياج الإوز (رواية)
- التعجيل في قروض النثر (نصوص)
- حوافر مهشّمة في هايدراهوداهوس (رواية)
- السَّيل (بلغتُنَّ، أخيراً، عُمرَ الأربعاء) (شعر)
- السماء شاغرة فوق أورشليم (رواية)
- عجرفة المتجانس (شعر)
- السماء شاغرة فوق أورشليم "ج2" (رواية)
- آلهة (شعر)
- حورية الماء وبناتُها (رواية)
- شمال القلوب أو غربُها (عشاق لم يحسِموا أمرَهم) (شعر)
- سجناء جبل آيايانو الشرقي (رواية)
- سوريا (شعر)